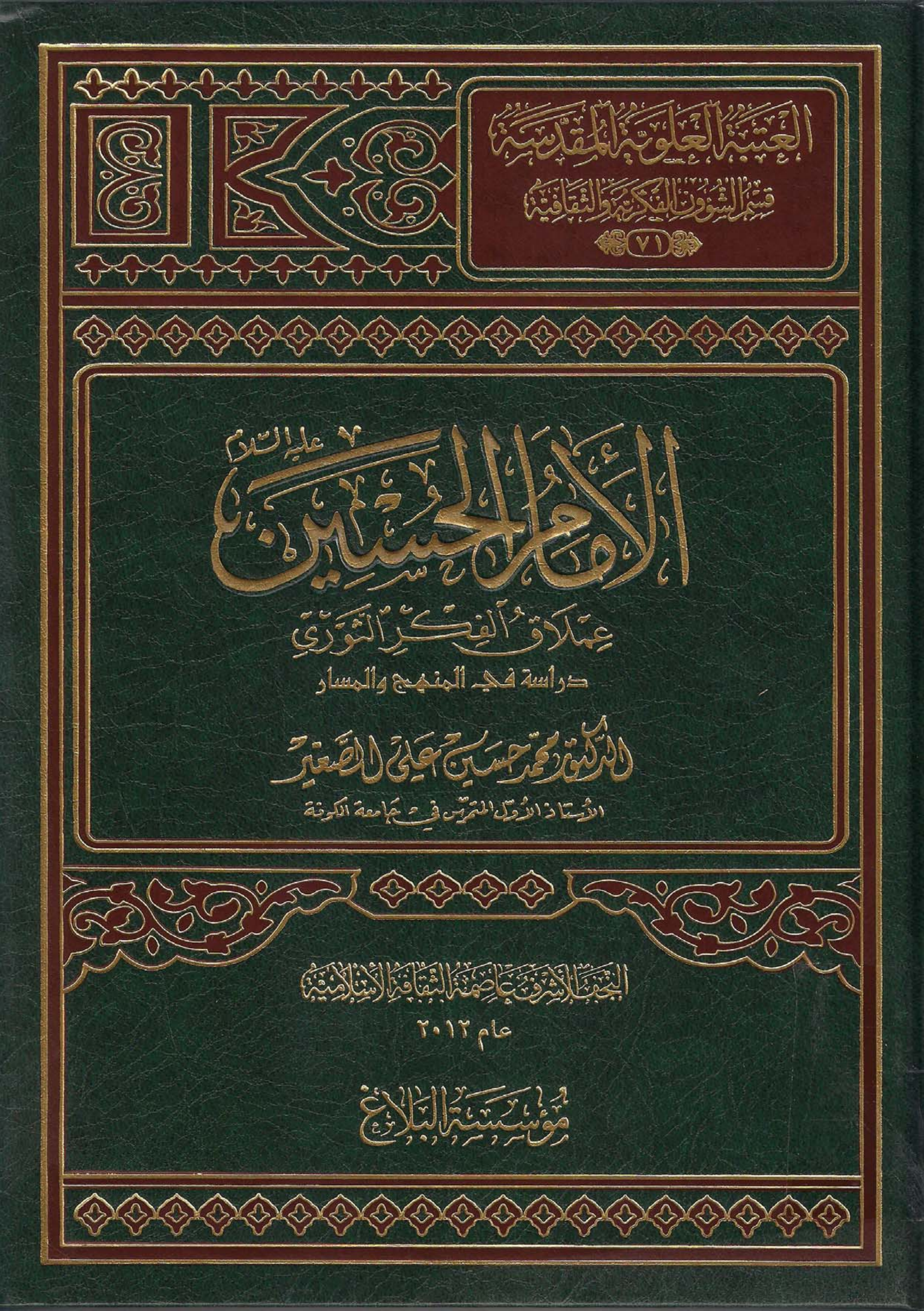
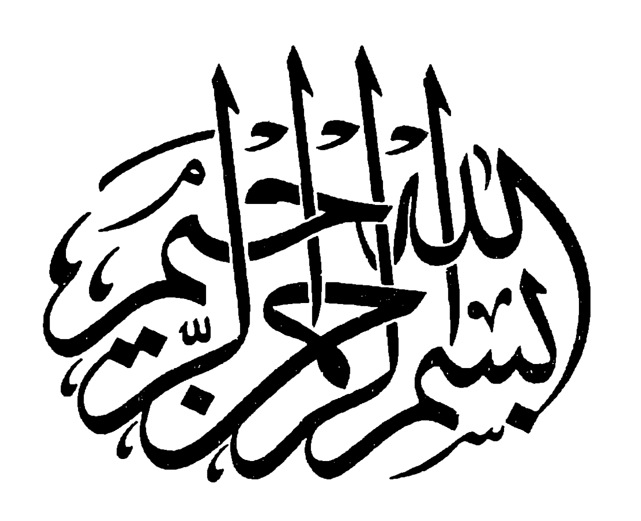

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٧١)
الإمام الحسين عليه السلام
عملاق الفكر الثوري
دراسة في المنهج والمسار
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة
النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
مؤسسة البلاغ


الإمام الحسين عليه السلام
عملاق الفكر الثوري
دراسة في المنهج والمسار







عملاق الفكر الثوري

دراسة في المنهج والمسار

الدكتور محمد حسين علي الصغير

الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net



المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الإخراج الفني: محسن اليوسفي

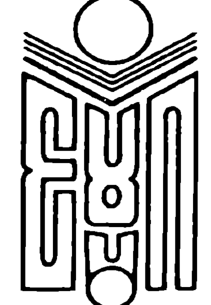
الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي

مؤسسة البلاغ

للطباعة والنشر والتوزيع



لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط

ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ١١٠٧-٢٢٥٠ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان

الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com

E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تناول هذا البحث الفكر الثوري عند الإمام الحسين عليه السلام في المستوى في كثير من الأبعاد، وحديث تساؤل لطائفة من الأطاريح الموضوعية.

وقد أجاب كتابنا: «الإمام الحسن: رائد التخطيط الرسالي». . . على شذرات منها تتعلق بإرهاصات الثورة، والتمهيد لها، وموقع الإمام الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام من الأحداث، ودوره الرائد في التخطيط لمسارها الأولي، واضطلاعه السريّ في الإعداد لبرنامجها المستقبلي.

ويَنْهَدَ هذا الكتاب «الإمام الحسين: عملاق الفكر الثوري»

بالإجابة على مجمل ما يثار ويستفهم به عن آفاق الثورة.

هل كان المناخ السياسي ملائماً لتفجير ثورة كربلاء؟

هل حققت هذه الثورة نصراً حاسماً؟ ومتى بلغت الفتح؟

هل الثورة إقليمية أو عالمية؟ وكيف نفذت للضمير الإنساني؟

كيف استلهم الثائرون خطوات الثورة واستقبلوا أهدافها؟

لماذا تهز الثورة المسلمين من الأعماق بصوتها الهادر؟

كيف نهضت الثورة ببعث الروح الثوري في الشعب المسلم؟

كيف قابل النظام الأموي الثورة؟ وما هي إجراءاته لإجهاضها؟

هل استطاع الحاكمون إخماد الثورة بالإرهاب الدموي؟

ما هي الأصداء المدوّية للثورة؟ وكيف اخترقت حجب الخوف؟

هل كتب لثورة الإمام الحسين الخلود والاستمرار في إيراء شعلة النضال؟

ما هي آثار الثورة في استيعاب الفكر الثوري وتوالي الثورات؟

ما هي ظواهر الثورة الاجتماعية عند الشعوب في الماضي والحاضر والمستقبل؟

هل كانت الثورة المسمار الأول في نعش الحكم الأموي فشيعته إلى الأبد؟

كل هذا الطرح الهائل من التساؤلات العريضة، وأمثاله مما لم يُذكر، تجيب عليه هذه الرسالة بروح موضوعية، وتقف عنده بتتبع سياسي نافذ، وتعالجه بجهد علمي خالص، وتلخصه بعمقٍ تأريخي محايد.

وكان الاستقرار السياسي الفاحص لطبيعة الأحداث خالصة من الشوائب العالقة هدف هذه الرسالة.

وكان التأصيل التأريخي النافذ لكشف حقائق الثورة، وأسبابها، ودوافعها، وأهدافها، وإنجازاتها، وأصدائها، وآثارها، وظواهرها، رائد البحث الأول.

وكانت طبيعة هذا الموضوع، والسبيل إلى استيعاب محاوره، أن انتظم في ستة فصول رئيسية كالآتي:

الفصل الأول، وكان بعنوان: «الإمام الحسين في مواجهة دوره القيادي» وقد اشتمل على خمسة بحوث أساسية، مثلّت الوعي السياسي المتكامل لدى الإمام الحسين، وجسدّت خياره التأريخي في إعلام الثورة، وصوّرت تحركه الرائد، ورفضه الناطق، ورسائله الثورية، ومغادرته الديار المقدسة، ومواصلة نهجه الثوري، وموقف النظام منه، وقد اعتصب كل بحث بمباحث فرعية تنطق عما في البحث الأصل من مفردات وموضوعات تنهض بأعباء العنوان، وكانت البحوث الخمسة على التوالي تحتضن المعلم الرئيسي لما اندرج ضمنها من أبحاث تعزز طرح الموضوع، وهي: الحسين في طريق الثورة ـ الأضطلاع بأعباء الثورة ـ رحلة المهمّات الصعبة ـ مأساة سفير الحسين إلى الكوفة ـ الحسين في الأراضي العراقية.

الفصل الثاني، وكان بعنوان: «الفكر الثوري بين البعُد السياسي والتخطيط العسكري عند الحسين» وقد اشتمل على خمسة بحوث أساسية، استوعبت الفكر الثوري لدى الحسين نظرياً وتطبيقياً، ابتداءً من العنصر الاجتماعي في فكر الثورة، وانتهاءً بالفكر الثوري وهو يخترق صفوف النظام الحاكم، وكانت هذه البحوث تحتضن ما يندرج ضمنها من مباحث فرعية أيضاً، وهي: فكر الثورة في تمثيل العنصر الاجتماعي، تحديّات القوى المضادّة للفكر الثوري، الفكر الثوري يستقّر في الأعماق ـ الفكر الثوري في ميدان القتال ـ الفكر الثوري يخترق صفوف النظام.

الفصل الثالث، وكان بعنوان: «كواكب الشهداء في سماء

المعركة» وقد اشتمل على ثلاثة بحوث أساسية، تفرغتُ ليوم الطف في أبعاده النضالية والإحصائية، فقدمتُ صفحةً مشرقةً في نضال القوم وهم يجادلون بالتي هي أحسن حتى القتل في سبيل الله، وقدّمتُ معجماً إحصائياً ضخماً فيمن استشهد مع الحسين من أنصاره مرتباً ترتيباً هجائياً، وأثبتُّ كشفاً دقيقاً في أسماء شهداء بني هاشم من الطالبيين، وتحدثتُ عن عنصر المأساة في مصارع الشهداء، ووقفت عند سيد الشهداء الإمام الحسين، وهو يناضل وحيداً حتى الاستشهاد.

وكانت هذه البحوث الرئيسية على التوالي: قتال الأحرار ونضال الحرائر ـ أنصار الحسين: الأسماء والانتماء السياسي والاجتماعي ـ شهداء بني هاشم ـ ولم ينسَ هذا الفصل دور المرأة المسلمة قبل الثورة وعندها وبعدها.

الفصل الرابع، وكان بعنوان: «إجراءات ما بعد الثورة» وقد اشتمل على أربعة بحوث رئيسية، تخللتها مباحث فرعية. تحدث الجميع عن الاجراءات اللاإنسانية التي عمد إلى اتخاذها النظام الأموي بعد مجزرة كربلاء، وقد صور هذا الفصل وحشية النظام في إجراءاته التي لا سابقة لها في الإسلام والتي كشفت عنها البحوث الأساسية في عنواناتها على التوالي:

مظاهر العنف الانتقامي ـ عقائل الوحي في الأسر ـ أسرى أهل البيت في الشام ـ الركب الهاشمي في طريق العودة.

وقد ركز هذا الفصل على استثمار الإمام زين العابدين عليه السلام وابنة أمير المؤمنين الهياج الجماهيري بالكشف عن التضليل الديني والدجل السياسي، كما عرض لحديث الطف بين البحث الموضوعي والجانب المأساوي.

الفصل الخامس، وكان بعنوان: «آثار الثورة النضالية» وقد اشتمل على ثمانية بحوث أساسية اندرجت عند بعضها المباحث الفرعية المناسبة، وقد عرضت هذه البحوث آثار ثورة الحسين عليه السلام في إرادة التغيير الإجتماعي والسياسي في المجتمع الإسلامي، وفلسفتْ الثورات المتعاقبة التي واصلت الزحف النضالي ابتداء من الاندفاع الثوري في الكوفة وانتهاءً بالانقلاب العباسي الذي أزال آثار الأمويين، فكانت المباحث على التوالي:

ثورة الحسين ومواصلة الزحف النضالي ـ ثورة المدينة المنورّة ـ ثورة التوابيّن ـ ثورة ابن الزبير ـ ثورة المختار ـ ثورة مطرّف بن المغيرة ـ ثورة ابن الأشعث ـ ثورة زيد بن علي ـ الانقلاب العباسي.

بما تلمس به روح النضال، الذي ألهبته ثورة الطف، سواء أكان التأثير فيها بوحي منها وعلى نهجها، أم بوحي منها ولهدف آخر.

الفصل السادس، وكان بعنوان: «ظواهر الثورة الاجتماعية» وقد اشتمل على ثلاثة بحوث أساسية عالجت الظواهر الاستمرارية الباقية التي سيّرتها ثورة الإمام الحسين، وكانت أبرزها:

ظاهرة، الحسرة والندم ـ وظاهرة الشعر العربي في رثاء الإمام الحسين ـ والظاهرة الأكثر شيوعاً، والأبقى رسوخاً هي: ظاهرة زيارة الإمام الحسين، وقد أولاها البحث أهمية خاصة، فبحث آدابها، وأوقاتها، وأقسامها، والآثار الهائلة الواردة باستحبابها في حالتي الأمن والخوف.

ثم كانت خاتمة المطاف بإثبات آخر قصيدة نظمها المؤلف في ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ثم جاءت نتائج البحث بأهم ما توصل إليه.

وهنا نشير أن مصادر هذه الرسالة قد اعتمدت كتب التأريخ والسيرة والتراجم والأدب والنقد والسياسة والمراجع الحديثة للعرب ولغيرهم من المستشرقين والغربيين، وقد ذُكِرتْ بدقة ووضوح في الهوامش.

ولا أدّعي لهذا الكتاب الكمال، ولا أبرىء نفسي من الخطأ والنسيان، ولكنه قبس من ثورة الحسين، ونفحة من أرج كربلاء.

أخلصت فيه القصد لوجه الله تعالى، وأعملت فيه الجهد بمنظور جديد، وبعرض جديد لثورة الحسين في أبعادها، وللإمام الحسين في فكره الثوري فكانا كلاً منسجماً لا يتجزأ، ووحدة نضالية لا تنفصل.

وآخر دعوانا: أنْ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ.

النجف الأشرف **الدكتور محمد حسين علي الصغير**

الفصل الأول

الإمام الحسين في مواجهة دوره القيادي

١ ـ الحسين في طريق الثورة

أ ـ استطراد تاريخي

ب ـ موت معاوية يفجّر الموقف

ج ـ يزيد يتلهف لأخذ البيعة من الحسين

د ـ نقطة الصفر في إعلان الثورة

هـ ـ الحسين ينفرد بالزخم الجماهيري

٢ ـ الاضطلاع بأعباء الثورة

أ ـ الحسين يلبيّ النداءات الملحّة

ب ـ الحسين يستطلع رأي الكوفة والبصرة

ج ـ هل كان على الحسين أن يتريّث؟

٣ ـ رحلة المهمّات الصعبة

أ ـ الحسين يغادر مكة

ب ـ الزعماء يعترضون على مغادرة الحسين

ج ـ النظام الأموي يعترض ركب الحسين

د ـ الحسين في طريقه إلى العراق

٤ ـ مأساة سفير الحسين إلى الكوفة

أ ـ النظام يعلن حالة الطوارىء

ب ـ مسلم يتحرك قيادياً وهانىء يسلمه الناس

ج ـ تقييم موضوعي لقيادة مسلم حتى الاستشهاد

٥ ـ الحسين في الأراضي العراقية

أ ـ ضبط المنازل والحدود

ب ـ الحسين يتلّقى نبأ استشهاد مسلم

ج ـ إيراء شعلة الثورة ومشكلة الوعي السياسي

د ـ الحسين يواصل نهجه الثوري

الحسين في طريق الثورة

أ ـ استطراد تأريخي:

سبق لنا في كتابنا «الإمام الحسن عليه السلام رائد التخطيط الرسالي» أن أوضحنا الحقبة الزمنية المشتركة بين الحسن والحسين عليهما السلام، وتناولنا هناك المعاناة التأريخية التي أحياها الامامات في الأبعاد كافة، فكانت الجذور السياسية واحدةً، والعمل النضالي متحداً، والنتائج الموضوعية متقاربة، وخلصنا من وراء ذلك أن التخطيط السياسي والرسالي عند الإمام الحسن عليه السلام هو الذي مهّد لثورة الإمام الحسين عليه السلام في عوامل مؤثرة عبر قنوات اعتمدت النضال الموحد حيناً، والتنظيم الدقيق حيناً آخر، مما جعل الحسين أمام مسؤوليته القيادية باعتباره وريث الرسالة.

ورأينا معاوية بن أبي سفيان يستخلص ولاء الناس، ويبتاع ضمائر الزعماء، ويعد بالمناصب الفخمة، ومن خلفه الرتل الخامس من المنافقين والانتهازيين وأبناء الطلقاء، يروّجون ما يقترح، ويؤيدون خطواته في الظلم والاعتساف، ويشاركونه في مخطط الأرهاب الدموي، ورأينا الإمام الحسين يرقض الإستسلام ويميل إلى الصلح المشروط مؤجلاً الحرب إلى حين، وكان معاوية قد غدر بالالتزام بهذه الشروط مما سجّل نصراً عقائدياً للحسن، وعمد معاوية إلى إثارة العصبية

القبلية، وتسخير بيت المال ليصفو له الحكم دون منازع، وابتدع برنامجه الخطر في تصفية أتباع أهل البيت اقتصادياً واجتماعياً وجسدياً وفق حملة منظمة من البطش اللاإنساني، فاتجه الإمام عليه السلام إلى منهجه الجديد في المقاومة، وأسفر ذلك عن تشكيل حزب سريّ منظمّ يدين بالطاعة والولاء للإمام من أبناء أمير المؤمنين عليه السلام.

وكان ما خطط له الإمام الحسن دليل اليقظة السياسية المبّكرة، وربما تعجّل بعض الثائرين أخاه الإمام الحسين عليه السلام الحسين لإعلان الكفاح المسلّح، فما كان من الحسين إلا أن يتابع الحسن بكل خطوة، هذه المتابعة هيأت الشعب المسلم للانتقام من النظام ولو بعد حين، وكانت يقظة الإمام الحسين وحدها كفيلة بصنع القرار السياسي، وما كان الانفعال الثوري المتحمس ليغير منهجه، وصحا الضمير الإنساني في العراق، وشعر بأوهى مظاهر الخسران وهو يتابع مسيرة النظام الحاكم، فكانت ظواهر الثورة المضادة متمثلة بوضوح الرؤية السياسية في الصراع، وعاملة على تنظيم قوى الثورة، ومبرمجة للتنظير السياسي الموحّد، وممهدة للكفاح المسلح الذي قربّ يومه أمران خطيران الأول، استلحاق زياد في مخالفة صريحة للنفس الشرعي، والثاني استخلاف يزيد من قبل معاوية بعد تصفية خصومه السياسيين سماً وقتلاً واغتيالاً، وكان مؤتمر المدينة الثاني الذي عقده معاوية مع الزعماء المسلمين قد فشل كمؤتمره الأول، فذهب إلى مكة المكرمة، واستحضر الحسين والعبادلة، وطوّقهم بأجهزته الأمنية الخاصة، وأعلن عن رضاهم ببيعة يزيد كذباً وزوراً، مما أباح للحسين سياسياً ودينياً اتخاذ سبيل الثورة، فعمد إلى تهيأه مناخ الثورة بعد أن تجاوز كل المؤثرات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي سلبت روح النضال، ولكنه اصطدم بالمناخ الكلامي في عقيدتي الجبر والإرجاء، وقد استظل

بهما النظام حماية وامتناعاً، فالجبر أظهر للناس السلطان بأنه ظل الله في الأرض نتيجة القدر الإلهي، والإرجاء أباح للحاكم أن يتصرف أنى يشاء دون حساب، وبذلك فقد عاد الشعب مخدّراً بهذين السلاحين.

وكان الذي يشغل الإمام الحسين عليه السلام كون الإنسان المسلم أداة طيعّة بيد النظام اجرّاء ذلك الفهم الخاطىء الذي حجب الرؤية الحقيقية عن التفكير في إزالة النظام، واستبداله بالأمثل منه، بل وحتى معارضته الفعلية.

ولكن الحسين بأصالته المتميزة استطاع هزّ المجتمع الإسلامي هزاً عنيفاً أعاد له روح الثقة والتحرك النضالي، واستوعب عناصره الطليعية الثائرة، فكانوا الشرارة الأولى التي اقتدحت زند الثورة.

لقد واكبنا هذه المسيرة التأريخية بكل تفصيلاتها المضنية فيما سبق، ورأينا القدر فيها مشتركاً بين الحسن والحسين، فالظروف واحدة في جوهرها، بدأت معقدّة غاية التعقيد مرحلياً، وتوصل الإمامان كلٌّ من منظوره إلى حل تلك العقد المتأصلة تدريجياً، حتى إذا هلك معاوية بدأ الإمام الحسين عليه السلام عمله علناً دون تحفظ، متجاوزاً بذلك السريّة، فاضطلع بأعباء الثورة بعد تلك المقدمات الهائلة التي مهدّت طريق الثورة.

ب ـ موت معاوية يفجّر الموقف:

«ومات معاوية حين مات، وكثير من الناس، وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بني أمية وحبّ أهل البيت لأنفسهم ديناً»[1].

هذا الاعتقاد كان نتيجة إيجابية لسيرة أهل البيت في الحسن،

---

(١) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ١٩٧.

وكان نتيجة سلبية لسياسة معاوية، فقد أفاق الناس من سكرتهم ليروا أنفسهم في ظلّ حكم رهيب: ولاة يسفكون الدماء بغير الحق، وعمال خونة مستحكمين لا يمثلون العدل، وانحدار بالمستوى الأخلاقي إلى حضيض الضياع، وانحسار في المدّ الثوري إلى درجة الخمول، وأحكام عرفية مبتدعة لا علاقة لها بالإسلام، وإقطاعيات ضخمة يتمتع بها مسلمة الفتح، وأبناء المهاجرين والأنصار في تعطيل غريب، لا يشاركون الحاكمين في أمر. ولا يشاورونهم في سلطان، والمقدرات السياسية والاقتصادية بيد الطلقاء وأبناء الطلقاء.

فإذا نظرت الحياة الاجتماعية وجدت التفاخر بالقيّم القبليّة في ذروته، فالتناحر بين مضر واليمن على أشدّه، والتنابز بين النزارية والقحطانية يؤجج الفتنة، والجاهلية قد أعيدت جذعة بين الناس، فهم بين معسكرين من الأعراف العرقية، ينزو بعضهم على بعض، وينال أحدهم من الآخر، فالحروب قد تنشب لاتفه الأسباب، والدماء قد تسيل دون مسوّغ شرعي، والحاكم الأموي يستغل ذلك لبناء حكمه وتوطيد عرشه.

بدت عورات النظام مكشوفةً في ليلة قمراء، لا شيء للشعب، وكلّ شيء للنظام، وإذا بهذه المضاعفات الخطرة تثنّى باستيلاء يزيد بن معاوية على السلطة، وهو غير مؤهل لأي منصب من هذا النوع أو أقلّ منه، فهو رجل لهو ولعب وإسراف، وصاحب صيد وصقور وفهود وكلاب، وفتى خمر ومعازف وقيان، أضاع الصلاة، واستهتر بالقيم، وتنحّى عن الإسلام، لا يتحفظ من شيء، ويسرع لكل شيء، وهو بدويّ في غلظته وشدته، وهو سوقيّ في تصرفه وقصور نظره، هذا وغيره مما دعا الحسن البصري ـ وهو من عرفت انحرافاً عن أهل البيت عليهم السلام ـ إلى القول:

«أربع خصال كن في معاوية، لو لم يكن فيه منهُنَّ إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم؛ وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة واستخلافه ابنه يزيد بعده سكّيراً خميّراً، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وإدعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله، «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقتله حجراً، ويل له من حجر وأصحاب حجر، ويل له من حجر وأصحاب حجر»[1].

فما كان على الناس إلاّ أن يفزعوا إلى ملجأ يحميهم من هذا الضياع الهدّام، وينقذهم من تبعات هذا الكابوس الثقيل، وفكرّوا طويلاً في انتقاء ركن وثيق يستندون إليه، ويعتصمون فيه، فوجدوا في الحسين عليه السلام ذلك الملاذ الوحيد الذي يمكن لهم أن يستجيروا به، فيومنهم من العوادي والطواري الفعلية والقادمة، فما حاروا عنه بل إنضمّوا إلى حضرته، وهو يعدّ نفسه للثورة بكل مفاهيمها الحديثة والمتطورة.

ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام بحاجة إلى الانتظار، فقد انتظر طويلاً، وقد إنجلى الليل عن صبحه، فالوضع النفسي المتأزم للناس على أهبة الاستعداد لأحداث التغير، والفكر الاجتماعي مهيأ لنفض غبار الماضي، والحياة السياسية تعطي مبررات الثورة، وبدأت ساعة العمل النضالي في مثل هذا الميدان الجديد الذي أفصح عن تقبلّه لمثال ثوري يهزه من الأعماق، وكان هذا المثال هو الحسين بن علي وحده.

«وهذا الواقع الكالح وضع الحسين وجهاً لوجه أمام دوره

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٣/ ٦٧.

التأريخي ورسالته النضالية، هذا الدور الذي يفرض عليه أن يثور، وأن يعبّر بثورته عن شعور الملايين، وأن يهزّ بثورته هذه الملايين نفسها، ويضرب لها المثل والقدوة في حرب الظالمين»[1].

وكان موت معاوية مشجعاً لأهل العراق على التجاهر بالسخط والغضب ضد النظام، فهم يفجأون بيزيد خليفة على المسلمين، وإذا بأصواتهم تتعالى مستنجدة بالإمام الحسين عليه السلام تعده بالنصر، وتطلب إليه التوجه للعراق طلباً للإصلاح تارةً، والقيام بالسيف تارةً أخرى.

ج ـ يزيد يتلهف لأخذ البيعة من الحسين:

وكان يزيد يتلهف متعجلاً لأخذ البيعة له من الإمام الحسين عليه السلام بخاصة، ومن أبناء المهاجرين بعامة، فكتب إلى الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة كتاباً جاء فيه:

«أما بعد؛ فخذْ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وابن الزبير، بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام»[2].

وكان الوليد صاحب عقل، ورجل سياسة، فيما يبدو من رؤيته، فلم يرد أن يتورط بشيء من أمر الحسين عليه السلام فهو أدرى الناس بأمرين:

الأول: إصرار الحكم على أخذ بيعة الحسين، والثاني: معرفته بأباء الحسين، وأن الشدة لا تجدي نفعاً في الضغط عليه، وهو لم يكن

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١٠٠.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٦.

متحمساً لإكراه الحسين على البيعة، بل أراد تبليغ الحسين بالأمر لا أكثر ولا أقل. تقول الرواية:

«فأنفذ الوليد إلى الحسين عليه السلام في الليل فاستدعاه، فعرف الحسين عليه السلام الذي أراد، فدعا جماعة من مواليه فأمرهم بحمل السلاح، وقال لهم:

«إنّ الوليد قد استدعاني في هذا الوقت، وَلستُ آمنُ أن يكلفني فيه أمراً لا أجيبُ إليه، وهو غير مأمون، فكونوا معي، فإذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب، فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه لتمنعوه منّي». فصار الحسين إلى الوليد، فوجد عنده مروان بن الحكم، فنعى إليه معاوية، فاسترجع الحسين عليه السلام، ثمّ قرأ عليه كتاب يزيد، وما أمره فيه من أخذ البيعة منه»[1].

فما أراد الحسين عليه السلام أن يدخل لأول وهلة في جدل وحجاج مع الوليد، وآثر أن يدفع ذلك بالتي أحسن، فقال للوليد:

«مثلي لا يبايع سراً، ولا يجتزأ بها مني سراً، فإذا خرجت للناس ودعوتهم للبيعة، ودعوتنا معهم، كان الأمر واحداً»[2].

فقال له الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام فتصبح وترى رأيك في ذلك، فقال الوليد: انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا مع جماعة الناس. فالتفت مروان إلى الوليد قائلاً: «والله لئن فارقك الساعة، ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل فلا يخرج منك حتى يبايع أو تضرب عنقه، فوثب

---

(١) المفيد/ الإرشاد/ ١٨٢.

(٢) البلاذري/ أنساب الأشراف ٤/ قسم ثان/ ١٢.

الحسين عليه السلام عند ذلك وقال: أنت يا ابن الزرقاء تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت»[1].

ثم أقبل الحسين هادراً، واتجه إلى الوليد قائلاً:

«أيها الأمير، إنّا أهلُ بيتِ النبوةِ، ومعدنُ الرسالة، ومختلفُ الملائكة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيدُ فاسقٌ، فاجرٌ، شاربُ الخمرِ، قاتلُ النفسِ المحترمة، معلنٌ بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله»[2].

ثم خرج الحسين حتى أتى منزله مغضباً، فقال مروان للوليد:

عصيتني، لا والله لا يمكنّك مثلها من نفسه أبداً.

فقال له الوليد: ويح غيرك يا مروان، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، وإني قتلت حسيناً، سبحان الله أقتل حسيناً أن قال: لا أبايع؟ والله إني لأظن أن امرأً يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة»[3].

فأنت في هذه المحاورة والمناظرة، ترى مروان متشدداً، وترى الوليد متحرجاً متأثماً، وترى الحسين عليه السلام رافضاً ثائراً.

د ـ نقطة الصفر في إعلان الثورة:

وكان هذا اليوم الذي رفض فيه الحسين البيعة ليزيد، هو نقطة الصفر في إعلان الثورة ضد النظام الأقوى، وكان ذلك لثلاثٍ بقين من

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٢ وما بعدها.
(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ قسم أول/ ١٨٤.
(٣) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٣.

رحب سنة ستين للهجرة.

وانتهت هذه الأخبار بإطارها الرافض إلى الكوفة، فضجّت بأهلها تستنجد الحسين، وتراسله زرافات ووحدانا، تدعوه إلى الخروج حيناً، وإلى الثورة المسلحة حيناً آخر، وقد بعثت إليه بالبيعة تحمله على ذلك، واستمرت كتبها تترىٰ حتى بلغت ما يزيد عن مائة وخمسين كتاباً[١].

بينما يرى آخرون أنه قد اجتمع لدى الحسين من أهل العراق بعامة وفي نوب متفرقة، اثنا عشر ألف كتاب[٢].

وكان الموقف ذا حساسية بالغة بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام فإمّا أن يبايع في اليوم الثاني قهراً، وإمّا أن يقاتل الوالي وحزبه في حركة قد لا تؤتي العطاء المرتقب، وإمّا أن يغادر يثرب فوراً.

وكان لا بد للحسين عليه السلام من اختيار الموقف الثالث، فالبيعة منه ليزيد لا يمكن أن تحصل فدونها خرط القتاد، وقتال الوالي ومن معه ليس بذي عائدية ثورية تذكر، فقد يبدد جهده الكبير الحاشد في غير سبيله الذي أعدَّ له، فما عليه إلا أن يغادر المدينة المنورة؟ وهكذا كان.

وخرج الحسين من المدينة المنورة ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب متوجهاً نحو مكة، ومعه بنوه، وإخوته وأبناؤهم، وجلّ أهل بيته إلاّ محمد ابن الحنيفة، وكان سقيماً فقصد الحسين قائلاً:

«يا أخي أنت أحبّ الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولستُ أدّخر النصيحة لأحدٍ من الخلق إلا لك، وأنت أحقّ بها، تنحّ ببيعتك عن يزيد

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٦٦.
(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ قسم أول/ ١٩٠.

ابن معاوية، وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس، فادعهم إلى نفسك، فإن بايعك الناس وبايعوا لك، حمدت الله على ذلك، وإن اجتمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنّة غرضاً، فإذا خيرُ هذه الأمة كلّها نفساً وأباً وأماً أضيعها دماً، وأذلها أهلاً، فقال له الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال، وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تستقبل الأمر استقبالاً.

فقال الحسين: يا أخي قد نصحت وأشفقت، وأرجو أن يكون رأيك سديداً موفقاً»[1].

وفي هذا الحديث ترى ابن الحنفية متخوفاً الناس، ومحاذراً من الغدر بالحسين، ولكنه يرفض له بيعة يزيد، ويطلب إليه اختيار الناس فإن بايعوا حمد لله، وإلا لم ينقص من مجده شيء، وهو يخشى عليه من دخول الأمصار حذر الاختلاف والخذلان، وأشار عليه بمكة فعلاً، فإن نبتْ به لحق بالرمال ورؤوس الجبال حتى ينظر ما يصير إليه الناس. وشكر له الحسين نصحه وشفقته، وسار إلى مكة وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

ولزم الإمام الحسين عليه السلام الطريق الأعظم، فقال له أهل بيته لو تنكبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب، فقال:

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٣.

(٢) سورة القصص/ ٢١.

لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ، ودخل الحسين عليه السلام مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان، ذكرى ميلاده السادس والخمسين، وهو يقرأ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

ثم نزلها، فأقبل أهلها يختلفون إليه، ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق[2].

وكان عبد الله بن الزبير قد سبقه إلى مكة متخفياً، وقد ضاق ذرعاً بالحسين عليه السلام فالناس لا يعدلونه به، ولا ينظرون إليه نظرهم له، وأقبل أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين عليه السلام، وانتشر نبأ امتناعه عن البيعة، وسرى خبر تحركه للثورة سريان النار في الحطب الجزل، والناس بين مؤيد صامت ومؤيد متحمس، وبين خائف متردد وناقم متحفظ.

وجلس الإمام الحسين عليه السلام للناس يفدون عليه ويستمعون إليه، وهو يوجههم روحياً ومعنوياً نحو الثورة والتغيير، فانقطع الناس إليه بمشاعرهم وأحاسيسهم، وأقبلوا عليه بقلوبهم وعواطفهم جماعات وأفراداً، ولم ينس أن يكتب لدى وصوله إلى مكة إلى عموم بني هاشم هذه الرسالة القصيرة الهادفة:

«أما بعد فإنه من لحق بي منكم استشهد، ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح، والسلام»[3].

---

(١) سورة القصص/ ٢٢.
(٢) ظ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٤.
(٣) ابن قولويه/ كامل الزيارات/ ٧٥.

فالحسين وهو يهني أهل مكة، لا ينسى أهل المدينة، فهما من هدفه معاً، والحديث إليهما يعني الشيء الكثير في خطه الرسالي، قال ابن كثير: «عكف الناس على الحسين، يفدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، وينتفعون بما يسمع منه، ويضبطون ما يروونه عنه»(١).

هـ ـ الحسين ينفرد بالزخم الجماهيري:

ومعنى هذا التجمع وتجاوبه مع الحسين أنه ينفرد بالمناخ الاجتماعي ويستأثر بالزخم الجماهيري ولا شيء لأحد معه، ولا دور إلاّ دوره، وكانت عملية التحرك الثوري مقتصرة عليه، والأمة بطلائعها ناظرة إليه، حتى ذكر المؤرخون شدة موقعه على الآخرين ممن يسعون إلى الحكم، فعبد الله بن الزبير مثلاً: «لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحبّ إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً منه أن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين»(٢).

وكان ابن الزبير يرهق نفسه عسراً، ويضيق ذرعاً من وجود الحسين بمكة. ويتمنى لو ارتحل عنها إلى العراق، ففيها شيعته وشيعة أبيه وأخيه، وربما رجح له ذلك وحببه إليه، ولم يكن هذا الملحظ ليخفىٰ على الحسين، إذ يقول: «إن هذا ـ يعني ابن الزبير ـ ليس شيء من الدنيا أحبَّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية/ ٨/ ٢٠٠.
(٢) البلازدي/ أنساب الأشراف ٤/ قسم ثان/ ١٤.

ليس له من الأمر شيء معي، وأن الناس لم يعدلوه بي، فودّ أني خرجت منها لتخلو له»[1].

وكانت هذه الحقيقة قريبة إلى أذهان جملة من ذوي الرأي، فهذا ابن عباس يحاول اقناع الحسين في العدول عن الخروج إلى العراق، لتقلّب الأهواء فيه، واتسام رجاله وزعمائه بالغدر، فلا يستجيب الحسين، فيهمس إليه بقوله: «لقد قرت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز، والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك»[2].

وما كان الحسين ليدع مسؤوليته الرسالية لنفر يريد أن يجد لنفسه مكانة ما بعده، فهو لا يبخل ولا ينفس على ابن الزبير في ذلك، ولا يراه له نداً في حال من الأحوال، وإنما يتحرك في ضوء قدره النضالي الذي سيلقاه في ظلال الأسنة.

ولقد قوىّ عزم الحسين في التوجه إلى العراق أمران مهمّان:

الاول: بلغه أن يزيد قد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق، في عسكر عظيم، وأمّره على الحاجّ، وولاّه أمر الموسم، وأوصاه بقبض الحسين سراً، وإن لم يتمكن منه يقتله غيلةً، وأمره أن يناجز الحسين القتال إن هو ناجزه، ودسّ مع الحاج ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية، وأمرهم باغتيال الإمام الحسين عليه السلام ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة»[3].

ولو تمّ قتل الحسين اغتيالاً، لذهبت الجهود النضالية سدىً، ولما أحدث قتله تلك الضجة الإنسانية التي صاحبت مصرعه في كربلاء مدىً

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٨٨.
(٢) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٧٦.
(٣) ابن نما/ مثير الأحزان ٨٩ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٢٦.

الأجيال، ولما اصطبغ استشهاده واستشهاد الصفوة الخالصة من أبنائه وإخوته وأهل بيته وأنصاره بأطياف النضال الدموي الرائع، ولكان مثلهم جميعاً من ضحايا النظام الذين قتلوا غيلة، وأسدل على مقتلهم الستار فيما بعد، ولما كان هذا النور الهادي الذي أشرق لألاؤه في سماء التضحية والفداء مناراً يهتدي به السائرون.

الثاني: هذا السيل المتدافع من الكتب والرسائل والمبعوثين، وكلها تستنجد بالحسين، ويقف وراء أغلبها الثائرون في الكوفة، أو قل شيعة أهل البيت في الكوفة، مما وجد معه الحسين نفسه إزاء مسؤوليته الرسالية في استجابة النداء، فلبّاه بعد دراسة مضنية سواء أحققت التلبية نصراً قريباً أم نصراً على المستوى الذي يرمي إليه على المدى البعيد، لتحقيق أهداف الثورة متفاعلة مع الضمير الإنساني النابض عبر التأريخ.

إذن، فقد نزل بالحسين ما ليس منه بدُ:

أ ـ مسؤولية قيادية ملّحة به ـ ب ـ بوادر اغتيال مؤكدة ـ ج ـ رسائل استنجاد متوالية.

إن مجموعة هذه الدواعي المؤثرة تفرض على الحسين الاضطلاع بالعبء مهما كان ثقيلاً، ولو كلفه ذلك دمه الزكي، ودم بنيه وإخوته وأبناء عمومته من الهاشميين، والصفوة المختارة من أنصاره.

الاضطلاع بأعباء الثورة

أ ـ الحسين يلبيّ النداءات الملحّة:

لم يكن للحسين عليه السلام أن يتباطىء عن تلبية النداءات الملّحة عليه، وهي تطلب إليه القدوم إلى العراق، ولم يكن له أن يتطامن في الحجاز حتى يقتل اغتيالاً، وليس له أن يتخلى عن رسالته النضالية فيساوم حتى يأمن المكر والغدر، والأسباب تبدو مهيأة في الحال السياسي أن يتعجل النهوض، والأحداث من حوله تجري بسرعة مذهلة وهي تستحثه الخطا في الخروج، وها هي مئات الرسائل والكتب ترد عليه من الكوفة تعلن البيعة له، وترحب بقدومه المبارك، والكوفة جمجمة العرب وكنز الإيمان، فيها بقية من أبناء المهاجرين والأنصار وقادة الفتوح، وهي موطن شيعته وشيعة أبيه وأخيه، وهي بعد مركز الثقل في الحركة النضالية والرفض.

إن الأعداد الهائلة من رسائل الدعوة للحسين بلغت حداً يمكن الاطمئنان إليه ايديولوجياً، ولا بد من رصد تحليلي لخلفية هذه الرسائل التي توحي بتكامل العمل السري ليتجاوز هذا الدور إلى الجهر بمضامينه السياسية المخبأة، فهذه الرسائل والكتب قد اتسمت بالطابع الجماعي لا الأحادي، واصطبغت بالخطاب الجماهيري لا الفردي، وتمخضت عن وعي ثوري متصاعد، فقد ذكر المؤرخون بعامة أن أهل الكوفة لمّا

بلغهم هلاك معاوية، تمردوا على النظام وأرجفوا بيزيد، وخلعوا طاعته، وخالفوا ولاته، وقوّى عزمهم في هذا المنحى الجديد رفض الحسين لبيعة يزيد، وتمشياً مع هذا الاتجاه المعارض «اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله وأثنوا عليه، وقال سليمان بن صرد: إن معاوية قد هلك، وإن حسيناً قد تقبضّ على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه، ونقتل أنفسنا دونه، فأكتبوا إليه، فكتبوا.

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ للحسين بن علي عليه السلام من سليمان ابن صرد، والمسيّب بن نجية، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

أما بعد؛ فالحمد لله الذي قصم ظهر عدوك الجبّار العنيد الذي انتزىٰ على هذه الأمة، فأبتزّها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل حال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود.

إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله»[١].

ثم سرحوا بالكتاب مع عبد الله بن مسمع الهمداني، وعبد الله بن وأل، وأمروهما بالنجاء، فخرجا مسرعين حتى قدما على

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد ١٨٤ وما بعدها.

الحسين عليه السلام بمكة لعشر مضين من شهر رمضان، وسلّماه الكتاب[1].

وأنت ترى لغة هذا الكتاب الجديدة في الرفض، والجادّة في التغيير السياسي، فقد اجتمع الشيعة بدار سليمان، وشرح لهم سليمان تقبض الحسين عن بيعة يزيد، ثم هو يستدرجهم بطلب النصرة، ومجاهدة أعداء الحسين، فإن علموا من أنفسهم التضحية والإقدام راسلوه بالمجيء إليهم، ويبدو أنهم أجابوه إلى ذلك، بل استجابوا له مندفعين، فكتب سليمان للحسين عنهم باسمه واسم ثلاثة من أعيانهم، وباسم بقية المؤمنين.

وقد حمدوا الله على هلاك معاوية الجبار العنيد، الذي انتزى على هذه الأمة، فابتز أمرها، واغتصب فيئها، وعددوا مساوئه في قتل الأخيار واستبقاء الأشرار، واحتجان الأموال وجعلها دولة بين الجبايرة والأغنياء، فبعداً له كما بعدت ثمود. ثم خلصوا من هذه المقدمة الهادفة إلى صلب الموضوع، فليس عليهم إمام يقتدون به، وعامل يزيد لا يجتمعون معه في جمعة ولا عيد، ولو قد بلغهم توجه الحسين إليهم، فهم سيلحقون عامل الشام بالشام.

وما اقتصر أهل الكوفة على هذا الكتاب الجماعي، بل لبثوا بعده يومين فقط، وأنفذوا قيس بن مسهر الصيداوي، وعبد الله وعبد الرحمن ابني شداد الأرحبي، وعمارة بن عبد الله السلولي إلى الإمام الحسين، ومعهم نحو مائة وخمسين صحيفة من الرجل والاثنين والأربعة[2].

---

(١) الشيخ المفيد/ ١٨٥.

(٢) الشيخ المفيد/ ١٨٥ الطبري ٥/ ٣٥٢.

ولم يطل الانتظار بالكوفيين ليتسلموا جواب الحسين عليه السلام، ولم يصبروا قليلاً ليتعرفوا رأيه في الأقل، ولم يسألوا الركبان عن مدى استجابته لهم، بل لبثوا يومين آخرين فحسب، وسرّحوا إلى الحسين هاني بن هاني السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي، بكتاب بليغ جديد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي عليه السلام، من شيعته وشيعة أبيه من المؤمنين والمسلمين، أما بعد: فحيّهلا، فإن الناس ينتظرونك ولا رأي لهم غيرك، فالعجل العجل، ثم العجل العجل، والسلام»[1].

هذا الكتاب في إيجاز قد اختصر الطريق إلى الحسين عليه السلام وهو مذكرة جماعية، تصرخ بندائها في فقرتين: الناس تنتظره ولا ترى سواه، العجل العجل، فكل شيء ممهّد يدعو إلى التعجيل بالمسير إليهم.

وأكثر من هذا كله، فقد كتب مع الرسولين جملة من القواد العسكريين، وطائفة من زعماء القبائل المعروفين: شثث بن ربعي، وحجار أبجر، ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني، وعروة ابن قيس الأرحبي، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، ومحمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة، بكتاب يحمل ما عليه المناخ السياسي، والاستعداد التعبوي، والجند المجند، وهو:

«أما بعد: فقد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، فإذا شئت فأقبل على جند لك مجندٍ، والسلام»[2].

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٥.
(٢) الشيخ المفيد/ ١٨٥.

وكان عموم أهل الكوفة قد كتبوا للحسين عليه السلام بالحرف الواحد:

«إنَّ لك هنا مائة ألف سيف، فلا تتأخر»[1].

ب ـ الحسين يستطلع رأي الكوفة والبصرة:

وتلاقت الرسل عند الحسين، واجتمعت هذه الكتب لديه، وسأل الرسل عن الناس، واستخبر أحوال لأمة، فما عليه إلا أن يجيب الناس، بعد طول تأمل وتفكير، فأراد عليه السلام التثبت من القوم، والتطلع إلى آرائهم، وضمّ البصرة إلى الكوفة في الاستطلاع، فكثير إلى أهل الكوفة مع هاني بن هاني السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي، وكانا آخر الرسل، الكتاب الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ الحَسُينِ بِنِ عَليٍّ إلى الملأ مِنَ المؤمنين والمُسلِمينَ، أمّا بعدُ: فَإنَّ هانياً وسعيداً قَدِمَا عَلَيَّ بِكُتِبكُم، وَكانا آخرَ مَنْ قدِمَ، عَلَيَّ مَنْ رُسُلِكُم، وَقَدْ فَهِمْتُ كُلَّ الذي إقتصَصْتُمْ وَذَكَرتُمْ، وَمَقَالَهَ جُلِّكم أنَّه لَيَسَ عَلَيَنا إمَامٌ، فأقبل لَعَلَّ اللهَ أنْ يَجْمَعَنا بِكَ عَلَىَ الهُدى وَالحقِّ. وَإنّي باعثُ إليَكُمَ أخيِ وابنَ عمّي وَثقَتِي مِنَ أهْل بَيْتي (مُسلمَ بن عَقيل) فإن كَتَبَ إليّ أنّهُ قَدْ اجْتَمَعَ رَأيُ مَلأكُمْ. وَذِوي الحجى والفَضلْ مِنكُمْ عَلَىَ مثْل مَا قدَمتْ بِهِ رُسُلُكمْ، وقرأتُ من كُتُبكُمْ، فَإنِيَّ أقْدمُ إليكُمْ وَشِيكَاً إنْ شاءَ الله فلَعَمريْ ما الإمامُ إلاّ الحاكمُ بالكتاب، القائمُ بالقِسْط، الدائنُ بدين الحَقِّ، الحابسُ نَفْسَهُ عَلَى ذات الله، والسلام»[2].

---

(١) الآمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ قسم أول/ ١٩٠.

(٢) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٨٥.

وفي هذا الكتاب استجابة للكوفيين، ولكنها لم تكن نهائية بل كانت متحفظة بحذر، وهي وثيقة لاستطلاع الرأي عن الكوفة بوساطة مبعوث منه، فأنت ترى الكتاب دقيقاً «في محتوياته، إذ أعاد على الكوفيين مؤدن أقوالهم في كتبهم، واقتصّ عليهم ما ذكروا، أن ليس عليهم إمام، وعسى الله أن يجمعهم به على الحق والهدى، وهو يبعث إليهم أخاه وابن عمه وثقته من أهل بيته. مسلم بن عقيل بن أبي طالب، رائداً ومختبراً وسفيراً، ليكتب له بحقيقة الحال، فإن رأى جمعهم على ما جاءت به رسلهم، ورأيهم على ما ورد إليه في كتبهم، قدم إليهم سريعاً وعلل قدومه بملحظ رسالي محض بأعتباره إماماً: الحكم بكتاب الله، القيام بالقسط، الدينونة بدين الحق، حبس النفس على ذات الله. وهذه الفقرات الأخيرة إدانة للنظام الأموي في مجمل توجهاته، فهي صورة للتغيير الذي يحاوله الحسين في قلب المفاهيم السائدة لدى الحكام الأمويين وولاتهم الذين ابتعدوا عن القرآن، ومارسوا أقسى أنواع الظلم، وتمرسوا الباطل منهجاً ونظاماً، وحبسوا أنفسهم على الطغيان والشهوات، ودلالة هذا النكير هو العودة بكل القيمّ لدى الحسين إلى المناخ الإسلامي الذي نزل به القرآن.

ثم سرح الإمام الحسين عليه السلام بسفيره مسلم بن عقيل رحمه الله إلى الكوفة مع جملة من الرسل، وفئة من الأدلاء، ووجهه رسالياً، **«وَأَمَرَهُ بِالتَقْويٰ وَكِتْمَانِ أَمْرِهِ، وَاللُطْفِ، فإن رَأَىٰ الناسَ مُجْتَمِعِينَ مُسْتَوْسِقِينَ عَجَّلَ إلَيهِ بذلكَ»**(١).

وكان انبعاث مسلم بن عقيل بهذه المهمة الخطيرة يعني أنه كان

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة/ ٤/ أول/ ١٩١.

أثيراً بثقة الإمام عليه السلام ومعتمداً في تبليغ رسالته، ورائداً مبكّراً من رواد ثورته.

ومع هذا التقييم لسفارته ونذارته وريادته، فقد أمره بالتقوى، والعمل السريّ، والرفق بالناس، واللطف بهم، وهذه سمات القادة العظماء، فإن رأى الناس قد اجتمعوا على الحسين عجّل إليه بذلك.

وهذا يعني أن الحسين عليه السلام ظل متريثاً، ولبث مترصداً حتى تنتهي إليه الأنباء الأكيدة من سفيره وموفده؛ وفعلاً دخل مسلم الكوفة، ونزل دار المختار الثقفي، وهو اختيار دقيق، لأن المختار يمثل زعامة شعبية في الكوفة، وأقبل عليه الناس، واختلفوا إليه سامعين فرحين، وكلما اجتمعت منهم جماعة قرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام وهم يبكون.

وبايعه من الناس ثمانية عشر ألفاً كما يقول الرواة[1].

وهو عدد ضخم يشكل قوة عسكرية يعتد بها عادة. وكتب مسلم إلى الحسين «أما بعد: فإن الرائد لا يكذب أهله، وإن جميع أهل الكوفة معك، وقد بايعني منهم ثمانية عشر ألفاً، فعجّل الإقبال حين تقرأ كتابي هذا، والسلام»[2].

وكأن الحسين عليه السلام بعد هذا الكتاب قد لمس استقرار رأي الكوفيين عليه، فأراد أن يستوثق رأي البصريين كذلك، فكتب إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، وإلى أشرافها مع مولاه أبي رزين، وذراع السدوسي بنسخة واحدة إلى كل من: مالك بن مسمع البكري،

---

(١) الأمين العاملي ٤/ أول/ ١٩٢ ـ اللهوف/ ابن طاووس/ ١٥.

(٢) الأمين العاملي ٤/ أول/ ١٩٢.

والأحنف بن قيس، ويزيد بن مسعود النهشلي، والمنذر بن الجارود العبدي، ومسعود بن عمر الأزدي، وهذا نصّ الكتاب:

«أمّا بَعْدُ: فإنَّ الله اصْطَفَى مُحمداً ﷺ على خَلْقِه، وأكْرَمَهُ بِنُبُوَتِهِ، وَإخْتارَهُ لِرسالَتِهِ، ثُمَّ قبَضهُ اللهُ إليه، وَقَدْ نَصَحَ لَعباده، وَبَلّغَ ما أرْسِلَ بِهِ، وَكُنّا أهْلهُ وَأوْلِياءَهِ وَأوْصِياءَهُ وَوَرَثتَهُ، وَأحَقَّ الناسِ بِمقامِهِ في الناسِ، فإسَتأثَرَ عَلَينا قَوْمُنا بذلك، فأغْضَينَا كراهيةً لِلفُرقَةِ، وَمَحَبةً للِعافِيةِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أنّا أحَقُّ بِذلِكَ الحَقِّ المُسْتَحقِ عَلَينا ممنْ تَولاهُ، وَبَعَثْتُ رَسُولي إلَيكُمْ بهذا الكِتابِ، وَأنَا أدْعُوكُمْ إلى كتاب الله وَسُنَهِ نَبيهِ، فَإنَّ السُنَّة قدْ أميتَتْ، وإنَّ البِدَعَةَ قد أحْييَتْ، فإن تجيبُوا دَعْوَتي، وَتُطيعُوا أمْري، أهْدكمْ، سَبيلَ الرشاد»[1].

ويبدو أن رؤساء الأخماس في البصرة قد تلكأوا عن الاستجابة، وترددوا في الأمر، بل لقد رأى بعضهم أن هذا الكتاب مكيدة من الأمويين لاختيارهم، وبعضهم ذهب إلى أكثر من هذا فقد سلّم الرسالة والرسول إلى ابن زياد فقتله، بينما نجد الأحنف بن قيس متشائماً في هذا الوجه، فقد كتب إلى الحسين رسالة يدعوه فيها إلى التريث والصبر، وهذا نصّها:

«أما بعد، فاصبر، إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»[2].

كان ذلك باستثناء يزيد بن مسعود النهشلي، فقد شمّر عن ساعديه ونهض بالأمر مسرعاً، وتأهب للنضال مستجيباً، فخطب بني تميم وبني حنظلة، وبني سعد، بعد أن استنطقهم عن منزلته فيهم، ونصحه لهم،

---

(١) الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤/ أول/ ١٩٤.
(٢) الذهبي/ سيراً أعلام النبلاء ٣/ ٢٠٠.

وحرصه عليهم، فأمنّوا على قوله، فدخل في الموضوع قائلاً:

«إن معاوية قد هلك، فأهون به هالكاً ومفقوداً، ألا وإنه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظلم، وقدْ كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد، اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، وقد قام ابنه يزيد شارب الخمور، ورأس الفجور، يدّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمر عليهم بغير رضا منهم، مع قصر حلم، وقلة علم، لا يعرف من الحق موطىء قدمه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لجهادُهُ على الدين أفضل من جهاد المشركين. وهذا الحسين بن علي ابن رسول الله ﷺ وآله، ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم، وجبت لله به الحجة، وبلغت به الموعظة، وقد كان صخر بن قيس (وهو الأحنف) انخزل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ﷺ ونصرته، والله لا يقصر أحد عن نصرته إلاّ أورثه الله تعالى الذلّ في ولده، والقلّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبستُ للحرب لامتها، وادّرعت بدرعها، من لم يقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب»[1].

وأنت ترى في هذا الخطاب رؤية سياسية معاصرة، ومسحة دينية متحركة، وصلابة ثورية صادعة، فقد سفّه معاوية، وجردّ يزيد عن مؤهلات الخلافة، وأثنى على الحسين ثناءً عاطراً، وذكّر قومه بما كان منهم يوم الجمل، ودعاهم إلى نصرة الحسين عليه السلام ببصيرة نافذة، وبينّ منزلته النسبية وثنّى على قيادته الدينية، وتحدث عن علمه وفضله،

---

(١) الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤/ أول/ ١٩٥ وما بعدها.

ودعاهم إلى نصرته جادّين، وحذرّهم، مغبة التقصير في أمره، فهو يورثهم الذلة في الولد، والقلّة في العشيرة، فمن لم يقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، وها هو يلبس للحرب لامتها، وينتظر حسن الجواب، ويبدو أنه ظفر به، فكتب إلى الحسين:

«وصل إليّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وأن الله لم يُخل الأرض قط من عامل عليها بخير، أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية، هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الضماء لورود الماء يوم خمسها وكظها، وقد ذللت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع»[1].

ولا أعلم كتاباً أوفى من هذا الكتاب في استجابته، فقد أعرب فيه ابن مسعود النهشلي عمّا يختلج بصدره من الدوافع والدواعي، وأفصح بما تضم عليه جوانحه من الأحاسيس والمشاعر، النضال والفداء وتلبية نداء الحق بعض جوانبه، والطاعة والنصرة والمعرفة جزء من حوافزه، فقد اعتبر الحسين عليه السلام عامل الخير في الأرض، والدليل على سبيل النجاة، وعدّه حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرع من زيتونة، أحمد أصلها وهو فرعها، وطلب إليه القدوم بأسعد طائر، فقد ذلّل له أعناق بني تميم، وأوطأ رقاب بني سعد.

وجواب ابن مسعود هذا ينبىء عن تبلّور نظرية الإمامة لديه،

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف ١٨ ـ ابن نما/ مثير الأحزان ١٣.

ووجوب طاعة الإمام، والالتزام التام بأوامره، وفقراته تدل على دراية دقيقة بهذا الاتجاه.

ويبدو أن هذا الجواب قد وصل إلى الحسين متأخراً، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته في كربلاء «فلما قرأ الحسين عليه السلام الكتاب قال: مالك آمنك الله يوم الخوف، وأعزكَ وأرواك يوم العطش الأكبر» فلمّا تجهز ابن مسعود للخروج إلى الحسين بلغه قتله قبل أن يسير، فجزع من انقطاعه عنه، وكثر أسفه عليه[1].

فالبصرة من خلال هذا قد استجاب له منها بنو تميم ولكن بعد فوات الأوان، على أن جملة من المؤرخين قد ذكروا أن بعض الأفراد قد انتدبوا لنصرة الحسين من أهل البصرة، وخفوا إلى التوجه إليه قبل خروج ابن مسعود، ووافوا الحسين، وضموا رحالهم إلى رحله حتى وردوا كربلاء، واستشهدوا بين يديه[2].

ج ـ هل كان على الحسين أن يتريث:

وقد يقال بأنه كان علىٰ الحسين عليه السلام أن يتريث طويلاً، فلا ينخدع بأهل الكوفة، وقد علم غدرهم بأبيه وأخيه من ذي قبل، ولكن البحث المعمَّق في طبيعة الظرف السياسي الذي أحيط به الحسين عليه السلام يثني هذا الزعم، فلقد صبر الحسين طويلاً، وقد فكرّ الحسين كثيراً، ولقد ضويق الحسين مهدداً بالاغتيال، وقد بلغ السيل الزبىٰ، وهو إنما يتحرك في ضوء موقعة الرسالي وحده، وقد جاءته النجدة، وأمكنت له الفرصة، وهؤلاء الذين كتبوا إليه من الكثرة بحيث

(١) الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤/ أول/ ١٩٧.
(٢) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين ١٨٧/ وانظر مصدره.

لو أدرك منهم كوكبة صالحة لتحتم عليه الاعتماد عليهم في مهمّته الثورية، ولقد أدرك العراقيون وأهل الكوفة بالذات واقعهم المرير في ظل الحكم الأموي الغاشم، وأسفوا كثيراً على مدى تقصيرهم في حق أمير المؤمنين عليه السلام ولعلّ الحسين يرجو فيهم خيراً في هذه الصحوة، وهناك ملحظ آخر عدا الاغتيال، فإن الحسين كان يخشى القبض عليه، والرصد والعيون حواليه، وهو لا يأمن غائلتهم في مواقف لا يدري نتائجها، وهو نفسه عليه السلام يعلم مصيره كما ستراه وشيكاً. فكان أمام قدره المحتوم، ولا خيار له إلا في ذلك أو الذل والتسليم. يضاف إلى هذا كله أن اجماعاً شعبياً عاماً كان بازاء الحسين عليه السلام فهو وحده القائد القدير على تطوير الواقع الإسلامي المعاصر، وهو ـ وحده ـ الرجل المؤهل للثورة عسكرياً وسياسياً لما يتمتع به من خصائص نادرة في الشمم والإباء والشجاعة والكسب الجماهيري، ذلك كونه الوريث الشرعي للرسالة، والقائم على شؤون هذا الدين.

وعسى أن يكون بعض من كتب إلى الحسين من هؤلاء غادراً أو ناكلاً أو متفائلاً بعض الشيء، فهذا مما لا يخفىٰ على الحسين في بعد نظره، ولكن بعضهم أيضاً كان من الزعماء والقادة وذوي السابقة في الإسلام، وفيهم المؤمنون والمخلصون الذين يرون الائتمار بأمر الحسين فرضاً واجباً، فلا يمكن والحالة هذه التفريط بهذا الزخم، يضاف لهذا أن ضخامة هذه الكتب الداعية إلى الثورة بقيادة الإمام الحسين عليه السلام تفوق حدود التصور، وقد قامت الثورات في العالم بأقل من هذه الأعداد الزاخرة، وثار الرجال بأبسط من هذا التهيؤ الحاشد، ولك أن تستقري ضخامة تلك الكتب من خلال المحاورة الفريدة التي جرت بين الحسين عليه السلام والحر بن يزيد الرياحي حينما التقيا في طريقه إلى الكوفة، فصرفه الحر عنها إلى كربلاء، فقد جاء فيها -

قول الحسين عليه السلام للحر وهو في كتيبته المرافقة ما نصّه:

«أمّا بعد أيّها الناسُ، فإنكمُ إنْ تتقوا الله، وتعرفوا الحقَّ لأهله، يَكُنْ أرْضَى لله، ونحن أهل البيت أوْلَى بولاية هذا الأمرْ عَلَيكُمْ مِنْ هَؤلاءِ المُدَّعينَ ما لَيسَ لَهُمْ، والسائرينَ فيكمْ، بالجور والعدوان، وإن أنتمْ كرَهتُموُنا وَجَهَلْتمْ حَقَّنا، وَكَانَ رأيكمْ غيرَ ما أتتني به كتبكمْ، وَقَدْ قدمتْ بِهِ عَلَيّ رُسُلُكمْ، انْصرَفتُ عَنْكُمْ»[1].

فقال له الحر: إنا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر.

فقال الحسين: يا عقبة بن سمعان!! أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليّ، فأخرج خرجين مملوءين صحفاً، فنشرها بين أيديهم[2].

ولقد بهر الحرّ بهذه الكتب وما حار جواباً، وبهت أمام هذه الحقيقة المرة التي غيرت رأيه فيما بعد، فالتحق بالحسين وكان أحد شهداء ثورته.

ومهما يكن من أمر، فما كان الحسين عليه السلام ليتخلف عن حمل رسالته وأداء أمانته، وهو يجد الناصر في ظاهر الحال، وهو أيضاً يراقب الجو العام في مكة يكاد يلتهب التهاباً في التآمر على قتله واغتياله أو أسره.

هنالك اتخذ الحسين عليه السلام القرار الصعب وهو يغادر مكة.

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٠٢.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٠.

رحلةُ المهمّات الصعبة

أ ـ الحسين يغادر مكة:

اشرأب العزم، وتنفس الثأر لدى الإمام الحسين عليه السلام العزم على التضحية، والثأر لكرامة الإنسان من الذلّ والامتهان، وأزمع على الخروج من مكة والتوجه شطر العراق بهذه الفتية، فجمع إليه أهل بيته أخوته وولده وأبناء عمومته وكلهم من آل أبي طالب فحسب، وضمّ إليه من اصطحبه من الأنصار، ومن تبعه من أهل الحجاز والكوفيين واليصريين وأطراف الجزيرة، ومن جاء موفداً أو رسولاً فعاد مصاحباً وملازماً، وقام فيهم خطيباً معلناً ثورته وهو في مكة، كاشفاً عن مصيره المحتوم بسابق علم علمه، وطريف أثر استقرأه، لا بداء فيه ولا استثناء، إلاّ أن يشاء الله، قال:

«الحَمْد لله، وما شاء اللهُ، وَلاَ قوة إلاّ باللهِ، وصلى الله عَلَىٰ رَسُولِهِ . . .

خُطَّ المَوْتُ عَلَىَ وِلْدِ آدم مَخَطّ القِلادَةِ عَلَى جِيدِ الفتاةِ، وَمَا أوْلهَنَى إلى أسْلافي اشتياق يعقُوبَ إلى وَلَدهِ يُوسُفَ، وخير لي مصرع أنا لاَقيه، كأني بأوصالي تقطعُه عُسلانُ الفلواتِ بَيْنَ النَواويس وَكَرْبَلاء، فيملأنَ مني أكراشاً جِوَفاً، وأجْربةً سُغْباً، لا محيصَ عَنْ يَوْم خطّ بالقلمَ، رضا الله رضانا أهل البيتِ، نَصْبرُ على بَلائِهِ، وَيُوفِينا أجُورَ الصابرينَ، تَقَرُّ بهم عَينُهُ، وَينْحيز بهمْ وَعْدُهُ.

أَلاَ وَمَنْ كَانَ باذِلاً فينَا مُهجَتَهُ، وَموطّناً عَلَى لقَاءِ الله نَفْسَهُ، فَلْيَرحَلَ مَعَنّا، فَإنّيَ راحلُ مُصبحاً، إنْ شاء الله تعالى»[١].

ولا أعلم خطبةً في عصر الحسين عليه السلام بلغ بها صاحبها مراده، وأفرغ ما في نفسه كهذه الخطبة على وجازتها، فهي جزلة الألفاظ، مشرقة العبارة، ناصعة الهدف. وقد اجتمع فيها الغرض الفني إلى جنب الغرض النضالي في سياق أسلوبي متجدد، ولغة بلاغية سليمة، وعرض بياني جديد.

فالموت لا محيص للإنسان عنه، وقد خط عليه مخط القلادة على جيد الفتاة، فهو لا يبالي بالموت إذن، بل لقد شدّه الوله إلى اللحاق بسلفه من أهل بيته اشتياق يعقوب إلى ولده يوسف، وقد اختير له مصرع معلوم بين النواويس وكربلاء هو لاقيه، حيث تقطّع أوصاله، فتلتهمُ التهاماً من قبل الذئاب البشرية أو الوحشية، وكان ذلك قدراً خُط بالقلم.

ثم أبان عليه السلام بإيجاز مكثف أن رضا الله تعالى مقترن برضا أهل البيت عليهم السلام نظراً لولايتهم الإلهية العامة، وأنه يصبر على بلائه ـ شأن أهل البيت ـ فيوفيه الله أجور الصابرين، وهو على منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولن تشذ عنه لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، لتقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده.

ثم صرح عليه السلام بصدق نيتّه، وطوية عزمه، مستصرخاً المسلمين الرساليين، طالباً منهم بذل النفس، والتوطن على لقاء الله، فمن شاء منهم ارتحل معه، فهو راحل صباحاً مجاهراً معلناً إن شاء الله تعالى.

---

(١) الأربلّي/ كشف الغمة ٢/ ٢٤١ ـ ابن طاووس/ اللهوف ٢٥.

والحسين بهذا الخطاب الرائع أماط لثام الشكوك والافتراضات حول مسيره هذا، فهو عالم بالمصير الذي سيلقاه، وهو متيقّنٌ بالقدر الذي سيستقبله، وهو عارف بالمناخ المدلهم الذي ينتظره، وما عليه أن يكشف ذلك للناس، فلا يعذر مقصّر، ولا ينخدع غافل، وليكن كل عند مسؤوليته.

ب ـ الزعماء يعترضون على مغادرة الحسين:

وكان لا بد لهذا الإعلان الصارخ من ردّة فعل معاكسة، ناصحة تارةً، ومحذرة مشفقة تارةً أخرى، ولقد هزّ هذا القرار المجتمع المكي هزّاً عنيفاً، فبادر إلى الحسين كثير من الزعماء وعليّه القوم وأهل بيته يستعطفونه بأن يتراجع عن موقفه، ولكنه كان مصمماً عازماً، فقد نهاه عن وجهه هذا: عمر بن عبد الرحمن المخزومي، فأجابه الحسين عليه السلام قائلاً: «جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد والله علمتُ أنك فشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومهما يقضي الله من أمر يكن أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير وأنصح ناصح»[1].

وطلب إليه عبد الله بن الزبير أن يثور في مكة، ولا يتوجه نحو العراق، ووعده بجمع الناس إليه، فأجابه الحسين عليه السلام.

«وأيم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام، لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدّنَ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت»[2].

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٨٧.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٧٥.

وجاءه عبد الله بن عباس فنهاه عن الخروج، فقال استخير الله وأنظر ما يكون فعاود عليه القول، وقال له: إن أبيت إلا الخروج فاخرج إلى اليمن. فقال الحسين عليه السلام. يا ابن عم، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، وقد أزمعت وأجمعت على المسير»[1].

وكرّ عليه ابن الزبير ثانيةً، فأشار عليه بالعراق، ثم خشي أن يتهمه، فقال: لو أقمت لما خالفنا عليك فلما خرج ابن الزبير، قال الحسين:

«إنّ هذا ليس شيء أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز»[2].

وكثر على الحسين من يشير عليه بعدم الخروج على الحكم، فاجمل الردّ بقوله:

«والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة»[3].

وأقبل عليه عبد الله بن عمر بن الخطّاب، فأشار عليه بصلح أهل الضلال تقية، وحذّره من القتل والقتال، فقال له الحسين عليه السلام.

«يا أبا عبد الرحمن؛ أمَا علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، أما تعلم أن بني إسرائيل، كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً، ثمَّ يجلسون في أسواقهم، يبيعون ويشترون كأنهم لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام.

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٨٧.
(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١١.
(٣) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٧٦.

اتقّ الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تدعَّن نُصرتي»[1].

فما استجاب كل لصاحبه، فلا ابن عمر نصره، ولا الحسين ترك المسير.

ويبدو أن ابن عمر كان متلهفاً لأن يترك الحسين عليه السلام وجهه هذا، فحينما خرج الحسين تبعه ابن عمر مسرعاً، فأدركه في بعض المنازل، وقال له: أين تريد يا ابن رسول الله؟ قال: العراق. قال مهلاً؛ ارجع إلى حرم جدّك، فأبى الحسين عليه السلام فلما رأى ابن عمر إباءه، قال: يا أبا عبد الله اكشف لي عن الموضع الذي كان رسول الله يقبله منك، ففعل الحسين ذلك فقبّله ثلاثاً وبكى، وقال: استودعك الله يا أبا عبد الله، فإنّك مقتول في وجهك هذا»[2].

وكان تخوّف الناس على الحسين عليه السلام من القتل وراء هذه الحملة المكثفة من الاعتراض والردّ والجدال، وهذا الملحظ لا سواه هو الذي دفع بهؤلاء إلى ابداء المعارضة في مسير الحسين عن مكة إلى العراق، فقد أجمعوا أنه مقتول لا محالة، لأنهم يدركون جيداً جبروت الحكم وطاغوت السلطان، ويعرفون مدى الضعف والانهيار في نفوس الأكثرية، وهم يرون ما تفعله الوعود والأعطيات في مقدرات الرجال، وكان الحسين نفسه يعرف هذا وأكثر من هذا، ولكنه ماضٍ وفق ما رسم لنفسه من خطط قد لا يتأتى لأغلب الناس الإيمان بأهدافها المستقبلية الرائدة، فقد قال لمن أشار إليه بالعودة إلى مأمنه والإقامة في الحرم.

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٢.
(٢) الأمين العاملي ٤/ أول/ ٢١٣.

«يا عبد الله ليس يخفىٰ عليَّ أَنَّ الرأي ما رأيتَ، وَلكنّ الله لا يُغلبُ عَلَى أمره»[1].

وكان لا بد لأنباء تحرك الحسين هذا من الذيوع والانتشار لا سيما في المدينة المنورة، وقد تناهت أخيراً إلى مسمع أخيه محمد ابن الحنفية وهو مريض، فأخذ المسير إلى مكة، وأدرك الحسين في الليلة التي قرر الخروج في صبيحتها، فقال له محمد:

«يا أخي إنّ أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنك أعزّ من بالحرم وأمنعه، فقال له الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم، فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت.

فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البرّ، فإنك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد، فقال الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: انظر فيما قلت[2].

وكان الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أحرم بالحج «فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وقصّر من شعره، وأحلّ من إحرام الحج، وجعلها عمرة مفردة، لأنه لم يتمكن من إتمام الحج مخافة أن يقبض عليه، فخرج من مكة يوم الثلاثاء، يوم التروية لثمان مضين من ذي الحجة، فكان الناس يخرجون إلى عرفات، والحسين خارج إلى العراق»[3].

وكان ارتحاله سحراً، فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه وأخذ بزمام ناقته

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٤/ ٣٠١.
(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٢.
(٣) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٠.

وقد ركبها، فقال يا أخي لم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال الحسين: بلى، قال ابن الحنفية: فما حداك على الخروج عاجلاً؟

قال الحسين: أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتك، فقال: يا حسين اخرج، فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً.

فقال ابن الحنفية: فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك؟ وأنت تخرج على مثل هذا الحال.

قال الحسين: إنّ الله شاء أن يراهن سبايا.

ثم سلم عليه ابن الحنفية ومضى[1].

وخرج الحسين عليه السلام من مكة معلماً جهاراً بأهل بيته وولده وجملة من أنصاره في موكب لا يتجاوز المائة في أغلب الظن[2].

ج ـ النظام الأموي يعترض ركب الحسين:

وتحرك النظام الأموي تحت وطأة هذه الأنباء المقلقة له في تصميم الحسين عليه السلام على مجابهة الحكم. وعمل في جبهتين: جبهة ضعيفة في الحجاز، وجبهة قوية في العراق سيأتي الحديث عنها، أما في الحجاز، فقد اعترضت رسل عمرو بن سعيد الأشدق، وعليهم أخوه: يحيى بن سعيد، ومنّوا الحسين عليه السلام بالصلة والأمان، وتدافع الفريقان، واضطربوا بالسياط، وامتنع الحسين وأصحابه عليهم امتناعاً قوياً[3].

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ الهامش/ ٢٠١.

(٣) ظ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٠١.

ومضى الحسين لشأنه، فالتقى بالفرزدق الشاعر في أول الطريق، فقال له الفرزدق: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أعجلك عن الحج؟

فقال له: لو لم أعجل لأخذت، ثم قال للفرزدق: اخبرني عن الناس خلفك، يقول الفرزدق، فقلت الخبير سألت، قلوب الناس معك وأسيافهم عليك، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء.

فقال الحسين: صدقت لله الأمر من قبل ومن بعد، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن. إن نزل القضاء بما نحب تحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يعتدِ من كان الحق نيته، والتقوى سريرته»[1].

ونترك النظام الآن، لنرى أن عبد الله بن جعفر الطيّار، كان فيما يبدو كارهاً لمسير الحسين، فألحقه بأبنيه عون ومحمد، وكتب معهما كتاباً إلى الحسين يقول فيه:

«أما بعد، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر كتابي، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل البيت، وإن هلكت اليوم طفي نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، ولا تعجل بالمسير فإني في إثر كتابي والسلام»[2].

ويبدو أن عبد الله بن جعفر حاول أن يستعين بالنظام ليثني الحسين عليه السلام عن عزمه، وكانت استعانته طبعاً بالشكل المشروع،

---

(١) ظ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد ٢٠١.

(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٩ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٧٦.

فقد صار إلى عمرو بن سعيد الأشدق، فسأله أن يكتب للحسين أماناً ويمنيه، ليرجع عن وجهه، فكتب إليه عمرو بن سعيد كتاباً يمنيه في الصلة، ويؤمنه على نفسه، وأنفذه مع أخيه، فأقبل هو وعبد الله بن جعفر، ودفعا بالكتاب إليه، وجهدا به على أن يرجع، فأبى عليهما أباءً شديداً[١].

وسار الحسين عليه السلام لا يلوي على شيء، والفكرِ الثوري يملأ كيانه، والتخطيط لمستقبل الأمة يستأثر بتفكيره، والتصميم على مناجزة القوم يستغرق كل همومه وتطلعاته، يطوي البيد والمفاوز بمثل هذه العدّة وبمثل هذا العدد، فما خُلِقَ الحسين ليريح ويستريح بل خُلِقَ للنضال على مختلف الأصعدة، فهو يناضل المحبين في إقناعهم بقراره الثوري، وهو يناضل الغدر والإفك ليصل بالناس إلى المحجة البيضاء، وهو يناضل الحكم لإيقافه عند حدّه، بل للتمهيد للقضاء عليه.

سار الحسين عليه السلام في رحلته هذه، حتى بلغ وادي العقيق، فنزل ذات عرق، فلقيه رجل من بني أسد، اسمه بشر بن غالب وارداً من العراق، فسأله الحسين عن أهلها، فقال له الأسدي:

«خَلّفتُ القلوب مَعَكَ، والسيوف مَعَ بني أمية» فقال الحسين: «صدق أخو بني أسد، إن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»[٢].

وواضح أن هذا الجواب موافق لما أجاب به الفرزدق، فكلاهما متفقان على غدر الناس عملياً، وإن كانت عواطفهم مع الحسين، والعاطفة دون تأثير هباء.

---

(١) ظ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٠٢.
(٢) ابن طاووس / اللهوف/ ٢٩.

د ـ الحسين في طريقه إلى العراق:

ومضت الأحداث سراعاً والحسين في طريقه إلى العراق، وهو يتوجس خيفة من غدر الناس، فلما وصل إلى الحاجر من بطن الرمة، كتب كتاباً إلى زعماء الكوفة، وأنفذه مع قيس بن مسهر الصيداوي وهو شاب ثوري ملتزم، وكان ذلك قبل تناهي الأخبار إلى الحسين عليه السلام باستشهاد مسلم بن عقيل رحمه الله، وهذا نص الكتاب.

«بسم الله الرحمن الرحيم، منَ الحُسين بن عَلَيٍّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سَلاَمٌ عَلَيَكُمَ، فإنِّي أحْمَدُ إلَيَكُمَ الله الذي لا إله إلاّ هو.

أمّا بعد: فإنَّ كتابَ مُسلم بن عقيل جاءني يُخبرُني بحسن رأيكم، واجتماع ملأكم عَلَى نَصْرنا، والطلب بحقّنا، فسألتُ الله أن يحُسن لنا الصنيع، وأن يثيبكم على ذلك أَعظمَ الأَجْرِ، وقْد شَخَصْتُ إليكمْ يوم الثلاثاء لثمانٍ مضَيْنَ من ذي الحجّةِ يَوْم التروية، فإذا قدم عليكم، رسولي فانكمشوا في أمركم وجدُّوا، فإنيَّ قَادِمَ عَلَيكُمْ في أيامي هذه إنْ شاء اللهُ تَعَالى، والسلام عَلَيَكُمْ، وَرَحمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ»[1].

وكان هذا آخر كتابٍ أرسله الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة يعلمهم فيه بقدومه عليهم، ويثني على حسن رأيهم واجتماع أمرهم، ويوصيهم بالحذر والجديّة، فهو عما قريب عندهم بإشاءة الله تعالى.

وانتهى قيس بن مسهر الصيداوي بالكتاب إلى القادسية، فقبض

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٦.

عليه من قبل أجهزة النظام، فخرقّ الكتاب، وأدخل مخفوراً على ابن زياد، فسأله عن الكتاب، فقال قيس: الكتاب من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة، فطلب إليه أسماءَهم فأبى عليه، وحمله على سب الحسين وأبيه وأخيه، فاستجاب له ظاهراً، وقصد تبليغ رسالة الحسين عليه السلام فصعد المنبر، وترحم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عتاة بني أمية وابن زياد، ثم قال: إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا رسوله إليكم، وقد خلّفته بالحاجر فأجيبوه[1].

فأمر به ابن زياد، فرمى به من أعلى القصر، فاختلط لحمه بعظمه، وهنا نشاهد النظام يتناسى أبسط التقاليد المرعيّة لدى كل الأمم، فالرسول لا يقتل مهما كانت رسالته، فكيف وقد قتل هذه القتلة الشنيعة؟ إن هذه الإجراءات القمعية تقرّب يوم الخلاص من النظام الذي يقترفها، ويثير في نفوس العامة الحقد والكراهية، وتساعد العاملين على الثورة والتغيير.

وبلغ خبر قيس هذا الحسين، فاسترجع باكياً، وترحم عليه، وتلا قوله تعالى: **﴿فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[2].

وكان هذا النبأ مفجعاً ما في ذلك شك، وتجسدت به أمام الحسين صورة النظام في الانتقام، وتمثلت له صورة المجتمع في الخذلان، فما ثنى عزمه هذا التقلّب في ميزان القوى، وقال في معرض تأبينه لرسوله الشهيد:

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٧.
(٢) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٧.

«اَللّهُمَ اجْعَلْ لَنا وَلشِيعَتِنا مَنزلاً كريماً، واجْمَعْ بَيِنَنا وبَينْهَمْ في مُسْتَقّر رَحْمَتِكَ وَرَغَائِبِ مَذْخُور ثوابكَ، إنّكَ عَلَى كُلٍّ شيءَ قدير»[1].

وتابع الحسين عليه السلام مسيرته في البيداء حتى نزل على ماءٍ لعبد الله بن مطيع العدوي، فأبى على الإمام المسير ونهاه عنه، وقال له:

«أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابوا يعدك أحداً أبداً، والله إنها حرمة الإسلام تنتهك وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل، ولا تأتِ الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني أمية»[2].

وكان ابن مطيع دقيق الملاحظة، ثاقب النظرة فيما قال وأشار، فأعتبر الحسين عليه السلام إمام هذه الأمة، واعتبر قتله انتهاكاً لحرمة الإسلام لأنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإمام المفترض الطاعة، واعتبر قتله أيضاً انتهاكاً لحرمة قريش، فالحسين من قريش في الصميم وهو أجلّها حينئذٍ، واعتبره كذلك انتهاكاً لحرمة العرب، فالحسين أنذاك سيد العرب، لا يختلف بهذا كله اثنان.

وقد أبى عليه الحسن عليه السلام ترك المسير، ومضى حيث التخطيط النضالي الهادف «والذي أعتقده أن وضع المجتمع الإسلامي إذ ذاك كان يتطلب القيام بعمل انتحاري فاجع، يلهب الروح النضالية في هذا المجتمع، ويتضمن اسمي مراتب التضحية ونكرات الذات في سبيل

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢١٧.

(٢) الخوارزمي/ مقتل الحسين ١/ ٢٣٦.

سبيل المبدأ، لكي يكون مناراً لجميع الثائرين حين تلوح لهم وعورة الطريق، وتضمحل عندهم احتمالات الفوز، وترجح عندهم أمارات الفشل والخذلان.

«لقد كان قادة المجتمع وعامة أفراده إذ ذاك يقعدون عن أي عمل إيجابي لتطوير واقعهم السيىء بمجرد أن يلوح لهم ما قد يعانون في سبيل ذلك من عذاب، وما قد يضطّرون إلى بذله من تضحيات. وكانوا يقعدون عن القيام بأي عمل إيجابي بمجرد أن تحقق لهم السلطة الحاكمة بعض المنافع القريبة. ولم يكن هذا خلق السادة وحدهم، بل كان خلق عامة الناس أيضاً»(١).

وإنّا وإن كنّا نجلّ الحسين عليه السلام عن العمل الانتحاري، ولكنه هكذا كان يبدو أمام المجتمع الحائر المخدّر، فعند إعلانه للثورة، تنبهت الضمائر والمشاعر معاً، والتهبت العواطف والأفكار، لتعلن أن الحاكم المتقمص للخلافة الإسلامية لم يعد ظلّ الله في أرضه ولا سلطانه سلطان الله على خلقه، فليس الحاكم ذاتاً مقدسة لا ينال منها أحد، ولا سلطانه بالمفروض على البشر، وليس له أن يتعدىٰ حدود القانون الإلهي.

ولم تكن الأمة المسلمة من القدرة بحيث تستطيع أن تزيل هذا الكابوس الجاثم على الصدور، ولا أن تغير هذا الشعار المستطير لو لم يقدر لسبط صاحب الرسالة أن يقتلعه من الجذور، فلا هي من القوة الدينية بحيث تستطيع الإفتاء بما أنزل الله، ولا هي من السلطة التنفيذية بحيث تستطيع التغيير في الإدارة والنظام، وكيف لا، والخليفة الأموي يحكم باسم الدين، وينطق بتسديد من ربّ العالمين، وإن خالف كتاب

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

الله، وظلم عباد الله، ونهب مال الله. وبمثل هذا الفهم الخاطىء كانت العقلية العربية تتأرجح، وفي ظل هذا النظام المبتدع كانت الأمة تتقلب، وإذا بوريث الدين الشرعي يعلن ظلم الدولة، وتفسخ الولاة ومخالفة الكتاب، وعبادة الأهواء، وإذا بالحسين عليه السلام يتدارك انهيار الأمة، ويذكي الشرارة الأولى لتغيير المفاهيم السائدة في ذلك المجتمع المغلوب على أمره، فيزحف في صفوة ممن أدركوا الفهم الإسلامي الأصيل، ليوقظ الصحوة الثورية في الرجال، ويفضح الواقع الفاسد للنظام، ويبدد أحلام الظالمين.

مأساة سفير الحسين إلى الكوفة

أ ـ النظام يعلن حالة الطوارىء:

لدى توجه الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق، كان الحكم الأموي قد أعلن حالة الطوارىء القصوى في العراق، وعبأ لذلك أجهزته الأمنية والعسكرية وألزمها التغير العام تحسباً لما قد يحدث.

وقد عمد الحكم إلى شيطان من شياطين السياسة الأموية، وهو عبيد الله بن زياد، فجمع له ولاية العراقين، وضُمّتْ له الكوفة إلى جنب البصرة.

وكان والي الكوفة ـ عند دخول مسلم بن عقيل لها ـ ضعيفاً أو مستضعفاً أو يتضاعف حباً للعافية، وهو النعمان بن بشير.

والنعمان بن بشير هذا، هو الأنصاري الوحيد الذي واكب الحكم الأموي وانخرط في سلك ولاته وعماله ومؤيديه، وكان طيلة ولايته الكوفة مقاطعاً من قبل العناصر الثائرة في الكوفة.

وكان مسلم بن عقيل قد هيأ المناخ السياسي للإمام الحسين عليه السلام، وأخذ له البيعة، فأوجس النعمان خيفة في نفسه، وجمع حوله مستشاريه في قصر الإمارة وأعوانه، ومعهم الناس، وخطب فيهم قائلاً:

«أما بعد، فأتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيهما تهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، إني لم أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، ولا أنبه نائمكم، ولا أشاتمكم، ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله غيره، لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمة بيدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر».

فابتدره عبد الله الحضرمي بالقول: «إنه لا يصلح ما ترى إلا الغشم، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين».

فقال النعمان: «لئن أكون من المستضعفين في طاعة الله، أحبّ إلي من أن أكون من الأعزّين في معصية الله»[1].

وكان لهذا الخطاب وقعٌ سيىءٌ عند أعوان النظام، فكتبوا إلى يزيد بضعف النعمان، وانثيال الناس على مسلم بن عقيل، وأشاروا عليه برجل قوي.

وذيّل الكتاب بأسماء: عبد الله الحضرمي، ومحمد بن الأشعث، وعمر بن سعد، وعمارة بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأمثالهم من عملاء الأمويين[2].

ووصل الكتاب إلى يزيد، فعهد بالكوفة إلى عبيد الله بن زياد، فاهتبل ابن زياد الفرصة، وتعجّل المسير إلى الكوفة، ودخلها متنكراً

---

(١) ابن الأثيرالكامل في التأريخ ٣/ ٢٩٧.
(٢) ظ: البلاذري/ أنساب الأشراف ٢/ ٧٨.

ليلاً، وتوجه فور وصوله إلى قصر الإمارة، وعزل النعمان بن بشير، والتفّ حوله أتباع النظام، وأصبح فخطب الناس:

«أمّا بعد، فإن أمير المؤمنين ولاّني مصركم وثغركم وفيأكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدة مع مريبكم وعاصيكم، وأنا متّبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البّر الشفيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي، فَليبقِ أمرؤ على نفسه، الصدق ينبىء عنك لا الوعيد»[1].

وكان الوعد المزيّف إلى جنب الوعيد الحقيقي في هذا الخطاب، واللين المصطنع إلى جنب الشدة المعهودة، والعنف المتوقع ظاهر الدلالة في فقراته.

ونزل ابن زياد من المنبر، فجمع الشرط والعرفاء، وأمرهم بتتبع أنصار مسلم بن عقيل، وأعلن الأحكام العرفية، وأوعد بالقتل والصلب والتحريق التشديد[2].

وأرجف ابن زياد بمسلم رحمه الله وقدس سره الشريف، وكان في ضيافة المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكانت دار المختار دار الدعوة إلى الحسين عليه السلام فانتقل مسلم إلى دار هاني بن عروة المرادي، وهو أحد زعماء الشيعة المعروفين، ومن أشراف الكوفة وقرائها، وقد سأله مسلم النزول عنده، فقال: انزل على بركة الله فقد وجب عليَّ ذمامك.

ودخل مسلم دار هاني، وانتقلت دعوته من العلنية إلى السرية،

---

(١) الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٦٩.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٥٩ ـ ابن الأثير/ الكامل/ ٣/ ٢٦٩.

وكان قد بايعه أكثر من عشرين ألفاً أخذ منهم العهود والمواثيق، أنهم لا ينكثون ولا يغدرون[1].

ب ـ مسلم يتحرك قيادياً وهانئ يسلمه الناس:

استقر مسلم في دار هانئ، وكان قد نزلها قبله شريك بن عبد الله الحارثي الهمداني، وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وقد دخل الكوفة راحلاً إليها من البصرة، فأرسل إليه ابن زياد أن سيعوده، فائتمر مع مسلم على قتله غيلة، فأبى ذلك مسلم لأن هانئاً أحبّ أن لا يقتل في داره، ولأن الإيمان قيّد الفتك، إذ قال له شريك ما يمنعك من قتله؟ فقال خصلتان: أما أحدهما فكراهة هانئ أن يقتل في داره، وأما الأخرى:

فحديث حدثنيه الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن الإيمان قيّد الفتك، ولا يفتك مؤمن[2].

ولو قدر لمسلم أن يقتل ابن زياد غيلة، لكان من الطبيعي أن يقال أنه طالب ملك لا صاحب دين، بينما العكس هو الصحيح، ومسلم يقتفي آثار عمه أمير المؤمنين عليه السلام القائمة على المثل العليا، فليس هذا السبيل سبيله، على أن هانئاً قد قال لمسلم فيما بعد «أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً، ولكن كرهت أن يقتل في داري»[3].

وكانت قيادة مسلم عليه السلام قيادة حكيمة، فلم يكره أحداً على

---

(1) ظ: الخوارزمي/ مقتل الحسين ١/ ١٩٥.
(2) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٦٠.
(3) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٢٨٨ وانظر مصدره.

بيعة، ولم يستنزل نفراً على قتال، كان يؤمن بالحرية المطلقة في حدود الشريعة الغرّاء ليس غير، وكان يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن، وكان ذا باع طويل في السياسة الرائدة، لم يهادن، ولم يتهاون، ولم يتباطىء في الأمر، بل شمّر عن ساعديه، أعدّ السلاح، وهيأ الرجال، وتسلم المال، وجعل على ذلك شيخاً من الأبرار هو مسلم بن عوسجة، ونسّق معه العمل بجديّة وإخلاص أبو ثمامة الصائدي وانثال عليه الناس بالبيعة للحسين طواعيةً، واطمئن إليه الشعب المسلم اطمئناناً متكاملاً، ووثق به الأبرار والصالحون حتى مهد الطريق إلى الحسين تمهيداً متكافئاً، بيد أن للظروف أحكامها، وللنفوس المتزلزلة التي أوهنته أمزجتها المعقّدة وللأهواء المتقلبة طبيعتها، كما سترى لك فيما بعد.

وعميّت أنباء مسلم على ابن زياد وأراد استجلاء الأمر، والتطلع على أسرار قيادته، ومراكز قوته وتجمعه، كما عمل على الحد من حركته المتنامية، فأخذ عليه بالأرصاد، وبثّ حوله العيون، وتوصل مولاه معقل إلى حقيقة الأمر، بعد إدعّائه أنه من شيعة أهل البيت لأصحاب مسلم، فاطّلع على أسرارهم، وعرف أعيانهم، وخبر كل تحركاتهم باعتباره أحدهم، فزوّد ابن زياد بأسرار الحركة، وأسماء الثائرين، وجملة المبايعين للحسين عليه السلام وكمية أسلحتهم، ومصادر تمويلهم، وإيرادات أموالهم، وعلم ابن زياد بمقر مسلم لدى هانىء، وباجتماع الثائرين عليه، واختلاف المبايعين إليه. فاستدعى محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، وأمرهم بالإلطاف لهانىء واستدعائه، فأبلغوا هانئاً ذلك، وكان كارهاً للقاء ابن زياد متخوفاً منه، وقد انقطع عنه بالاعداد

للبيعة مع مسلم، وركب معهم، ودخل على ابن زياد، فقال ابن زياد: «أَتَتْكَ بِحائنٍ رِجْلاهُ» ثم أنشد:

أريـدُ حيـاتَـهُ ويُـريـدُ قتلـي   عَـذ يُـركَ مـن خَليلـكَ مِنْ مُـراد

فقال له هانىء، وما ذاك؟ فقال: ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل، وأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك، وظننت أن ذلك يخفى عليّ، فأنكر ذلك هانىء، فاستدعى ابن زياد مولاه معقلاً، وحينما رآه هانىء علم المكيدة وسقط في يده.

وهنا يختلف المؤرخون فيما اعتذر به هانىء، أو فيما جَابَهَ به ابن زياد، فالطبري وابن الأثير يسوقان اعتذاره، ولكن المسعودي يروي اعتداده بنفسه، واستهجانه لعمل ابن زياد، ودعوته له بالتخلي عن منصبه، والنجاة بنفسه وأهل بيته، والالتحاق بالشام، فهو يروي: «فقال هانىء: إن لزياد أبيك عندي بلاءً حسناً، وأنا أحب مكافئته به، فهل لك في خير؟ قال ابن زياد: وما هو؟ قال هانىء: تشخص إلى الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فإنه قد جاء من هو أحق من حقّك وحق صاحبك»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد طلب ابن زياد من هانىء أن يأتيه بمسلم، فأبى إباءً شديداً، فقال ابن زياد: لتأتيني به أو لأضربن عنقك، قال هانىء: إذن والله تكثر البارقة حول دارك، وهو يظن أن عشيرته ستمنعه منه، فقال ابن زياد: والهفاه عليك؛ أبالبارقة تخوفني؟ وأدنوه منه فأستغرض وجهه بالقصيب، فلم يزل يضرب به أنفه وجبينه وخديه،

---

(١) المسعودي مروج الذهب ٣/ ٦٧.

حتى كسر أنفه، ونثر لحم خديه، وسالت الدماء على ثيابه، فضرب هانىء بيده على قائم سيف شرطي إلى جانبه، فجاذبه الرجل وامتنع عليه، فصاح ابن زياد: أحروري سائر اليوم؟ وأمر بسجنه في القصر، فقام حسّان بن أسماء بن خارجة وقال: أرسل غدرٍ سائر اليوم، أمرتنا أن نجيئك بالرجل، حتى إذا جئناك به هشمت أنفه ووجهه، وسيلت دماءه على لحيته، وزعمت أنك تقتله، فقال له ابن زياد وإنك لها هنا، فأمر به فلهز وتعتع[١].

وكان على هانىء رحمه الله أن يحتاط لنفسه، ويستوثق لها، فلا يذهب إلى ابن زياد إلا بضمانات عشائرية في الأقل، فهو يعلم أن القوم لا دين لهم ولا ضمير، وأنهم مستميتون في سبيل الحكم، فكيف يسير إليه وحده، لم يؤذن عشيرته بذلك، ولا علم لأغلب الناس بأمره، الدعوة لحضوره لابن زياد سرية، والذهاب له عليه كثير من التعتيم، أفلا أعلم قومه بذلك، أفلا امتنع عن الرواح، أفلا اعتذر بالمرض، أفلا ذهب بكوكبة من رجاله الأمناء، وهو شيخ كبير حنكته التجارب وعركته الظروف، وإذا ركب ركب معه عدة آلاف من قومه فيما يقولون ولكنه القدر النازل.

وتناهت الأخبار إلى مذحج فأحاطوا بالقصر، وقيل لابن زياد بذلك، فقال لشريح القاضي: ادخل إلى صاحبهم، واخرج إليهم، وأعلمهم بأنه حيٌ لم يقتل.

ففعل شريح ذلك، فلما رآه هانىء أخذ ينادي: بالله وللمسلمين؟ أهلكت عشيرتي؟ فأين أهل الدين؟ وأين أهل المصر؟ أيخلّوني وعدوهم وابن عدوهم، بينما هو كذلك إذ سمع ضجةً، فقال لشريح:

---

(١) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٢٩٤ وما بعدها.

إني لأظنها مذحج وشيعتي من المسلمين. إنه إن دخل عشرة نفر أنقذوني، فلم يلتفت إليه شريح، وخرج إلى القوم، وأخبرهم بسلامة هانىء، فرجعوا من حيث أتوا[1].

وكان على شريح أن يكون ذا ورع ودين، أو ذا مروءة وإنسانية، فلا يكون ظهيراً للظالمين، وعليه أن يتدخل في مسعى حميد لإنقاذ هانىء، وهو يراه في حال من يقتل لا محالة. وكان على عشيرة هانىء أن تكون ذات عقلية ودراية، فلا تثق بأعوان الظلمة، ولا تستخذي بمجرد أقوال المشبوهين من ذوي الماضي المهزوز والتأريخ الأسود. ولكن الذي يحز في النفس أن شيئاً من كل هذا لم يحدث، وذهب هانىء ضحية الغدر والغفلة، الغدر من ابن زياد وشريح، والغفلة من قومه وعشيرته، وأطلّ دمه هدراً.

وتناهت الأخبار إلى مسلم، فرأى القتال هو السبيل الوحيد لإنقاذ هانىء، ورأى في مقاومة ابن زياد فرصة لإضعاف قوته، لا سيما وهو بعد في أول الطريق، وكان ذلك القرار دفاعاً مشروعاً عن النفس، وإيماناً منظوراً إليه بعدالة قضيته، فأمر بأن ينادى في أصحابه للقتال بشعار المسلمين يوم بدر «يا منصور أمت».

فتنادى بذلك أصحابه، وكانوا أربعة آلاف برواية الطبري، وثمانية عشر ألفاً أو يزيدون برواية الخوارزمي، فاجتمعوا إليه، وتداعى الناس يشجع بعضهم بعضاً وهنا يبدو الفكر العسكري متبلوراً في قيادة مسلم للجيوش، فما ألقى الحبل على الغارب، ولا ترك الجيش يتصرف بحسب تقديره، بل تسلّم مسلم بنفسه مركز القيادة، ونشر لرؤساء الأرباع ألوية الحرب، وكان التخطيط الآتي:

---

(١) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٨.

١ ـ عقد لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على ربع كندة وربيعة. وقال له: سر أمامي في الخيل.

٢ ـ عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وبني أسد، وقال له: انزل في الرجال فأنت عليهم.

٣ ـ عقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع همدان وتميم.

٤ ـ عقد للعباس بن جعدة على ربع المدينة[١].

وأقبل هذا الحشد العسكري الهائل يرقل إلى قصر الإمارة، وأرتعب ابن زياد، وتحصن في القصر وأغلق أبوابه، واقتتل أصحابه وأصحاب مسلم ساعة، وليس مع ابن زياد إلاّ ثلاثون رجلاً من الشرطة، وعشرون رجلاً من أشراف الناس فيما يقولون، وأهل بيته وخاصته ومواليه[٢].

وكان المفترض بهذا الجيش الكبير أن يحقق أهدافاً عسكرية ضخمة، وأن تنتهي حملته بالنصر المؤزر، ولكن الذي يحيّر الباحث تلك العقلية البائسة التي تستقطب عامة هذا العدد من الجيش، بحيث لم يحقق شيئاً ملموساً في الساحة، فقد أحيط بالقصر، وقذف بالحجارة، وأخذ ابن زياد الفزع، فدعا كثير بن شهاب الحارثي، ومحمد بن الأشعث الكندي، والقعقاع بن شور، وشمر بن ذي الجوشن الكلابي، وحجار بن أبجر البجلي، وشبث بن ربعي، وأمرهم بتخذيل الناس عن مسلم بأراجيف اعتمدها ابن زياد هي إلى الكذب أقرب منها إلى

---

(١) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٦٩.

(٢) ظ : البلاذري/ أنساب الأشراف ٢/ ٨٠ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ/ ٣/ ٢٧١ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٦٩.

الصحة، وأن يرفعوا راية أمان لمن انضم إليها من الناس[1].

وقد أكد ابن زياد في حملته الإعلامية والدعائية على خطوات جديدة في التضليل السياسي، استطعت أن ألخصه لك على شكل فقرات رئيسية:

١ ـ أنفذ من أعلى قصر الإمارة بعض عملائه أن يمنّي الناس بالعطاء الجزل دون حساب، والناس عبيد المال وأتباع المادة.

٢ ـ نثر البدر والدنانير من أعلى القصر، فانشغل بها المقاتلون عن القتال، فأخذوا منها ما أخذوا، وانصرف منهم من انصرف.

٣ ـ نشر دعاية من الترهيب بجنود أهل الشام المزعومة، والتي ستحتل الكوفة بما لا قبل لهم عليه.

٤ ـ تابع أصوات عملاء الحكم وهم يصطّرخون أمام الناس: اجتنبوا الفتنة، لا تتعجلوا الشر، لا تعرضوا أنفسكم للقتل.

٥ ـ الإعلام عن تفريق المقاتلين في مغازي أهل الشام، وضرب البعوث عليهم، وحرمان الأهل والذرية من الرزق والعطاء.

هذا التكتيك المنظّم فيما استشعرناه تأريخياً، واستنبطناه موضوعياً، كان من أبرز مظاهر الإعلام المضادّ لحملة مسلم بن عقيل التي انتهت بتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً، بتأثير طائلة الخوف والطمع والإيعاد.

ومع كل هذا فقد ذكر المؤرخون أن جملة من المقاتلين الأشدّاء

---

(١) ظ: تفصيل ذلك: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٦٩ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ/ ٣/ ٢٧٢ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٩٣.

قد أقاموا مع مسلم يكبّرون ويتوثبون حتى المساء، وإن أمرهم لشديد[١].

إلا أنني في ريب مما ذكر هؤلاء، إذا لو كانوا كذلك لظهر أثرهم لا سيما وأن ابن زياد ليس معه إلا النفر القليل، بينما الذي حدث عكس هذا، فالناس يثبط بعضهم بعضاً، حتى ليقول أحدهم للآخر «ما نصنع بتعجيل الفتنة، وغداً تأتينا جموع أهل الشام، فينبغي أن نقعد في منازلنا، ندع هؤلاء القوم حتى يصلح الله ذات بينهم» وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرفْ الناسُ يكفونك. ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه قائلاً: غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر، فيذهب إلى منزله[٢].

إن هذه التداعي من التلاوم والتخذيل والتثبيط لا يمكن أن يحرز به أيّ نصر، أو أية مقاومة، فهو محكوم عليه بالفشل مسبقاً، فقد أمسى المساء وليس مع مسلم إلا ثلاثون رجلاً، وصلى المغرب وخرج نحو أبواب كندة ولم يبقَ معه إلا عشرة، وخرج من باب المسجد، وإذا ليس معه إنسان يدله على الطريق، فسار على وجهه هذا، وانتهى إلى باب امرأة صالحة تسمى طوعة، فاستجار بها وأجارته[٣].

لقد بدأ العّد التنازلي يتسافل بشكل مرعب ومخيف حقاً، الآلاف من الجيش انتهوا بثلاثين رجلاً، والثلاثون انتهوا بعشرة رجال، والعشرة انتهوا بمسلم وحده، فما معنى هذا الانسحاب الطارىء بين عشية وضحاها، وهو يوم واحد، إمّا أن يكون مسلم قد أذن لهم بالانصراف

---

(١) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٢٩٩ وانظر مصادره.
(٢) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٠٠.
(٣) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٢/ ٨١.

بعدما أصيب بمرارة اليأس، وهذا غير ممكن، إذ لم يتحدث التأريخ به، وإما أن يكون الغدر والخذلان اللذان سببها الإعلام المضاد هو الذي أوصل إلى هذه النتيجة الفادحة، وهو لا يخلو من وجه، وإمّا أن يكون تقلّب الأهواء في الضمائر غير المستقرة هو الذي جرّ إلى هذا المصير المؤلم، وهو الذي عليه المؤرخون، وهو ما تشير إليه دلائل الأحوال.

ومهما يكن من أمر فإن هذا التخاذل المشين يدلك على مدى تخوف الناس من الحاكمين، فما هي إلا دعايات مضللة، صاحبها شيء من العطاء الباهت، وإذا بها تحبط هذا الجمع المتطاول بكل إمكاناته الحربية والرجالية، وإذا بقائد القوم يبقى متحيراً في أمره، ويتخلى عنه من بايعه على الموت، فيُغدَرُ به وبصاحبه هانىء أسوأ الغدر وأفجعه.

ج ـ تقييم موضوعي لقيادة مسلم حتى الاستشهاد:

وفي ضوء الأحداث التي سبقت نجد مسلماً قد سار سيراً متوازناً في التهيؤ والإعداد، وكان واضحاً كل الوضوح في خطواته السياسية النابعة من صميم الإسلام، وهو وفيٌ لمبادئه العليا كل الوفاء، نصح للحسين ولنفسه وللناس، لم يقف موقف المهادن من الأحداث، ولم يصاحبها مغامراً أو متطرفاً أو واهناً، أجال نظره فيما يدور حوله، فعبّر عنه بأمانة، وسبر غوره بإمعان، وزوّد الحسين بتقرير موجز عنه، وانكفأ الإناء فحمل السيف، واضطرب الوضع فاتخذ القرار، كان عمله مزيجاً بين السريّة والإعلان الحَذِر في ولاية النعمان بن بشير على الكوفة، وحوّل عمله سرياً حينما دخلها ابن زياد، وانتقل من دار المختار وهي حافلة بالأعوان والأتباع والعمل قائم فيها على قدم وساق، إلى دار

هانىء بن عروة في عملية اخفاءً لكثير من المظاهر المرئية، جمع السلاح والمال من مظانها المشروعة، واستعان على ذلك بالأمنّاء والموثوقين، لم يتعجل المجابهة إلاّ وقد فرضت دواعيها، فثار لهانىء ولرسالته حينما علم بسجنه في قصر الإمارة بعد تنظيم صفوفه، وتعيين قادته، فكان على رأس معركة حول القصر فيمن بايع للحسين، وقد استبسل في القتال دون جدوى نظراً لتطاول سياسة التحذير والتخدير، وقد بذل جهده فيما عقده من ألوية لأرباع الكوفة، وأشرف بنفسه على إدارتها، وقد اصطدم قادتها بنفسية الكوفيين المترددة، فباءت الحركة بالفشل، وانتهى أمر مسلم بالخذلان.

وكانت مظاهر الغدر والخيانة والسذاجة أيضاً مما مني به المجتمع الكوفي، وكان تسلط الطواغيت الصغار من مرتكزات سياسة ابن زياد، وكان الهلع من الإشاعات يتجاوز حد المعقول، كل أولائك كان في طليعة الأسباب التي استطاع بها ابن زياد كسب الموقف، فتمكن بالنفر القليل من شرطته وأجهزته، وبهؤلاء الصغار من جبابرة قصره، ويأولائك المناورين من أتباع بني أمية، تمكنّ من تبديد ذلك الحشد الكبير ممن يوالي مسلماً وينتصر لقضيته، وأن يحول جمعه هذا إلى بدد، وتحمسه إلى جبن وخور، وكان سلاحه في ذلك الوعد والوعيد والإرهاب الدموي، فتارة يلوّح بزيادة العطاء، وأخرى يهدد بوصول القطعات العسكرية من الشام، وسواهما بالتنكيل والقمع إعلان الأحكام العرفية، ولقد شجعه على هذا المنحى ضعف الوازع الديني، وتقلب الأهواء السياسية لدى الكوفيين دون اللجوء إلى حصن ركين من التفكير الخالص أو الموضوعية المحضة.

ابن زياد يقتل على الظنة والتهمة، والقلوب ترتجف من هذا

الاعتساف، وهو يأخذ البريء بذنب المجرم، والأنفاس تخمد في هذا الرهج، وهو يمنّي بالأموال الطائلة، والنفوس تفرق من هذا فرقاً ظاهراً، بهذا وبأمثاله عاد والمناخ في الكوفة خانقاً، وعاد التفكير بالتضحية نادراً. وأصبح النصر على مسلم متعذراً، وكل المؤشرات تدل على انتكاسة سياسية خطرة يصعب تداركها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها.

وليس من الموضوعية في شيء أن نتهم مسلماً بالفشل السياسي، وأن نصمه بإخفاق التجربة الذاتية، فالنقد التحليلي لشخصيته القيادية بالإضافة إلى مواقفه بالكوفة يوحي برفضه لإزدواجية المعايير، ويمثل انسحابه من أساليب الالتفاف، فهو داعيةٌ رساليٌّ بحق، وهو سفيرٌ مؤتمن دون ريب، وهو ممثلٌ حقيقيٌ للإسلام، عمل سراً وعلناً، أخذ البيعة طواعيةً، واستكمل المواثيق بشرف، واستجاب له الناس عن كثب ظاهر الحال، فهو غير مسؤول عن التنقيب في السرائر، وهو عند إيمانه لا يسيغ الفتك ولا يبرّر الغدر، وهو قائد محنّكٌ جمع المال والأعوان، وهيّأ الجيش، وحصل على السلاح، وخاض حرباً على الحاكمين حينما لم يجد عنها بداً، وهو مستجيب للأحداث ما استجابت له، ومنكمش عنها ما انكمشت.

وهو ذو موازين إيمانية مقيدّة، وذو معايير أخلاقية ثابتة، لم يُكرِه أحداً على بيعة، ولم يفرض على أحد قتالاً. ولم يتوعد إنساناً قط، ولم يفتك حتى بأعدائه، ولم يلجأ إلى خداع، ولم يتوسل بغاية إلى نُكر، يأبىٰ المكرَ ويرفضهُ، ويحمل على الظلم ويدفعه، لم يجلب أنصاراً برشوة، ولا اشترى الأتباع بالعطاء، يهتدي بنور الكتاب، ويمثل حقيقة الإيمان.

كان المفهوم الديني للسياسة هو الحاكم عليه، وهكذا يكون سفير الحسين، فما انحرف عنه، ولا نأى جانباً عن واقعيته.

وكان بعد كل هذا شجاعاً بصدق، ومقداماً بجدارة، فقد رصد عليه ابن زياد الآفاق حتى حُصِرَ في دار المرأة المسلمة، فأرسل إليه المقاتلين، فاقتحموا عليه الدار، يحاولون قتله واغتياله، فشد عليهم بالسيف حتى أخرجهم منها، وقاتل ببسالة نادرة وهو يقول[١]:

هو الموتُ فأصنعْ ويكَ ما أنتَ صانعُ ... فأنتَ بكأسِ الموتِ لا شكَّ جارعُ
وصبراً لأمرِ اللهِ جلَّ جَلالُهُ ... فحلَمُ قضاءِ اللهِ في الخلقِ ذائع

وحمل عليهم حملة منكرة، حتى قتل واحداً وأربعين فارساً غير المجروحين، وهو يرتجز ويقول:

أقسمتُ لا أقتلُ إلاّ حُرّاً ... إنِّي رأيتُ الموتَ شيئاً نُكرا
ويجعلُ الباردَ سخناً مُرّاً ... ردّ شعاعَ الشمس فاستقّرا
كلُّ إمرىء يوماً ملافٍ شرّاً ... أخافُ أن أُكذبَ أوَ أغرّا

فقال له محمد بن الأشعث بن قيس الكندي: إنك لا تكذب ولا تُغرّ، فلا تجزع، إن القوم بنو عمك، وليسوا بقاتليك ولا ضائريك[٢].

ولم يعبأ مسلم بكلامه، فكرَّ عليهم حتى قتل منهم مقتله عظيمة على حد تعبير المؤرخين، فاستنجد ابن الأشعث بابن زياد أن يمدّه بالخيل والرجال، فأرسل إليه ابن زياد: إنّا بعثناك إلى رجل واحد لتأتينا به، فثلم من أصحابك هذه الثلمة العظيمة، فكيف إذا أرسلناك لغيره. يعني الحسين.

---

(١) ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ٩٣.
(٢) ظ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ١٩٦.

فأجابه ابن الأشعث: أتظن أنك بعثتني إلى بقال من بقاليّ الكوفة، أوجرمقاني من جرامقة الحيرة؟؟ . . فأرسل إليه ابن زياد:

«أن أعطه الأمان، فإنك لا تقدر عليه إلا به»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد أُخِذَ مسلمٌ بالأمان الكاذب بعد الإيمان المغلظة أن لا يُغدر به، وأدخل على ابن زياد وهو مغضب، وجرت بينهما مشادّة كلامية حامية، كان فيها مسلم مجاهداً بلسانه، كما كان مجاهداً بسيفه، وأسمع فيها ابن زياد ما أغضبه، فأنتفخ سحر ابن زياد وقال له:

«يا عاق يا شاق، خرجت على إمامك، وشققت عصا المسلمين، وألقصت الفتنة. فقال مسلم: كذبت يا ابن زياد وإنما شقّ عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد، وأمّا الفتنة فإنما ألقحها أنت وأبوك زياد بن عبيد ـ عبد بني علاج من ثقيف ـ وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شرّ بريّته.

فقال له ابن زياد: منّتكَ نفسك أمراً حال الله دونه وجعله لأهله.

قال مسلم: ومن ـ يا ابن مرجانة ـ أهله؟

فقال ابن زياد: أهله يزيد بن معاوية.

قال مسلم: الحمد لله، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم.

فقال ابن زياد: أتظن أن لك في الأمر شيئاً؟

قال مسلم: والله ما هو الظن. ولكنه اليقين[2].

---

(١) ظ ـ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٤/ ٣٥٤.

(٢) ظ ـ ابن طاووس/ اللهوف ٢٣.

ولم تقف المناظرة عند هذا الحدّ، بل تجاوزته إلى مسافات أبعد، أبان فيها مسلم من صلابة المبدأ، وصدق اللهجة، وثبات العقيدة، ونفاذ البصيرة ما وسعه ذلك، ولك بعد هذا أن تدرك قوة المحاجحة الهادفة، وأصالة الرأي الجريء، مما تحقق لنا تجسيد الحديث الشريف، القائل بأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

قال ابن زياد: أتيت الناس وأمرهم جمع، وكلمتهم واحدة، فشتت بينهم، وفرقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض.

فقال مسلم: لستُ لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونعمل فيهم بالعدل، وندعوا إلى حكم الكتاب.

فقال ابن زياد: وما أنت وذاك؟ أو لم نكن نعمل فيهم بالعدل؟

قال مسلم: إن الله ليعلم أنك غير صادق، وإنك لتقتل على التهمة وسوء الظنة. وجرىٰ بينهما كلام وجدال مما أغضب ابن زياد فجعل يشتمه ويشتم علياً وعقيلاً والحسن والحسين.

فقال مسلم: أنت وأبوك أحقّ بالشتم من هؤلاء، فاقض ما أنت قاضٍ يا عدو الله[1].

ولم يطل الانتظار بابن زياد، فأمر بمسلم أن يصعد به إلى أعلى القصر، وأن يضرب عنقه، ويتبع رأسه بجسده، ويرمي بهما إلى الأرض، وهكذا كان، ثم أمر بقتل هانىء، فأخرج من السجن، وقتل صبراً بمشهد من عشيرته المتزلزلة، ثم أمر ابن زياد بجثتي مسلم وهانىء

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ٢٤.

فصلبتا بالكناسة منكوستين، بعد أن سحبوهما بالحبال من أرجلهما في الأسواق طوال ذلك النهار[1].

وما اكتفى ابن زياد بهذا الإجراء الصارم حتى أمر بحمل رأس مسلم إلى دمشق، ومعه رأس هانىء، فكان مسلم «أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم، وأول رأس حمل من رؤوسهم إلى دمشق»[2].

وأنت ترى هذه الأحكام العرفية التي ما أنزل الله بها من سلطان: ضرب العنق من أعلى القصر، والرمي به إلى الأرض مع الجسد، السحب بالحبال في الأسواق، صلب الأجساد منكوسة، تسيير الرؤوس المقطوعة من الكوفة إلى الشام.

لقد جرّأ أهلُ الكوفة الحكمَ على ممارسة هذا العنف الهمجي نتيجة تخاذلهم وتواكلهم، حتى قبض عليهم ابن زياد بيد من حديد، وأنزل بهم أسوأ أنواع العذاب. وزجّ بخيارهم وأبرارهم ـ مضافاً إلى هذا كله ـ في ظلمات السجون ومعسكرات الاعتقال، فأذاقهم الذل والهوان.

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٧٨ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٧٤ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣١٨ وانظر مصدره.

(٢) المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٧١.

الحسين في الأراضي العراقية

أ ـ ضبط المنازل والحدود:

كتب يزيد بن معاوية بعد إعلامه بقتل مسلم بن عقيل الكتاب الآتي إلى ابن زياد:

«بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، واكتب إلي كل يوم ما يحدث من الخبر»[1].

فامتثل ابن زياد الأمر، ووضع المسالح في الطرق، وبث المراصد في المنازل، ونشر الشرط في البلاد، وأخذ الحدود بالنظارة ما بين واقصة إلى طريق الشام، وما بين الحجاز والعراق، وما بين الكوفة إلى البصرة، وضع السابلة، فلا داخل إلى الكوفة، ولا خارج من الكوفة.

وأقبل الإمام الحسين عليه السلام وكان قد دخل الأراضي العراقية، فلقي الأعراب، وسألهم عن الحال، فقالوا: والله ما ندري غير أنا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج، فسار تلقاء وجهه[2].

ومعنى هذا أن ابن زياد قد أعلن حالة قصوى من الطوارىء، وزاد عليها بأن فرض منع التجوال، وأقفل الحدود، فلا يلجّ أحد الكوفة،

---

(١) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٢٠ يرويه عن الطبري وابن الأثير.

(٢) ظ ـ المفيد/ الإرشاد/ ٢٠٣.

ولا يخرج منها أحد، وذلك لغايتين:

الأولى: تعمية الأخبار عن الحسين فلا تصل إليه الأنباء.

الثانية: التضييق على الحسين فلا يجد ملجأ، ولا يدخل الكوفة وهكذا كان. وقد يضاف إليهما وهو الأهم: أن لا يخرج أحد للحسين من شيعته، ولا يلتقي بأحد منهم، فهم لا يستطيعون مغادرة الكوفة، وهو لا يستطيع الاتصال بهم، وهذا يعني سدّ كل المنافذ التي يمكن للحسين الإفادة منها.

وكان الحسين عليه السلام يخشى مغبة الغدر، ويتخوّف الناس، وذلك حقّ من وجهة نظر سياسية فاحصة، فهو يتفرس علائم الخذلان فيما يصله من أنباء، وما يشاهده من ظواهر، ولم يكن بحاجة إلى أن يتحقق الأمر، فهو بغاية الوضوح لديه، ولكنه كان بحاجة إلى أن يلقي الحجة على من لقيه من المسلمين بعرض قضيته عليه، فعرض لمن واجهه في طريقه من الناس العائدين من الحج، أو السالكين المحجة في شؤونهم الخاصة، فاستجاب له من استجاب، واعتذر منه من اعتذر، أملاً في استقطاب أكبر عدد ممكن من الأمة، حتى إذا انتهى به السير إلى زرود، جمعته المنازل بزهير بن القين، وكان عثماني الهوى، وكارهاً للقاء الحسين، فكلّمه الحسين عليه السلام بالالتحاق به، فما كان بأسرع من أن استجاب للحسين والتحق به، وقال لرفقته ممن عاد معه من الحج، من أحبّ منكم أن يتبعني، وإلا فهو آخر العهد مني»[1].

ثمّ حدّث زهير رفقته بحديث طريف قال فيه:

«إنّا غزونا بلنجر ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم ففرحنا، فقال لنا

(١) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٦٨.

سلمان: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد ﷺ فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم من الغنائم في هذا اليوم. أما فإني أستودعكم الله».

ثم صار مع الحسين عليه السلام[1].

وسلمان هذا الذي أنبأ زهيراً بهذا الخبر، إما أن يكون قائد الفتح وهو سليمان بن ربيعة الباهلي، وأما أن يكون سلمان الفارسي، وكان ضمن الجملة العسكرية في فتح بلنجر، وكلاهما أو أحدهما كان قد أفاد هذا الأمر إخباراً من الرسول الأعظم ﷺ فيما يبدو، إلا أن الأغلب في الظن أن يكون سلمان الفارسي لا سواه لأمرين: الأول: أن الأطلاق لكلمة سلمان مجردة يتبادر معها الذهن إلى سلمان الفارسي، والتبادر علامة الحقيقة. والثاني: أن لسلمان الفارسي خصوصية برسول الله ﷺ هذه الخصوصية تبيح أن يسمع منه ﷺ هذا الإخبار الصحيح، يضاف إليه أن سلمان الفارسي المحمدي ممن يعنى بأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ب ـ الحسين يتلقى نبأ استشهاد مسلم:

وبينا الإمام الحسين عليه السلام في «زرود» إذ بلغه استشهاد مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، وعبد الله بن يقطر (بقطر) رسوله إلى الكوفة، فاسترجع وترحم عليهم جميعاً، وجمع الناس وخطبهم قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فإنه قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحبّ منكم الإنصراف فلينصرف، ليس عليه حرج منّا ولا ذمام»[2].

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٩٧.

(٢) ظ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٧٨.

فتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة، ونفر يسير ممن انضّموا إليه، وكان قد انضّم إليه جمع غفير من الأعراب في الطريق لظنهم أنه سيأتي إلى بلد قد استقامت له طاعة أهله، فكره ـ عليه السلام ـ أن يتبعه إلا الذين أقدموا على ما أقدم عليه من الشهادة[١].

وكان الحسين عليه السلام لما انتهى به السير إلى «زبالة» قد أتاه نعي عبد الله بن يقطر، وهو رسوله الذي حمل كتابه إلى مسلم بن عقيل، فلما كان قريباً من القادسية قبض عليه الحصين بن نمير مع شرطته، وسرحوه إلى عبيد الله بن زياد، فلما مثل بين يديه أمر به أن يصعد المنبر، ويلعن الكذّاب بن الكذّاب ـ علىٰ حدّ تعبيره ـ فصعد عبد الله المنبر وقال:

«أيها الناس: أنا رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله إليكم لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة وابن سمية الدعي بن الدعي لعنه الله».

فأمر به عبيد الله فألقي من أعلى القصر، فتكسرت عظامه، وبقي به رمق، فأتاه عبد الملك بن عمير فذبحه، فلمّا عيب عليه ذلك، قال: إنما أردت أن أريحه. رحمة الله عليه[٢].

فأُنبأ الحسين بمقتله بزرود، ويقال أن قتل مسلم وهاني وصل إليه وهو في «الثعلبية» بما يرويه الطبري والشيخ المفيد وسواهما، برواية مثيرة حقاً عن عبد الله بن سليمان والمنذر بن المشمّعل الأسديين قالا:

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٠٥.

(٢) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٢٦٣وانظر مصادره.

«لما قضينا حجنا لم تكن لناهمة إلا اللحاق بالحسين لننظر ما يكون من أمره وشأنه، فأقبلنا ترقل بنا ناقتانا مسرعين حتى لحقناه بزرود، فلمّا دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين، فوقف الحسين كأنه يريده، ثم تركه ومضى ومضينا نحوه، فقال أحدنا لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا لنسأله، فإن كان عنده خبر الكوفة علمناه، فمضينا حتى انتهينا إليه، فسلمّنا عليه، فردّ علينا السلام، فقلنا له: ممن الرجل؟ فقال: أسديّ، قلنا: ونحن أسديان، فمن أنت؟ قال أنا بكر ابن فلان، فانتسبنا له، ثم قلنا: اخبرنا عن الناس وراءك، قال: نعم: لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانىء ابن عروة، ورأيتهما يجرّان بأرجلهما في السوق.

قالا: فأقبلنا حتى لحقنا بالحسين، فسايرناه حتى نزل «التغلبية» ممسياً، فجئناه حين نزل، فسلمنا عليه، فردّ علينا السلام، فقلنا: رحمك الله إن عندنا خبراً، إن شئت حدثناك به علانية، وإن شئت حدثناك به سراً.

قلنا له: أرأيت الراكب الذي استقبلك عشاء أمس؟ قال: نعم، وقد أردت مسألته. فقلنا: قد استبرئنا لك خبره، وكفيناك مسألته، وهو امرؤ منا ذوي رأي وصدق وفضل وعقل، وأنه حدثنا: أنه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة، ورآهما يجرّان في السوق بأرجلهما.

فقال الحسين: إن لله وإنا إليه راجعون، رحمة الله عليهما، فرددّ ذلك مراراً. فقلنا: ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك في الكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوّف أن يكونوا عليك.

نظر عند ذلك إلى بني عقيل، وقال: ما ترون؟ فوثبوا وقالوا: لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا مسلم فقال الحسين: لا خير في العيش بعد هؤلاء. فعلمنا أنه قد عزم رأيه على المسير. فقلنا: خار الله لك»[1].

وإنما سقت إليك هذا الحديث بشيء من الإيضاح لأوقفك على تغيّر الموقف السياسي في الميدان، وعلى انكفاء القوى المؤيدة للحسين ممن كتبوا له إلى الاتجاه المضاد لمسيرته النضالية، مما يعني استحداث شرخ كبير في عملية الإعداد المرتقب للثورة، فالكوفة قد أُقتطعت عن الحسين بكل إمكاناتها ورجالها وعدّتها العسكرية، وأهل الرأي فيهم بين معتقل في أقبية السجون، وبين متخفٍ لا يُعرف حاله، وبين متنكر لتوجهاته السابقة، والسواد الأعظم همجٌ رعاعٌ استولى عليهم ابن زياد، فهم ينعقون معه.

ج ـ إيراء شعلة الثورة ومشكلة الوعي السياسي:

وبناء على النتيجة التي وصل إليها الانشطار في ميزان القوى، فقد تفرّق عن الحسين أصحاب المآرب والانتهازيون، وصمد معه أهل العقيدة والثبات، وهم الأقلية النادرة في كل زمان ومكان. والحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا في الأراضي العراقية وقد تجلّى له كل شيء مجرداً عن المبالغة والتفاؤل والاغراء، وقد كان بإمكانه إلغاء فكرة الثورة والجنوح إلى المساواة السياسية، وكان بإمكانه أيضاً المساومة من موقعه في القيادة إلى تحقيق مكاسب استثمارية في المال والإقطاع،

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٩٧ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد ٢٠٤.

وكان بإمكانه ترك هذا وذاك، وإلقاء الحبل على الغارب، فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، كما كان في مقدوره مغادرة البقعة الجغرافية الساخنة إلى رؤوس الجبال ومواقع الاعتصام الطبيعية، ولكنه كان مصمّماً على إيقاد جذوة النضال بعد خمودها، ومخططاً لإيراء شعلة الثورة رغم المعوّقات الكثيرة والمثيرة حقاً، فعزم على الزحف بهذه الفتية دون تردد، وأصرّ على مقابلة النظام بهذه الصفوة المختارة بكل شموخ، وأخذ يناشد من لقيه المؤازرة والنصرة استكمالاً للبرنامج النضالي الذي ارتضاه لطموحه الرسالي، والثبات على المبدأ من موقع المجابهة الثورية.

وقد مرّ عليك التحاق الواحد والاثنين بالحسين من هنا وهناك ممن لا يشكلّون قوةً ضاربةً، ولكنهم يمثلون موقفاً صامداً؛ وفي «عذيب الهجانات» التحق به أربعة من الفرسان الكوفيين ممن يشار إليهم بالبنان، وهم: نافع بن هلال الجملي، وعمرو بن خالد الصيداوي، وسعد مولاه، ومجمع بن عبد الله العائذي ليس غير[1].

ولعل هؤلاء الأربعة هم أكبر ركب كوفي التحق بالحسين لدى مقاربته الكوفة، ولدى سماع أهل الكوفة نبأ اقترابه منهم.

وكان من هؤلاء النفر دليلهم الطرماح بن عدي الطائي، وكان قد امتار لأهله ميرة من الكوفة، وخرج على غير الجادة، فالتقى بهؤلاء النفر في عرض الطريق، حتى إذا قاربوا الحسين عليه السلام ورأوه من بعيد، حدا بهم الطرماح، بهذا الرجز الرائع:

يا ناقتي لا تذعري من زجري   وأسرِ بنا قبلَ طلوعِ الفجرِ

(١) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٧٢.

بخيرِ ركبانٍ وخيرِ سفرِ   حتى تحلّي بكريمِ النجرِ
الماجدِ الحرِّ رحيبِ الصدرِ   أتى به اللهُ لخيرِ أمرِ
ثمة أبقاه بقاءَ الدهرِ[1]

قال أستاذنا الدكتور يوسف عبد القادر خليف رحمه الله تعالى[2]:

«والرجز هنا ـ ولعله أول شعر كوفي يظهر فيه الحديث عن الحسين ـ يعتمد على البساطة في عرض الفكرة، فهو لا يعدو أن يكون من تحية البدو وترحيبهم بضيف عزيز قادم إليهم، وهم خارجون لاستقباله، فالراجز يحث ناقته على السير السريع لتحل برحاب هذا الضيف الذي يضفي عليه صفات المدح المألوفه عند البدو، ويخلع ما يتمثله البدوي في الرجل من مُثلَ وفضائل، فهو عنده، كريم الأصل، ما جد، حرّ، واسع الصدر، ولكنه يلوّن هذه المُثلَ البدوية بلون إسلامي، لأن هذا الضيف ليس شخصاً عاديّاً، وإنما هو حفيد رسول الله، ومبعوث العناية الالهية، إليهم لأمر هو خير الأمور؛ ثم يختم هذه التحية البدوية بدعاء فطري ساذج، ولكنه معبّر عمّا يحمله له في نفسه من محبة صادقة وإخلاص أكيد، فيدعو له بأن يبقيه الله بقاء الدهر.

أمّا الحديث عن حركة الحسين السياسية ودوافعها وأهدافها، وتأييده لها، فهذه كلها أشياء لا يُعنى بها هذا الراجز البدوي لأنه في شغل عنها بإهداء التحية إلى الضيف الكريم والترحيب بمقدمه»[3].

والحق أن الوعي السياسي بعد لم ينضج ليتقبل مفاهيم ثورة

---

(١) ظ ـ الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٠٥.
(٢) الدكتور العلامة يوسف خليف رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب/ جامعة القاهرة وكان الأستاذ المشرف على رسالة الدكتوراه للمؤلف.
(٣) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٣٧٣.

الحسين، أو يدرك دوافعها الرسالية إلا لدى القلة من الناس، والدليل على ذلك مضافاً إلى الكبت السياسي الحاجز، أن الحسين عليه السلام لم يفتأ يدعو كل من يلقاه إلى نصرته مبيناً له الهدف الأصلاحي الغائب عن الوعي، ويشرح له أبعاد العنصر التغييري للحالة الإنسانية التي يهدف إليها في نهضته، عسى أن يبلور هذا البيان فكر من يجتمع به، وعسى أن تتأصل المفاهيم النضالية في أذهان الناس، ومع هذا المنهج فقد يظفر الحسين بمبتغاه حيناً، وقد لا يظفر به عند هؤلاء، نتيجة الوعي المتخلّف تارةً، أو الابقاء على النفس بعيدة عن الصراع، والاكتفاء بالانكار القبلي دون الاستطالة إلى الجهاد واللجوء إلى قوة السلاح تارة أخرى.

لقد التقى الحسين عليه السلام بعبيد الله بن الحر الجعفي، وهو أحد صعاليك العرب الثائرين، وممن تأثر لمقتل حجر بن عدي الكندي، ولعله ممن حاول إنقاذه وتخليصه من الإرسال إلى معاوية في الشام، ولكنه لم يفلح. وهو شاعر ثائر منا هض لسياسة بني أمية، التقى به الحسين في «قصر بني مقاتل» قال له الحسين: يا ابن الحر؛ إن أهل مصركم هذا كتبوا إلي: أنهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا، وإن عليك ذنوباً كثيرة، فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟ قال ابن الحر: وما هي يا ابن رسول الله؟ فقال الحسين: تنصر ابن بنت نبيك، وتقاتل معه.

قال ابن الحر: والله إن لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أغني عنك، ولم أخلّف لك بالكوفة ناصراً، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة. . . فتركه الحسين ومضى[١].

---

(١) ظ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٢.

فعبيد الله بن الحرّ كان بصيراً بالحقيقة، ولكنه كان سطحي الإدراك، فلم يسمح لنفسه بالتفكير السليم ليرى زيادة الحسين فيما تبنّاه من نهج ثوري يريد به اقتلاع جذور الطغيان، والعودة بالشعب المسلم إلى الحياة الحرة الكريمة، ولا يكون ذلك، إلا بالتضحية والفداء.

لقد ضن ابن الحر بنفسه عن القتل، فما نصر ابن بنت نبيه، ولكنه ندم بعد ذلك ندماً شديداً حينما بلغه مصرع الحسين، وكان ندمه هذا نتيجة شعور بالإثم والذنب، ولكنه جاء بعد فوات الأوان كما سترى هذا في موضعه من البحث.

والتقى الحسين عليه السلام بالحر بن يزيد الرياحي في «ذي حسم» وكان في ألف فارس، وقد بعثه ابن زياد من الكوفة ليحبس الحسين عن الرجوع إلى المدينة، ويقدم به الكوفة مخفوراً، فامتنع عليه الحسين، وأخرج له كتب أهل الكوفة بالبيعة، وقد تقدم ذكرها، فقال الحرّ: إني لستُ من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وإني أمرت أن لا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد. فقال الحسين الموت أدنىٰ إليك من ذلك فترادّوا الكلام: فقال الحر للحسين: إني لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً نصفاً بيني وبينك، لا يدخلك الكوفة، ولا يردّك إلى المدينة... فتياسر الحسين عليه السلام عن طريق العذيب والقادسية، وسار هو وأصحابه على غير الجادّة. والحرّ يسايره ويقول له: يا حسين، إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقاتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى. فقال له الحسين عليه السلام: أفبالموت تخوفني؟ هل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، ثم تمثل الحسين بقول الشاعر:

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه وخـالـف مثبـوراً وفـارق مجـرمـا
فإنْ عشتُ لم أندمْ وإن متُ لم أَلَمْ كفـى بـك ذلاً أن تعيـش وتـرغمـا

فلمّا سمع الحرّ ذلك تنحى عنه بأصحابه، وسار الحسين بأصحابه ناحية أخرى[1].

د ـ الحسين يواصل نهجه الثوري:

في هذه الأيام التي التقى بها الحسين الحر وهو يسايره، لم يترك الحسين إعلان منهجه الثوري، وكان عليه أن يعذر للقوم، ويقف بهم عند الحقائق، فخطب فيهم بصراحته المعهودة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة، وبتوعيتهم من جهة أخرى، فكشف لهم واقع النظام في الإثم والعدوان، وأعلن عن مكانته ودوره الرسالي، وشجب ظواهر الغدر والخيانة، واستنكر نقض العهد، وخلع البيعة، فقال: «أيها الناس: إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإن هؤلاء القوم قد استأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله.

وأنا أحقّ بهذا الأمر ممن غيّر، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم، إنكم لا تسلموني ولا تخذلوني. فإن تممتم عليّ ببيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٠٣ ـ ابن الأثير/ الكامل ٣/ ٢٨٠.

الله ﷺ نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهاليكم وأولادكم، ولكم فيَّ أسوة. وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدي، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم ينكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] وسيغني الله عنكم والسلام[2].

وكان لهذا الخطاب دلالته الثورية القاطعة، وفيه التعبير عن مكنونات ضمير الحسين في اضطلاعه بمهمة التغيير دون سواه، فقد أورد فيه: رواية رسول الله في ضرورة التغيير بالقول والعمل لمبتدعات السلطان الجائر، المستحل لحرام الله، والناكث لعهد الله، والمخالف لسنة رسول الله، والعامل بالإثم والعدوان.

وشرح بالإشارة الموحية ما عليه الحكم الأموي من التزامه طاعة الشيطان، وتركه طاعة الرحمان، مع ما عليه الحاكمون الجائرون من إظهار الفساد، وتعطيل الحدود، والاستئثار بالفيء، وتحليل حرام الله، وتحريم حلاله.

وصرح لهم بقَدَرِهِ الرسالي كونه أحقّ من يجب عليه التغيير بأعتبار موقعه القيادي، وقد استجاب لأن كتبهم قدمت عليه بالبيعة على ألا يسلم ولا يخذل.

وأعطاهم الحسين عليه السلام النصف من نفسه مطالباً باتمام البيعة ليصيبوا رشدهم، وذكرهم معاوداً أنه الوريث الشرعي لمرجعية هذا

---

(١) سورة الفتح/ ١٠.
(٢) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٧١ ـ الطبري/ التأريخ ٥/ ٤٠٣.

الدين فهو الحسين ابن أمير المؤمنين وهو ابن سيدة نساء العالمين، فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ.

وهو بعد أحدهم في المواساة، نفسه مع أنفسهم، وأهله مع أهاليهم، وولده مع أولادهم، لا يميز نفسه وآله عنهم في شيء، فكلهم أسرة واحدة.

ثم نعىَ عليهم نقض العهد وخلع البيعة وغدرهم بعلي والحسن ومسلم، وهو لا يغتّر بهم، بل هم الذين خدعوا أنفسهم، فأخطأوا حظهم وضيعوا نصيبهم.

كان لهذا الخطاب أثره الكبير في مسيرة الثورة، فقد أوقف به أصحابه على نيته الصلبة التي لا تتضعضع، وأوضح لأصحاب الحرّ حقيقة النظام الأموي الظالم، وطبيعة أنفسهم الحائرة، ودعا الفريقين إلى ضرورة التغيير الشامل.

وهنا ابتدره الطرماح بن عدي كاشفاً ما يدور بخلده من خواطر، فقد رأى قلة من معه، وتكاثر الأعداء عليه، وشراسة الحكم ضده، فأراد الإصحار برأيه فقال: «يا ابن رسول الله، أذكرك الله في نفسك، لا يغرّنك أهل الكوفة، فوالله لئن دخلتها لتقتلن، وإني أخاف أن لا تصل إليها، والله ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكفى، ولقد رأيت قبل خروجي إليك بيوم ظهر الكوفة، وفيه من الناس ما لم ترى عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرّحون إلى الحسين، فأنشدك الله إن قدرت على ألاّ تقدم شبراً إلاّ فعلت»[1].

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٠٦ ـ ابن الأثير/ الكامل ٣/ ٢٨١.

وما كان للحسين عليه السلام أن يغير رأيه الصارم، أو أن يثني عزمه الجيش الأموي، بل سار قدماً بتلك الصفوة حتى نزل كربلاء يوم الخميس الثاني من محرم سنة إحدى وستين[١].

وقال لأصحابه: أهذه كربلاء؟ قالوا: نعم يا ابن رسول الله. قال: هذا موضع كرب وبلاء، انزلوا، ها هنا محطّ رحالِنا، ومناخُ ركابنا، ومقتلُ رجالِنا، ومسفكُ دمائِنا، وهنا محلّ قبورِنا. بهذا حدثني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

وبنزول الحسين كربلاء تنتهي مرحلة الإعداد للثورة، والاضطلاع بأعبائها، وتبدأ مرحلة تفجير الثورة.

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٠٩.

(٢) ظ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٣٣.



الفصل الثاني

الفكر الثوري بين البعد السياسي والتخطيط العسكري عند الإمام الحسين

١ ـ فكر الثورة في تمثيل العنصر الاجتماعي.

أ ـ الخيارات بين يدي الحسين

ب ـ الاستجابة الثورية لأنصار الحسين

ج ـ العنصر الاجتماعي في ثورة الحسين

٢ ـ تحدّيات القوى المضادّة للفكر الثوري

أ ـ النفير العام لقوات النظام الأموي

ب ـ المفاوضات وموقف الحسين الرافض

ج ـ الفكر الثوري في تصريحات الحسين

٣ ـ الفكر الثوري يستقر في الأعماق

أ ـ ليلة الوعي الثوري

ب ـ المصير المشترك الواحد

٤ ـ الفكر الثوري في ميدان القتال

أ ـ التخطيط العسكري

ب ـ خطب الاحتجاج في ساحة المعركة

ج ـ أصحاب الحسين يناشدون الجيش الأموي

٥ ـ الفكر الثوري يخترق صفوف النظام

أ ـ الحسين يستوعب سبل الاحتجاج

ب ـ الحرّ يزدلف إلى معسكر الحسين

ج ـ طلائع العائدين إلى ركب الحسين



فكر الثورة في تمثيل العنصر الاجتماعي

أ ـ الخيارات بين يدي الحسين:

كان أمام الحسين عليه السلام وهو ينزل كربلاء عدة خيارات:

١ ـ أن يلغي فكرة الثورة، ويخلد إلى الدعة.

٢ ـ أن يغادر كربلاء، ويهاجر في أرض الله الواسعة.

٣ ـ أن يعطي بيده إعطاء الذليل، ويقر إقرار العبيد.

٤ ـ أن يستمر باعلان الثورة، ويتهيأ للنضال الدموي.

ونحن حين نسمح لأنفسنا بالنقد التحليلي لهذه الخيارات، أو حين يمكننا تسليط الضوء الكاشف على أبعادها، فإننا بكل وضوح سنصل إلى أعتاب الخيار الثابت لدى الحسين عليه السلام من أول يوم اضطلع به بهذه الحركة في جميع تبعاتها المذهلة، فما كان للحسين عليه السلام أن يفكر يوماً ما بإلغاء فكرة الثورة من ذهنه وهو يخطط لها جاهداً في كل المجالات الدعائية والإعلامية منذ أن امتنع عن البيعة وهو في المدينة المنوّرة، وقد كان بمقدوره أن يبقى مطمئناً في المدينة، ويسالم وادعاً كما سالم غيره، أما أنه يقف رافضاً للبيعة بحزم وإصرار، ثم يتخلى عن أفكار الثورة، فهذا من التناقض الذي لا يمكن أن تتقبله طبيعة الحسين في الاستقامة.

وما كان للحسين أن يلجأ للخيار الثاني، فيهاجر إلى بلاد الله

العريضة، لأن في ذلك تهرباً عن الواقع الرسالي الذي يحياه الحسين، وليس باستطاعته الهدوء النفسي بحيث يتخيّر الأمكنة التي تضفي ظلال الراحة، وهو أيضاً ليس ممن يقعقع له بالشنان، ومبادؤه تأبىٰ عليه ازدواجية القرار، فيعتزل مواجهة الأحداث.

وما كان للحسين عليه السلام أن يعطي بيده إعطاء الذليل، فينزل على رغبات الحكم الأموي، وهو يرى الكتاب مهجوراً والسنّة محرّفة، والحدود معطّلة، فهذا هو الذلُ الدائم الذي يتنافى مع تمثيله للكرامة الإنسانية، في إبائه للضيم، وتجسيده للمثل الأخلاقية والنضالية، وهو العلم الشاخص الذي يشار إليه بالبنان لتنقية ما علق بالإسلام من أوشاب غريبة.

إذن لم يبقَ أمام الحسين عليه السلام إلا الخيار الأخير الذي تمسك به منذ اللحظة الأولى بعزم وأسبقيّة، وهو طريقه الوحيد الذي ظل فيه سائراً متحدياً العقبات الكبرى والضغوط العاتية.

ومعنى استقرار الحسين عليه السلام في كربلاء هو اختيار هذا القدر في كل احتمالاته المضنية بدءاً من المتاعب النفسية والجسدية، ومروراً بالإعداد الثوري. وانتهاءً بالتضحية بالنفس والأهل والأقربين.

وأول ما يلاحظ في هذا القرار الحاسم أن الحسين قد أنبأ الجميع برؤيته للمصير المرتقب، فقد كتب إلى أخيه محمد ابن الحنفية بخاصة، وإلى بني هاشم بعامة، وبنسخة واحدة. هذه الرسالة المعبّرة:

«أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل، والسلام»[1].

---

(١) ابن قولويه/ كامل الزيارات/ ٧٥.

ولك أن تعجب من بلاغة هذه الرسالة القصيرة وهي سطر واحد، ولك أيضاً أن تقف مترصداً دلالتها الإيحائية الصارخة، فالحسين عليه السلام فيها ينعىٰ لأخيه وبني عمومته نفسه، فهو يودع الدنيا وداع مؤمن بفنائها، ويستقبل الآخرة استقبال متيقن بخلودها، وهكذا كان.

ولك أيضاً أن تتأمل كثيراً فيما قام به الحسين بادىء ذي بدء من نزوله كربلاء، فقد عمد إلى بني أسد عمّار كربلاء وسكانها، فاشترى الأراضي المحيطة به منهم بستين ألف درهم، وتصدّق بها عليهم، واشترط أن يرشدوا إلى موضع قبره، وأن يضيفوا زوّاره ثلاثة أيام. وكان حرم الحسين الذي اشتراه: أربعة أميال في أربعة أميال[1].

هذا العمل المفاجىء يدعو إلى استكناه أبعاده في العزم والتضحية والقرار، فهو قد اعتبر هذا المكان مقرّ إقامته الفعلية، وهذا أمر اعتيادي لا يدعو إلى كبير استغراب، ولكنه اعتبره أيضاً موضع قبره وقبله زواره، بحيث اشتراه بهذا المبلغ الضخم آنذاك وبهذه المساحة الفسيحة، مشترطاً على من اشتراه منهم أن يرشدوا الناس إلى موضع القبر، وأن يضيفوا القاصدين له من الزائرين ثلاثة أيام، وهذا هو المعنى الكبير.

ثم أقبل على أصحابه مذكّراً، ومتحدثاً، ومقوّماً، فقال:

«الناسُ عَبيدُ الدُنيَا، والدِينُ لَعَقَ على أَلْسنَتِهِمْ. يحوُطُونهُ ما دَرَّت مَعَائِشُهُمْ، فإذا مُحِصّوُا بالبَلاءِ قَلَّ الدّيانون. اللُّهُمَ إنّا عِترَة نَبيكَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وَقَدْ أُخرِجْنَا، وَطُردْنا، وأُزعْجنا عَنْ حَرِمِ جَدِّنا، وَتَعَدَت

---

(١) ظ ـ الشيخ البهائي/ الكشكول ٢/ ٩١.

بَنوُ أُمَيةَ عَلَينَا، اَللَّهُمَ فَخُذْ لَنَا بِحقّنا، وَأَنْصَرْنا عَلَى القَوْمِ الظالمِينَ»[1].

كل هذا يوحي بالتزامه الكامل بآخر الخيارات التي يمكن له أن يتعامل معها من خلال الفكر الثوري الذي فرضته عليه طبيعة رسالته الإصلاحية في التغيير.

ب ـ الاستجابة الثورية لأنصار الحسين:

ولا كبير حاجة إلى التأكيد على مدى الإستجابة الثورية لأنصار الإمام عليه السلام فذلك من البديهيات القائمة، فالحسين حينما استقر به الأستيطان في كربلاء، توجه إلى من معه من الهاشميين، والأنصار بشرح ما يدور حوله من البلاء، وإيراد ما رأى عليه المناخ السياسي وواقع المسلمين، وتكفّل بالردّ على هذا الانحطاط بما يضمن الكرامة، فالحق لا يعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه، ولقاء الله هو السبيل وحده، والموت هو السعادة، ولا حياة مع الظالمين.

قال الحسين بعد حمد الله والثناء عليه:

«أمّا بَعْدُ، فإنّه قدْ نَزَلَ بِنا مِنَ الأَمر ما قَدْ تَرَوَن، وإنَّ الدُنيَا قد تَغَيرَتْ، وَتَنَكَرتْ وأَدْبَرَ مَعْروَفُها، واستَمرَتْ جذّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مَنْها إلا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإناءِ، وَخَسيسُ عَيشٍ كالَمرعَى الوبيل، ألا تَرَوَنَ إلَى الحَقّ لا يُعْملُ بِهِ، وإلَىٰ الباطلِ لا يُتناهى عَنْهُ، لِيرْغَبَ المؤمنِ في لقاء رَبّهِ مُحِقاً، فإنّي لا أرَىَ المَوْتَ إلاّ سَعادَةً، والحياةَ مَعَ الظِالمينَ إلاّ بَرَماً»[2].

---

(1) المجلسي/ بحار الأنوار ١٠/ ٣٨٣.

(2) أبو نعيم/ حلية الأولياء ٢/ ٣٩ ـ ابن عساكر/ تأريخ دمشق ٤/ ٢٢٣.

وكان هذا الخطاب بمثابة المحرّك للوعي الديني في ضمائر أصحابه، والباعث على استقبال مشاعرهم سلباً وإيجاباً، والداعي إلى الاستزادة عن مدى استجابتهم، ففاضت ردود فعلهم الإيجابية بانبعاث ثوري فيه الإصرار على الملحظ الفدائي، وفيه المواساة نية وبصيرةً فيوالون من والاه، ويعادون من عاداه، وقد تبنى ذلك ثلاثة من أعيان أصحابه:

١ ـ زهير بن القين، وقد قال للحسين عليه السلام ما نصّه:

«قد سمعنا يا ابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنّا فيها مخلدين، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها»[١].

وهذه اللفتة البارعة من زهير ذات ظلال متعددة، فقد استمع وأطاع، وتكلم بصيغة الجمع المتكلم نيابةً على أصحابه، بأن الدنيا لو كانت باقية، وهم فيها مخلدون، لأثروا النهوض في دلالته القتالية، والتي تعني هنا الاستشهاد على الإقامة فيها.

٢ ـ نافع بن هلال الجملي، اتجه للحسين واثقاً، وقال:

«والله ما كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نياتنا وبصائرنا، نوالي من والاك، ونعادي من عاداك»[٢].

وقد عبر نافع عن الشجاعة والإرادة، وتكلم باسم الجمع من أنصار الحسين، وأنهم لا يكرهون لقاء الله، ليس قولاً فارغاً بل عقيدة راسخة تنطلق من صدق النية ونفاذ البصيرة في إطار ديني يلتزم أن يوالي

(١) الأمين العاملي/ لواعج الأشجان/ ٩٠.
(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٣٣.

من والى أهل البيت، ويعادي من عادى أهل البيت، متمثلاً ذلك في الحسين ذاته.

٣ - برير بن خضير الهمداني، وهو شيخ القرّاء في الكوفة، وقد قال:

«والله يا ابن رسول الله، لقد من الله تعالى بك علينا أن نقاتل بين يديك، تقطّع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة»[١].

وهنا يتجدد معنى الفداء بأبرز صوره، فالقوم يقاتلون بين يديه حتى تقطع أعضاؤهم، قتلاً وتمثيلاً، ثم يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شفيعهم يوم القيامة.

وقد تجلى للحسين عليه السلام تصميم أصحابه على النصرة، واطمئن لصدق القول في العزم، وبقي منتظراً لكوكبة من الأنصار في الكوفة، هو على علم بالتحاقهم به، وفي طليعتهم حبيب بن مظاهر الأسدي، وها هم قد وصلوا إليه قبل العاشر من المحرم بقليل في مشاهد عاطفية وثورية تكفّل بإيرادها المؤرخون.

ونشط الحسين عليه السلام في جمع أمره، والإصحار برأيه الرافض، وجدّ في مشاورة أصحابه منهجاً وتخطيطاً، وعمل على تعبئة رجاله قيادة وإقراراً، وأفاض في توعية أسرته وأهل بيته كفاحاً ومصيراً، وقدّم للجميع أطروحته النهائية في القتال المستميت، ليتمثل دوره التاريخي البكر في التغيير.

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ٣٣.

ج ـ العنصر الاجتماعي في ثورة الحسين:

ولم يكن تصميم الحسين عليه السلام على الثورة قراراً إرتجالياً، ولم يكن أيضاً إرادة فردية محصتة، فقد سبق الإعداد له تنظيماً وتوجيهاً وإعلاماً، حتى كان ظاهره ذات رؤية ثورية متميزة وقد دعا إليه من استجاب له فمثّل عنصراً إجتماعياً عضده أصحاب المباديء والقيم وسلكه الثائرون، وقد استوعبه أنصاره الأقربون استيعاباً تراجيدياً، واستقتلوا فيه كما استقتل الحسين حينما أذكى فيهم روح النضال، واستبسلوا كما استبسل الحسين حينما اتضحت معالم الطريق، فسار بهم قدماً لا يثنيه طارىء، ولا تقصر بخطاه عقبات.

هذا التحرك النضالي في عزيمته الفذة المتجددة، هو الذي أجرى مقولة الحسين السائرة مجرى الأمثال في الأمة عبر التأريخ الإنساني:

«إنّي لَمْ أخرجْ أَشراً، ولا بطراً، ولا مُفْسداً، ولا ظالماً، وإنَّما خرَجتُ لِطَلَبِ الإصْلاحِ في أَمةِ جَدّي محمد صلى الله عليه وآله، أُريد أنْ آمَر بالمعْروف وَأَنْهَى عَنِ المُنكَر، وَأَسِيَر بسِيرةِ جَدّي مُحمد صلى الله عليه وآله وأبي عَليِ ابن أبي طالب عليه السلام، فمَنْ قَبلَني بقبول الحقّ، فالله أَوْلَيَ بالحقّ، وَمَنْ ردَّ عَلَيَّ هَذا أَصبرُ حَتى يقضي اللهُ بَيني وَبين القَومَ بالحقِّ، وَهوَ خيرُ الحاكمين»[1].

وقد بقي الحسين عليه السلام بألتزام هذا الإطار من التوجه الثائر، فالإصلاح، الديني ـ لا الأشر ـ رائده، والتغيير الإجتماعي ـ لا البطر ـ هدفه، والأمر بالمعروف ـ لا الإفساد ـ منهجه، والنهي عن المنكر ـ لا

---

(١) ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ٨٨.

الظلم ـ شعاره، عسى أن يتدارك الله به أمة محمد جده، فينقذها من مهاوي الضلال، فمن قبله بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليه هذا التحرير الشامل فالصبر أولى به.

ولم يثق الحسين عن هذا المنهج لوم ولا إغراء، ولا قعد به عنه تفرق الناس من حوله أو غدرهم به، فقد استطلع الحسين رأي أهل الكوفة في الأيام الأخيرة من حياته، وذلك حينما قدم عليه متسللاً رفيق النضال الهادر مجمع بن عبد الله العائذي، وسأله عن خبر الناس، فقال مجمع «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، ليستمال ودّهم وتستخلص نصائحهم، فهم إلب واحد عليك، وما كتبوا إليك، إلا ليجعلوك، سوقاً ومكسباً، وأمّا سائر الناس فأفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك»[1].

وهذا تقرير صادق عن الناس الذين اتعدّوا مع الحسين على النصرة، فما وقف الحسين بأطروحته الثورية لدى ظهور هذه العلائم المتوقعة من قبل الغادرين، ولا استثنى الرأي، وإنما استمر في ترديد لغة النضال، عازفاً عن المثبطات في كل مظاهرها السلبية، فليس من شأن الفكر العقائدي الناهض أن تقعده مهزلة الاهتزاز في مواقف الناس، بل عليه أن يسير قدماً لترسيخ إرادته بكل إصرار واعتداد.

هذه النبرة النضالية لدى الحسين عليه السلام كان من شأنها أن تقفز بالفكر الإنساني إلى مستوى الإحساس وصحوة الضمير، بعد ذلك التحذير السياسي الذي استولى على الشعور والوعي، فعاد في شلل تام لا يستطع معه النهوض من رقدته، ولا الإفاقة من سكرته، وما كان لهذا المجتمع الخامل أن يتحرر من الذل والهوان، وأن يتخلص من القوقعة

---

(١) البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٧٢.

على الذات المخدرّة إلا بثورة شاملة تقتلع بقوتها جذور القيم المتأصلة بالاسترخاء والدعة، واستبدالها بمفاهيم جديدة نابضة بالحس الثوري المتحفز ضمن قيادة رائدة لا تتردد، وفوق أرض صلبة لا تتموج، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام هو المؤهل الوحيد لهذه المهمة الصعبة عقيدة ورجولة، والقائد المجربّ شرفاً وحسباً، والرائد المحرّر عزّةً ومقدرةً، فهو أحقُّ من بدّل وغيّر، وهو أجدر من ينصب نفسه علماً للأمة تقتدي به، وتستضيء بنور هديه.

ولقد تواجد هذا الامداد الذي لا ينضب عند الحسين عليه السلام في ألمع مشاهده المشخصة للحالات المرضيّة في كيان الأمة المتداعي، وكان ذلك كله متأطراً بإحساس مشرق لا غبار عليه ولا عتمة، يعني أولاً وبالذات بإرادة التكييف الاجتماعي للفكر الجماهيري بحيث يستوعب بدقّة ما يراد به من مآسي، ويستقرىء بأناةٍ ما يدور حوله من مؤامرات، يراد بها تدميره والقضاء على كل ممتلكاته الشعورية في التفكير والعواطف والمشاعر الناهضة، وما إصرار الحسين عليه السلام الإنساني في إيراء شعلة التحدي والرفض، إلا بدافع اجتماعي يعيد الحياة في شرايين ذلك القلب الواهن عسى أن تتيقظ مداركه فيعي كبرى المشكلات التي طوحت به في مجاهل الاعتساف والظلم والتغرير الرخيص، فيحاول ـ جاداً ـ التمرد على تلك المظاهر القاهرة، أو التخلص من ذلك الوضع الشاذ، ليستبدلها بروح الحرية والانفتاح، بعيداً عن هذا الكابوس الجاثم على صدره بإيحاء من النزعات الطائشة التي أحكم سيطرتها النظام الغاشم المتسلط.

ولهذا فقد يمكننا القول باطمئنان «أن العنصر الاجتماعي شديد البروز في ثورة الحسين، ويستطيع الباحث أن يلحظه فيها من بدايتها

إلى نهايتها، ويرى أن الحسين ثار من أجل الشعب المسلم: لقد ثار على يزيد باعتباره ممثلاً للحكم الأموي، هذا الحكم الذي جوّع الشعب المسلم، وصرف أموال هذا الشعب في اللذّات والرشا وشراء الضمائر، وقمع الحركات التحررية، هذا الحكم الذي اضطهد المسلمين غير العرب وهدّدهم بالافناء، ومزّق وحدة المسلمين العرب، وبعث بينهم العداوة والبغضاء، هذا الحكم الذي شردّ ذوي العقيدة السياسية التي لا تنسجم مع سياسة البيت الأموي، وقتلهم تحت كل حجر ومدر، وقطع عنهم الأرزاق، وصادر أموالهم، هذا الحكم الذي شجّع القبلية علىٰ حساب الكيان الاجتماعي للأمة المسلمة، هذا الحكم الذي عمل عن طريق مباشر تارةً، وعن طريق غير مباشرة تارة أخرى، على تقويض الحس الإنساني في الشعب، وقتل كل نزعة إلى التحرير بواسطة التخدير الديني الكاذب. كل هذا الانحطاط ثار عليه الحسين»[1].

إن دائرة هذه العناصر الاجتماعية الموحّدة، وإن كانت مقتصرة في ألفاظها على دلالات قد تبدو جميلة الأثر لدى الشعوب الواعية، ولكنها بمعانيها الواسعة لا يمكن لها أن تلقى ترحيباً لدى الفئات الحاكمة، وليس لها أن تجد ترحيباً عند الطبقة الاستقراطية من قريش، ولا أن تتجاوب أصداؤها في فضاء الطامعين والانتهازيين من عملاء النظام وولاته.

إن ما ينشده الإمام الحسين عليه السلام من التغيير للعرف الاجتماعي المنحرف، من أجل الكيان الاجتماعي المتحرر، لا يتماشى مع المناخ السياسي الشائع، الذي قهر الناس على الخضوع والاستسلام، وهو أيضاً لا يروق لتلك الطبقات المدللة المنتفعة بفتات هذا الانحراف

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١٣٨ وما بعدها.

الخطير، فهي تريد ما كان علىٰ ما كان، أمّا أن الحسين يريد أن يصحر برأي جديد، وبعرض جديد، لاجتياح هذه الأعراف السائدة، وأن يثور لاستبدالها بمفاهيم أخرى تعيد للشعب المسلم أصالته، وتحفظ للإنسان المستعبد كرامته، فذلك أمر دونه خرط القتاد، وإزاء هذا كله لم يقف الحكم الأموي ومناصروه موقف المتفرج الهادىء، بل حشد كل القوى الغاشمة لصدّ هذا السيل المتدافع.

تحديات القوى المضادّة للفكر الثوري

أ ـ النفير العام لقوات النظام الأموي:

استنفر الحكم الأموي قواته المسلّحة، وفصائله الأمنية المتعددة إزاء الزحف الحسيني الثائر، فقد أنبأ الحرّ بن يزيد الرياحي عبيد الله بن زياد بنزول الحسين عليه السلام كربلاء، فكتب ابن زياد للحسين: «أمّا بعد يا حسين، فقد بلغني نزولك كربلاء، وقد كتب إلي أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير، ولا أشبع من الخمير، أو ألحقك باللطيف الخبير، أو تنزل على حكمي وحكم يزيد، والسلام».

فلما وصل كتابه إلى الإمام الحسين عليه السلام قرأه، ورماه من يده، وقال: «لا أفلَحَ قوْم اشتروا مرضاه المخلوق بسخط الخالق».

وطالبه الرسول بالجواب، فقال الإمام الحسين عليه السلام:

«ما له عندي جواب، لأنّه حقّت عليه كلمة العذاب».

فرجع الرسول إلى ابن زياد وبخفي حنين خائباً، وأخبره بقول الحسين عليه السلام فاشتد غضبه، وأخذ يتأهب لحرب الحسين[1].

وضرب ابن زياد على الناس البعث، وحملهم على الخروج لحرب الحسين، وانتدب عمر بن سعد بن أبي وقّاص لقيادة الجيش،

---

(١) ظ ـ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٤/ ٣٨٤.

وكان قد كتب إليه بعهده على الري وجرجان، فاستدعاه وقال له: «سر إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك، فاستعفاه ابن سعد، فقال ابن زياد: نعم على أن تردّ لنا عهدنا الذي كتبناه لك.

فلما سمع ذلك ابن سعد استمهله يوماً لينظر بالأمر، فأمهله، فاستشار ابن سعد نصحاءه، فكلهم نهاه عن حرب الحسين، فبقي ليلته متململاً قلقاً منشداً:

أأتركُ مُلكَ الريِّ، والريُّ منيتي　　أمْ أرجعُ مأثوماً بقتل حسين
وفي مثله النارُ التي ليس دونها　　حجابٌ، وملك الريِّ قرةُ عيني[1]

وأتى ابن زياد صباحاً، وقال له: أيها الأمير، إنك قد وليتني هذا العمل، وسمع به الناس، فإن رأيت أن تنفذه لي فافعل، وتبعث إلى قتال الحسين من أشراف الكوفة من لست أغنى في الحرب منه، وسمّى له أناساً. فقال ابن زياد: لستُ أستأمرك فيمن أريد أن أبعث، فإن سرت بجنودنا وإلا فابعث إلينا بعهدنا. قال ابن سعد: فإني سائر إليه غداً، فأقبل في أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد[2].

وانتدب ابن زياد أهل الكوفة في الخروج لقتال الحسين، وخطبهم ووعدهم بزيادة العطاء مائة مائة، وأمرهم بالالتحاق بابن سعد.

وأنا بإذن الله مصنفٌ لك أركان الحرب وقوّاده في كتائبهم وفرقهم الحربية بحسب ما توصل إليه البحث العلمي دون تزّيدٍ أو إضافة.

خرج شمر بن ذي الجوشن الضبابي في أربعة آلاف.

خرج الحصين بن نمير السكوني في ثلاث آلاف.

---

(١) ظ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٣.
(٢) البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٧٧.

وخرج مضاير بن رهينة في ثلاثة آلاف.

وخرج كعب بن طلحة في ثلاث آلاف.

وخرج يزيد بن الركاب في ثلاثة آلاف.

وخرج نصر بن جرشة في ألفين.

وخرج حجار بن أبجر البجلي في ألف.

وخرج شبث بن ربعي في ألف[1].

فهؤلاء عشرون ألفاً، وابن سعد في أربعة آلاف، والحرّ بن يزيد الرياحي من ذي قبل في ألف، فصار الجيش خمسة وعشرين الفاً عدا الرجّالة.

وهذا العدد هو ما نميل إليه في عدة الجيش الخارج لقتال الإمام الحسين عليه السلام لأنه أقرب إلى القصد والاعتدال، ولا نميل إلى القول بأن عدته سبعون ألفاً، أو ثمانون ألفاً، أو مائة ألف، أو أكثر من هذا، وهو وإن كان أمراً جائزاً ولكنه قد يكون إلى المبالغة أقرب.

نعم، قد يقال بأن ابن زياد قد ازدلف إلى النخيلة يرسل العساكر إلى ابن سعد حتى تكامل عنده في اليوم السادس ثلاثون ألفاً بين فارس وراجل، فهذا مما لا مانع معه، إذ يضاف إلى الفرسان خمسة آلاف راجل، وهو موافق لما ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام إذ قال فيما يروى:

«لا يوم كيوم الحسين، ازدلف إليه ثلاثون ألف رجل يزعمون أنهم من هذه الأمّة، كلٌّ يتقرّب إلى الله بدمه، وهو بالله يذكّرهم فلا

---

(١) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٧٨ ـ ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ٩٨.

يتعظون، حتى قتلوه بغياً وظلماً وعدواناً»[1].

ب ـ المفاوضات وموقف الحسين الرافض:

وحينما تكامل لابن سعد جيشه بهذا العدد الضخم، وكان الحسين بولده وأهل بيته وأنصاره في حدود المائة أو دون المائة أنذاك، نشطت المفاوضات بين الحسين عليه السلام وابن سعد الذي أرسل للحسين من يسأله عمّا أقدمه؟

فقال الحسين عليه السلام كتب إليَّ أهل مصركم: «أن أقدم، فأمّا إذا كرهتموني، فإني أنصرف عنكم من حيث جئت»[2].

على انني استبعد أن يصدر عن الحسين وعد بالانصراف من حيث جاء، فإن حصل ذلك فلعله كان لإلقاء الحجة ليس غير.

وكتب ابن سعد إلى ابن زياد بذلك، فردّ عليه ابن زياد:

«أمّا بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا فيه رأينا والسلام»[3].

ولم يعرض ابن سعد على الحسين بيعة يزيد، لأنه علم أن الحسين لا يجيبه إلى ذلك أبداً[4].

وجدّ الأمويون في طلب الحسين عليه السلام وجدّ الحسين في الإباء

---

(١) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٥٠.
(٢) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨.
(٣) الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢١١.
(٤) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٤٧ وانظر مصدره.

عليهم، فما نزل على خطة خسف، ولا استمع إلى حديث آمال، ولا اهتبل فرصة مفاوضته، ولا أنعم عليهم باستجابة صغيرة أو كبيرة.

وأمر ابن زياد بمنع الحسين الماء، فبعث ابن سعد عمرو بن الحجاج الزبيدي في خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم أن يستقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام[1].

واستنجد حبيب بن مظاهر ببني أسد ممن هم في كربلاء، فأجابوه إلى نصرة الحسين عليه السلام والتأم منهم تسعون أو سبعون رجلاً.

وتناهت الأنباء إلى ابن سعد بذلك، فأرسل إليهم الأزرق بن الحرث في أربعمائة فارس، وتناوش الفريقان واقتتلوا، ثم رجعوا إلى حيّهم، وتحملّوا ليلاً ورحلوا[2].

وأراد الحسين عليه السلام أن يستكمل حجته، وله الحجة البالغة، فأرسل إلى ابن سعد يطلب، الاجتماع به ليلاً بين العسكرين، فخرج كل منهما في عشرين فارساً، وأمر الحسين من معه إلى أن يتأخر إلا أخاه العباس وابنه علي الأكبر، وفعل ابن سعد مثل ذلك، فبقي معه ابنه حفص، وغلامه لاحق.

فلمّا استقر بهما المجلس، جرت بينهما المحاورة الآتية، وهي من أقدم المحاورات في التأريخ الإسلامي:

قال الحسين: يا ابن سعد، أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ألا تكون معي وتدع هؤلاء؟ فإنه أقرب لك من الله.

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ١٧٢.

(٢) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٨٠.

فقال عمر: أخاف أن تهدم داري.

قال الحسين: أنا ابنيها لك.

فقال عمر: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

قال الحسين: أنا أخلف عليك منها من مالي بالحجاز.

فقال عمر: إن لي عيالاً بالكوفة وأخاف عليهم.

قال الحسين: أنا أضمن سلامتهم.

فسكت ابن سعد ولم يجبه بشيء.

فانصرف الحسين عنه، وهو يقول: مالك؟ ذبحك الله على فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله إنى لأرجو أن لا تأكل من برّ العراق إلا يسيراً، فقال ابن سعد ـ مستهزأً ـ وفي الشعير الكفاية، ثم رجع ابن سعد لمعسكره، وعاد الحسين إلى معسكره[1].

وفي هذه المحاورة تجد البون الشاسع بين فكرين متقابلين، فالحسين عليه السلام يدعو ابن سعد إلى القرب من الله في الالتحاق به، وابن سعد يتذرع بأسباب واهية، متعلقاً باهداب الدنيا والحياة المادية، فهو يتخوف هدم داره، وأخذ ضيعته، ومضيعة عياله، ويدرك الحسين هذه النفسية الوضيعة المنحدرة، فينصرف عنه داعياً عليه، بعد أن ضمن له تعويض كل ما يخاف تلفه أو فواته.

وقد يقال إن ابن سعد كان كارهاً لقتال الحسين، وأنا لا أعتقد ذلك، لأنه من الجماعة التي كتبت إلى يزيد باستبدال النعمان بن بشير

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤١٣.

على الكوفة برجل شديد، وذلك حينما أسفر الحسين بمسلم بن عقيل إليها، واستمع يزيد لذلك فولى عبيد الله بن زياد، فابن سعد من رجال الحكم وأذنابه، وممن يتعاملون معه ضمن المنافع المتبادلة، لهذا فقد ولاّه ابن زياد على الريّ وجرجان، وهو كان متلهفاً لملك الريّ كما تدل على ذلك أبياته من الشعر، فأعمىٰ ذلك بصره وبصيرته عن إدراك الحق، أو أنه أدرك ذلك، ولكن هواه قاده إلى الضلال، وكان التجاؤه للحياة الدنيا دافعاً للحسين أن يدعو عليه أن لا ينال من برّ العراق إلا يسيراً لأنه وأمثاله كالبهيمة المربوطة همها علفها.

وما من شك أن ابن سعد كان من أعرف الناس بمنزلة الحسين وعظيم مكانته، وقد يبدو أنه أراد أن يستدرك شيئاً من أمر قتاله للحسين، فكتب إلى ابن زياد كتاباً في ذلك، ولكن قراءة فاحصة لهذا الكتاب توقفك على افترائه وافتئاته على الواقع، فإن كان أراد أن ينجو من ورطة، فقد أوقع نفسه في ورطة أخرى، جاء في كتابه هذا إلى ابن زياد:

وأما بعد، فإن الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأمة، هذا الحسين قد أعطاني عهداً أن يرجع إلى المكان الذي أتى منه، أو أن يسير إلى ثغر من الثغور، فيكون رجلاً من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد، فيضع يده في يده، فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لك رضاً، وللأمة صلاح»[1].

وفي هذا الكتاب تزيّدٌ لا مسوّغ له، فلم يكن الحسين، ليغادر كربلاء وهي مقرّ ثورته، ولم يكن له ليضع يده بيد يزيد أولاً وأخيراً، فقد عرف من إبائه وإصراره ما هوّن عنده سفك دمه، وسبي عياله، ولم

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢١٢.

يتحدث عنه أحد أنه غيّر خطته في رفض بيعة يزيد، وقد كان ميسوراً له أن لا يخرج عليه لو اختار هذا السبيل، فما عدا مما بدا؟ «والذي نقطع به هو أن الحسين عليه السلام لم يقل هذا، ولو أراد ذلك لما صار إلى حالته التي صار إليها، إن جميع الدلائل تشير إلى أن هذا الخبر إنما وضع من الأمويين وأعوانهم، أرادوا أن يوهموا الناس أن الحسين خشع وخضع، وحنىٰ رأسه لسلطان يزيد، ليشوّهوا بذلك الموقف البطولي الذي وقفه هو وأصحابه في كربلاء.

وقد حرص الأمويون وأعوانهم على إخفاء كثير من ملامح ثورة الحسين وملابساتها، وأذاعوا كثيراً من المواقف المكذوبة عنها، ليوقفوا عملها التدميري في ملكهم وسلطانهم، ولكنهم لم يفلحوا»(١).

ويعضد هذا الرأي في صحته ما روي عن عقبة بن سمعان أنه قال: «صحبت الحسين من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وسمعت جميع مخاطباته للناس إلى يوم مقتله، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس من أنه يضع يده في يد يزيد، ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى م يصير أمر الناس، فلم يفعلوا»(٢).

وإذا كان الأمر على ما يقولون ـ وهو ليس كما يقولون ـ فلم رفض ابن زياد العرض المزعوم، وإذا كان الحسين يبايع يزيد فهو قصارى ما يريد ابن زياد، وهو قصارى ما يريد يزيد أيضاً، ولِمَ كتب ابن زياد إلى ابن سعد بقوله: «انظر فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي فابعث بهم

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١٧٠.
(٢) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ/ ٢٨٣.

إلي سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثلّ بهم، فإنهم لذلك مستحقون، وإن قتلت حسيناً فأوطىء الخيل صدره وظهره، فإنه عاقٌ شاقٌ قاطعٌ ظلومٌ، ولست أرى هذا يضرّ بعد الموت، ولكن على قول قلته: لو قتلته لفعلت هذا به. فإن مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا. . . .»[١].

وواضح أن الحسين لم ينزل على حكم يزيد وابن زياد، ولو كان قد نزل فما معنى مطالبته بذلك، وهو محصّل من ذي قبل.

إن لغة التناقض والانتحال واضحة الدلالة بين كتاب ابن سعد وجواب ابن زياد، لذلك فما ورد بكتاب ابن سعد على فرض صدوره مرفوض جملة وتفصيلاً، إذ لا يعضده دليل نصيّ أو تأريخي، وهو معارض بجواب ابن زياد نفسه، وإن كان مكذوباً أعليه، فطالما حوّل النظام أنظار الناس عن مبادىء ثورة الحسين، ولو بهذا اللون من التهريج السياسي الكاذب.

ج ـ الفكر الثوري في تصريحات الحسين:

بقي أن أحيلك على الفكر الثوري المتحدد إزاء كل قضية في تصريحات الحسين العلنية وهي ترفض الهدنة مع النظام، وتوجه الرأي العام للانقضاض عليه، وتشيع في الوسط الاجتماعي روح المقاومة والدفاع، وتبرمج سبيل الثورة في كل خط من خطوطها العامة، تستهين بالاغراء، وتستعظم المظالم، وتتلبث الفداء، وإليك شذرات من أمثال الحسين السائرة في هذا الصدد، لا أريد بها الحصر والاستقرار

(١) البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٨٣.

الأكاديمي الدقيق، لأنها على سبيل المثال فحسب:

١ ـ قال الحسين عليه السلام للوليد بن عتبة ابن أبي سفيان والي المدينة:

«إنّا أهل بيت النبوة، ومعدنُ الرسالةِ، بنا فَتَحَ الله وبنا خَتَمَ الله، ويزيدُ رجل شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله»[1].

٢ ـ قال الحسين عليه السلام لمروان بن الحكم، وهو يطلب إليه بيعة يزيد: **«إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وَعَلَى الإسْلامِ السَلاَمُ إذْ قَدْ بُلِيَتِ الأمة براعٍ مثل يزيد ولقد سمعت جدي رسول الله صَلى الله عَلَيهِ وآلِهِ يَقُولُ: إنَّ الخَلافَةَ مُحرَمَةٌ عَلَى آلِ أَبي سفيان»**[2].

٣ ـ قال الحسين لأخيه محمد بن الحنفية، وهو يعرض قراره عليه:

«لوْ لَمْ يَكُنَّ في الدُنيا ملجأ ولا مأوى، لَما بَايَعْتُ يَزيدَ بنَ مُعاوية»[3].

٤ ـ قال الحسين عليه السلام وهو يعلن أهداف الثورة:

«إنّي لَمْ أخرُجْ أَشِرَاً، ولاَ بَطِراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، إنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإصْلاحِ في أمّةِ جدي مُحَمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ»[4].

٥ ـ قال الحسين عليه السلام لأخيه عمر الأطرف:

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ١٠.

(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ١١.

(٣) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ١٦٩.

(٤) ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ٨٨.

«إنّي لا أعطي الدنيّة مِنْ نَفْسي أَبَدَاً»[1].

٦ ـ قال الحسين عليه السلام «مَوْتٌ في عِزٍّ، خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ في ذُلٍّ»[2].

٧ ـ قال الحسين عليه السلام للحرّ: «أَفَبِا لَموتِ تُخَوّفُني؟ وَهَلْ يَعْدوبِكُمْ الخَطْبُ أَنْ تَقْتُلُوني»[3].

٨ ـ قال الحسين عليه السلام يوم الطف مستميتاً:

«أَلاَ وإنَّ الدَعّيَ ابنَ الدَعيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثنَتَينِ بَيْنَ السَلَّةِ والذِلّةِ، وَهَيهات منّا الذِلّةِ، يأبى الله لنا ذلك ورَسُولُهُ وَالمؤْمِنونَ، وَحَجُورَ طابَتْ وَطَهُرَتْ، وأَنُوفَ حَميّةٌ، وَنفُوسٌ أبيّةٌ، مِنْ أَنْ نُؤثِرَ طاعَةَ اللئام عَلَى مَصَارِعِ الكرام»[4].

٩ ـ قال الحسين عليه السلام لأهل بيته وأصحابه عند نزوله كربلاء:

«فإنـي لا أرى المـوتَ إلاّ سعَـادَةً، والحيَـاةَ مـع الظـالميـنَ إلاّ بَرَماً»[5].

١ ـ قال الحسين عليه السلام لشمر بن ذي الجوشن، وقد هدّده بالقتل.

«أَفَبِا لَموْتِ تخَوفُني؟ والله للموتة مَعَهُ أَحَبُّ إليّ من الخُلْد مَعَكُمْ»[6].

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ١١.
(٢) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ١٧٢.
(٣) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٠٣.
(٤) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٥٩.
(٥) أبو نعيم/ حلية الأولياء ٢/ ٣٩.
(٦) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٦١.

١١ ـ وأخيراً فهو المستشهد بقول أخي الأوس[١]:

سأمضي وما بالموت عارٌ عَلَى الفتىَ إذا ما نَوَىَ حَقّاً، وجَاهَدَ مُسْلِما
وواسى الرجالَ الصالِحينَ بنَفْسِه وخـالَـفَ مثبـوراً، وفـارقَ مُجْـرمـا
فإن عشتُ لم أنْدَمْ وإن مُتُّ لم أُلَمْ كَفَـى بِـكَ ذُلاً أنْ تعيـشَ وتـرغمـا

كل هذه التصريحات الثائرة تنفي قاطعاً ما ردده المؤرخون الرسميون من أن الحسين عليه السلام قد أبدى في كربلاء: أن يضع يده بيد يزيد، معاذ الله.

ومهما يكن من أمر، فقد تولى عمر بن سعد قيادة الجيش الأموي لحرب الحسين عليه السلام وزحفت الجيوش على مخيم الحسين عليه السلام عصر اليوم التاسع من محرم الحرام سنة إحدى وستين من الهجرة، فانبرى لهم العباس ابن أمير المؤمنين يعظهم وينذرهم ويوبخهم، فما نفع معهم، وقال له الحسين «فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة، وتدفع عنا هذه العشية، لعلنا نصلي لربنا ونستغفره، فهو يعلم أني أحب الصلاة، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار».

فاستجاب القوم بعد تردد شديد، وأجلّت المعركة إلى صباح العاشر من المحرم[٢].

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٠.
(٢) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤١٧.

الفكر الثوري يستقرّ في الأعماق

أ ـ ليلة الوعي الثوري:

كانت ليلة العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، ليلة حافلة ـ لدى الحسين وأصحابه ـ بالتخطيط الثوري من جهة، والعمل السياسي من جهة أخرى، وناهضة بالصفاء الروحي من جهة ثالثة.

وكان الخداع والمكر دأب المعسكر المقابل للحسين، ففي الوقت الذي أحيا فيه الحسين ومن معه تلك الليلة بالصلاة والدعاء والاستغفار، وكان لهم دويٌّ كدويّ النحل بتلاوة القرآن على حد تعبير المؤرخين، وهم ما بين قائم وقاعد، وراكع وساجد[1]. كان أصحاب عمر بن سعد يحيون ليلة من الطرب وضرب الطبول، وإحياء النزعة القبلية، والتنابز بالألقاب حتى علا رهجهم، وكثر ضجهم، وهم ما بين حانق وحاقد، وواجم وساخر.

وعمد الجيش الأموي إلى خديعة نكراء مفضوحة، حينما أقبل شمر بن ذي الجوشن، ووقف على أصحاب الحسين، ونادى:

أين بنو أختنا؟ يعني العباس وإخوته، فخرج له العباس وجعفر وعبد الله أبناء أمير المؤمنين عليه السلام، فقالوا ما تريد؟ فقال: أنتم يا بني أختي آمنون. فقال له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك، أتؤمننا؟ وابن

---

(١) ظ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٠.

رسول الله لا أمان له. وكروا راجعين[1].

وقد علم الحسين عليه السلام أن القوم إنما يطلبونه بخاصة، فأراد أن يتحلل منه أصحابه، وعزم على الإذن لهم بالانصراف، مع علمه المسبق أنهم ثابتون على نصرته وفدائه بأعزّ ما يملكون نفساً وأهلاً ونفيساً، ولكنه أراد أن لا يكره أحداً على قتال، وأن يترك الأمر على سجيته، ويدع كلاً وما يختار لنفسه طواعيةً، فجمع أصحابه ـ بما روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام ليلة العاشر من المحرم عند المغرب من المساء، وخطبهم.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام قد نوت منه لأسمع ما يقول لهم ـ وأنا إذ ذاك مريض ـ فسمعت أبي يقول لأصحابه:

«أُثني عَلَى الله أحْسَنَ الثناء، وأَحْمَدُه عَلَى السَرّاء والضّراء. اللّهُمَ إنّي أحْمَدُكَ أَنْ أَكْرَمْتَنَا بِالنُبُوةِ، وَعلَمْتَنَا القُرْآنَ، وَفَقُهتَنَا في الدِينَ، وَجَعَلْتَ لَنا أَسْمَاعَاً وأَبْصاراً وَأَفْئدَةً، فاجْعَلْنَا مِنَ الشَاكرين.

أمّا بَعْدُ: فَإنّي لا أعْلَمُ أَصْحاباً أوْفىَ وَلا خيْراً مِنْ أَصْحابي، وَلا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أوْصَلَ منْ أهَلِ بَيْتي، فَجَزاكُمْ الله جَميعاً عَنّي خَيَراً. ألا وإنّي لأظنُ يَومَنَا مِنْ هؤلآءِ الأعْداءِ غداً، ألا وإني قَدْ أذنتُ لكُمْ جَميعاً، فانطلقوا في حلٍّ ليْست عَلَيكُمْ مِنْ حَرَج وَلا ذِمامٍ، وَهَذا اللَيْلُ قد غشيَكُمْ فاتخذوُهُ جَمَلاً، ثمَّ ليأخذْ كلُّ رَجُلٍ منكُمْ بيدِ رَجُلٍ مِنْ أهْل بَيتي، وتَفَرقوا في سواد هذا الليل، وَذَرَوَني وَهؤلاء القَوْم، فإنَّهُمْ لا يُريدّون غَيْري، وَلَوْ أصابوني لَذُهلوا عَنْ طَلَبِ غَيْري»[2].

(١) ظ ـ الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢١٣.

(٢) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤١٩.

وأنت ترى الحسين عليه السلام يتحدث بيسر لا تكلف معه، وينزع عن قوس سديد الهدف، يصرّح بواقع الحال، وينطق بلغة الضمير، فإن كان صحبه على ما هو عليه من التصميم، فهو الوعي الثوري المتكامل، وإن كانت الأخرى فقد نهض بتكليفه الرسالي، ولم يلجأ أحداً على التعرض لابتلائه، فهو يحمد الله أن أكرم أهل البيت بالنبوة، وعلمهم القرآن، وفقههم في الدين، وهو يثني على أصحابه ثناءً عاطراً، ويقدمهم بهذا الذكر على أهل بيته، فهو لا يعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابه، كما لا يعلم أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيته، ثم يجزّيهم جميعاً خيراً. ثم ينبأهم بالملحمة غداً، صراحة لا تعريضاً، ويأذن لهم بالانصراف، فهم في حل من بيعته وليس عليهم حرج ولا ذمام، فليتخذوا الليل جملاً في استعارة بليغة دقيقة، فالجمل يركب عليه ويسري متحملاً المشقّة، ثم وجههم أن يأخذ كل رجل من اصحابه بيد رجل من أهل بيته يؤنس وحدته ويواسيه في غربته ورحلته، متفرقين في سواد الليل لأنه يسترهم، فإن القوم ـ ويعني بذلك النظام الحاكم ـ إنما يطلبونه باعتبار الرمز والشاخص القائد، ولو قد ظفروا به لذهلوا عمن سواه.

كان هذا الخطاب مؤثراً نفسياً في صحبه وأهل بيته معاً، فلم تسمح لهم كرامتهم بفراقه، ولا شهامتهم بالبقاء بعده فقالوا بصوت واحد. «لم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً».

بدأهم بهذا القول العباس ابن أمير المؤمنين، ثم تبعته الفتية بنحو هذا الكلام[1].

---

(١) ظ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٥.

بعد هذا الموقف الصلب، نظر الحسين إلى بني عقيل، وقال: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم بن عقيل، فاذهبوا أنتم، فقد أذنتُ لكم.

«فقالوا: سبحان الله، فما يقول الناس لنا؟ وماذا نقول لهم؟ إنّا تركنا شيخنا وسيدنا وكبيرنا وابن بنت نبينا، وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله ـ يا ابن رسول الله ـ لا نفارقك أبداً، وكلّنا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، قبحّ الله العيش بعدك»[1].

وجاء دور أصحاب الحسين عليه السلام وهم يواكبون مسيرة الثورة، فجددوا الولاء، وأبوا الانصراف، وآثروا الثبات حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وفيما يأتي بعض نماذج الإصرار المؤثر والواعي:

١ ـ قام مسلم بن عوسجة الأسدي، فخطب قائلاً:

«نحن نخليك هكذا وننصرف عنك؟ وقد أحاط بك هذا العدو، وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ لا والله لا يراني الله وأنا أفعل ذلك أبداً، حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضرب فيهم بسيفي ما ثبت قائمة بيدي. ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، ولم أفارقك أو أموت معك».

٢ ـ ونهض العبد الصالح سعيد بن عبد الله الحنفي، فقال:

«لا والله يا ابن رسول الله، لا نخليك أبداً حتى يعلم الله تعالى أنّا قد حفظنا فيك غيبة رسول الله، والله لو علمت أني أقتل فيك ثم أحيا، ثم أُحرق حياً، ثم أذرى في الهواء، يفعل ذلك بي سبعين مرة لما فارقتك أبداً حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم

---

(١) ظ ـ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٤/ ٣٩٣ ـ ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ٩٩.

بعدها الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً».

٣ ـ ثم قام زهير بن القين مستقتلاً في خطبة بليغة، وقال:

«والله يا ابن رسول الله، لوددت أني قتلت ثم نشرت، حتى أقتل فيك هكذا ألف مرة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من إخوانك وولدك وأهل بيتك، لفعلت».

٤ ـ وتناول الكلام بقية أصحاب الحسين عليه السلام بإيجاز، وقالوا بصوت واحد: «أنفسنا لك الفداء، نقيك بأيدينا، ونحورنا، وجباهنا، فإذا نحن قتلنا بين يديك، نكون قد وفينا لربنا، وقضينا ما علينا».

فجزّاهم الحسين عليه السلام خيراً بما قالوا، وانصرف إلى مضربه[(١)].

ولك في ضوء ما قرأت من نصوص خطابية لأنصار الحسين عليه السلام أن تدرك ما لهذه الفتية من أثر عظيم في حفظ كيان الإسلام، وأن تعرف ما لها من فضل علينا في استمرار وجودنا العقائدي، وأن تنظر ما لها من دالّة على الإنسانية في احتضان المثل العليا: روح الفداء والتضحية، صدق الرأي والوفاء، الاستجابة بلا حدود.

لقد كان أصحاب الحسين عليه السلام في كل اللحظات الحرجة لا يشغلهم عن الحسين شاغل، ولا يصرفهم عنه التفكير في النفس والأهل والولد، لقد قطعوا في الوفاء للحسين أشواطاً، وقد سبقوا إلى النصر معه أفواجاً، وقد رغبوا في الشهادة معه شيباً وشباناً، فمثّلوا وحدة في المواساة غير قابلة للانفصال.

انصهر هؤلاء الأبرار انصهاراً رسالياً مع الحسين، وذابوا في حبه ذاتياً، واختاروا المصير معه إرادياً، حتى كان التحقق الشديد في ولايته رائدهم الاسمى، والالتزام الوثيق في نصرته الغاية القصوى، لم يصرفهم

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٢٠ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٥. ابن طاووس/ اللهوف ٣٩ ـ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٤/ ٢٩٤.

داعٍ عن هذا الاتجاه حتى في أشد الظروف عسراً، وأصعب الحالات حرجاً، وما أكثر ما روي في ذلك من مشاهد، وما أبلغ ما قبل من حوادث.

فقد قيل: لمحمد بن بشير الحضرمي: قد أسر إبنك بثغر الريّ، . فقال: عند الله أحتسبه ونفسي، ما كنت أحبّ أن يأسر وأنا أبقى بعده حيّاً، فلما سمع الحسين عليه السلام قوله، قال له: رحمك الله أنت في حلّ من بيعتي، فأعمل على فكاك ولدك، فقال: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك[1].

قال الحسين: فأعطِ ابنك هذه الأثواب والبرود ليستعين بها على فكاك أخيه، وأعطاه خمسة أثواب قيمتها ألف دينار[2].

ب ـ المصير المشترك الواحد:

وحينما استوثق الحسين عليه السلام من أصحابه، وعلم منهم الوعي الرسالي الصادق، ولمس فيهم صحة الإرادة الثابتة، تكلم معهم بلغة الغيب، بسابق علم علمه من أبيه أو جده أو منهما معاً، أو لانكشاف الأمور لديه، أولهما معاً، فقال لهم جميعاً بالحرف الواحد:

«إنّي أقتلَ غداً، وتقتلون كُلكُمْ مَعَي، ولا يبقَىَ منكم أحَدٌ إلاَّ وَلَدي عَلياً زين العَابدين، لأنَ الله لم يقْطعْ نَسْلَهُ مِنْهُ، وَهَو أبُو أئمةٍ ثمانيةٍ»[3].

وأضاف الحسين عليه السلام إلى هذا الأخبار صيغة حقيقية أخرى جديدة، أنبأهم من خلالها بشهادتهم، فقد أرسل ولده عليَّ الأكبر بخمسين من أصحابه ما بين فارس وراجل، وأمرهم بجلب الماء، فجاؤوا به بعد جهد شديد، فقال الحسين لأصحابه: **«قُوموا واشْرَبُوا مِنْ هذا الماءِ،**

(١) ابن عساكر/ تأريخ دمشق ١٣/ ٥٤.
(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٠.
(٣) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٦٦ وأنظر مصادره.

وتطهّروا، واغسلُوا أثوابكُمْ، فإنّها سَتَكُونُ أَكْفَانَكُمْ»[١].

وكان هذا القدر في التصريحات بالشهادة مفعماً بدلائل المصير المشترك الواحد بينه وبين أهل بيته وأصحابه.

وكان المناخ الروحي والتعبدي الذي عليه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه، بارز الوضوح لدى الأولياء والأعداء معاً، فتلاوم جماعة من أصحاب عمر بن سعد بعد جلاء الأمر، وشدة المؤثرات النفسية عليهم، وتراكم الهاجس اللاشعوري لديهم، فأئتمروا فيما بينهم، وقرروا الإلتحاق بالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قال المؤرخون: «وعبر في تلك الليلة من عسكر عمر بن سعد إثنان وثلاثون رجلاً إلى جهة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ فنالوا السعادة والشهادة بين يديه»[٢].

بعد هذه المشاهد وما صاحبها من تفاعل وتنبؤ، أشرف الحسين بنفسه عند انتصاف الليل على الربايا والتلاع المحيطة به احترازاً، واحتراساً.

قال المؤرخون «ثم أن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج ليلة العاشر من المحرم في جوف الليل إلى خارج الخيام يتفقد التلاع والعقبات، فتبعه نافع بن هلال الجملي، فسأله الحسين عما أخرجه في هذه الساعة؟ فقال نافع: يا ابن رسول الله، أقزّ عيني خروجك إلى جهة معسكر هذا الطاغية في هذه الساعة.

قال الحسين: إني خرجت أتفقد التلاع والروابي مخافة أن نكون مكّنا لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون. ثم رجع عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو قابض على يد نافع، وهو يقول: هي هي والله، وعد لا خلف فيه. ثم قال لنافع: ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل، وتنجو بنفسك؟ فوقع نافع

---

(١) الشيخ الصدوق/ الأمالي/ المجلس الثلاثون.

(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٠.

على قدمي الحسين يقبلهما، ويقول «إذن ثكلت نافعاً أمه، سيدي: إن سيفي بألف، وفرسي مثله، فوالله الذي مَنَّ بك عليّ، لا أفارقك حتى يكلاّ عن فري وجري»[1].

وقد وضح موقف أصحاب الحسين عليه السلام في ربط مصيرهم بمصيره دون أدنى شك، حتى أن زينب ابنة أمير المؤمنين بدافع من الشعور بالمسؤولية قالت للحسين: يا أخي هل استعلمت من أصحابك نياتّهم، فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة واصطكاك الأسنة». فقال لها الحسين واثقاً: «أما والله لقد بلوتهم، فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفل بمحالب أمه»[2].

وكان من مخائل التفكير في المصير الواحد واليوم الموعود: أن الحسين كان ينعي نفسه فيما ينشد من أراجيز يكررها ليلة الوعي الثوري.

روى الشيخ المفيد (ب ٤١٣ هـ) عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«إني لجالس في تلك العشية التي قتل أبي بصبيحتها، وعندي عمتي زينب تمرضني، إذ اعتزل أبي في خباءٍ له، وعنده جون مولى أبي ذر الغفاري، وهو يعالج سيفه ويصلحه، وأبي يقول:

يـا دَهْـرُ أُفٍّ لَـكَ مَـنْ خَليـلِ ... كـمْ لـكَ بـالإشْـراقِ والأصيـلِ

مِـنْ صَـاحـبٍ أوْ طـالـبٍ قتَيِـلِ ... وَالـدَهْـرُ لا يَقْبَـلُ بـالبـديـلِ

وإنمَّـا الأمْـرُ إلَـى الجَليـل ... وكـلُّ حَـيٍّ سـالـكُ سبيلـي

فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها... وعلمت أن البلاء قد نزل[3].

---

(١) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٢) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢١٥.

وكان آخر توجيه عسكري تلك الليلة أن أمر الحسين أصحابه أن يقرّبوا من البيوت، وأن يدخلوا الأطناب بعضها ببعض، وأن يكونوا بين البيوت لاستقبال القوم من وجه واحد، والبيوت من ورائهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم[1].

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٢١ ـ ابن الأثير/ الكامل ٣/ ٢٨٦.

الفكر الثوري في ميدان القتال

أ ـ التخطيط العسكري:

استقبل الإمام الحسين عليه السلام ذلك الصباح المكفهرّ صباح العاشر من المحرم بثغر باسم ومحياً طلق، تحف به تلك الوجوه الصباح من ولده وإخوته وأبناء عمومته وخُلّص أصحابه، وهو يتلو قوله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(1).

لقد شاهد تلك الجموع الحاشدة تزحف إليه، وأبصر تلك الجيوش المتدافعة تتجه بخيلائها نحو معسكره الصغير، فحزّ في نفسه ذلك المنظر الهائل من الانحطاط العسكري، فالجيوش ينبغي أن تتجه نحو الثغور فتدرأ اخطر العدو الداهم، ولا يصح في حال من الأحوال أن تندفع لاستئصال عترة صاحب الرسالة في غمرة من الغليان السياسي المحموم، دون الاستنارة برأي سديد، أو الاستعانة بعقل حاكم، وإنما هي الفوضى في القيم والمقاييس.

إزاء هذا الانحدار الاخلاقي في كل مظاهره، رفع الحسين يديه إلى السماء قائلاً: **«اللّهُمَ أنْتَ نقَتي في كلِّ كرب، وأنَتَ رَجائي في كُلِّ شدّة، وأنتُ لي في كلِّ أمْر نزلَ بي ثقَةٌ وَعُدَّةٌ، كَمْ مِنْ همٍّ يَضعُفُ فيه الفؤاد، وتقلُّ فيهِ الحيلةُ. ويَخْذُلُ فيهِ الصَديقُ، وَيَشمُتُ فيه العَدُوُ أنزلتُهُ**

(1) سورة آل عمران/ 178.

بك، وشكوتَهُ إليكَ، رَغْبَةً منّي إلَيكَ عمنّ سواكَ، ففَرجّتهُ عَنّي وكشَفتَهُ، فأنْتَ وَليّ كُلِّ نعْمة، وصاحبُ كُلِّ حَسَنة، وَمنْتَهى كلِّ رَغبةٍ»[1].

بهذا الدعاء التوكلي الرائع استقبل الحسين عليه السلام ذلك الضلال الزاحف، وكان عليه أن يواجه ذلك التداعي في الانزلاق بأرقى مظاهر الثبات، وأن يقابل ذلك الجيش المتهّور بالتخطيط العسكري الهادىء، فعبأ أصحابه بعد صلاة الغداة من ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة وقيل السبت، وكان مع الحسين اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً، وقيل أكثر من هذا بقليل، ولكننا نميل إلى ما روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنهم: خمسة وأربعون فارساً، ومائة راجل، وهذا العدد يتناسب في أغلب الظن، مع من التحق بالحسين عليه السلام من معسكر ابن سعد ليلة العاشر من المحرم ويوم العاشر منه.

عمد الحسين عليه السلام إلى قيادته العسكرية، فوزع أركان حربه على النحو الآتي:

١ ـ جعل زهير بن القين على الميمنة.

٢ ـ جعل حبيب بن مظاهر الأسدي على الميسرة.

٣ ـ أعطى رايته لأخيه العباس ابن أمير المؤمنين.

٤ ـ ثبت هو وأهل بيته جميعاً في القلب.

ثم أمر الحسين عليه السلام أن يكون تجمع القوى متمركزاً أمام المخيّم، فكان ذلك، وجعلوا البيوت في ظهورهم، وأمر بحطب وقصب كان وراء البيوت أن يوضع في خندقٍ كانوا قد حفروه في ساعة من الليل، وأن يملأ بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم، فنفعهم ذلك[2].

---

(١) الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢١٧.

(٢) ظ ـ الامين العاملي/ أعيال الشيعة ٤/ أول/ ٢٥٣.

وأصبح عمر بن سعد، فعبأ أصحابه أيضاً، وخرج فيمن معه نحو الحسين، وكان على ميمنته عمر بن الحجاج الزبيدي، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن الضبابي، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأرجي، وعلى الرجالة شبث بن ربعي اليربوعي، وأعطى الراية دريداً مولاه[1].

تأهب المعسكران للقبال الدامي. إلا أن الحسين أراد الأعذار لأهل العراق إتماماً للحجة، وكشفاً للقناع.

ب ـ خُطَبُ الإحتجاج في ساحة المعركة:

لمّا كان هدف الحسين رسالياً، فقد بادر إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلن سخطه على ما يفعلون، وصرّح بالإحتجاج عليهم فيما يركبون، وفصلّ القول في حقائق الأشياء ليكون كلٌّ على بينة من أمره، وكان سبيل ذلك عدّة خطبٍ نابضةٍ قلبّ فيها شؤون الأفق السياسي، وحررّ فيها ظواهر القول الفصل، طمعاً في الإستجابة لما فيه خير الأمة وصلاحها، فدعا براحلته فركبها، وتقدم نحو القوم، ونادى بصوت يسمعه جلّهم.

«أيها الناسَ إسْمَعُوْا قَولي، وَلاَ تَعْلَمُوا حَتَىٰ أَعظَكُمْ بِمَا هُوَ حَقٌ لَكُمْ عليّ، وَحَتَىٰ أَعْتَذِرَ مَقْدَمِي عَلَيَكُمْ، فأَن قَبلْتُمْ عُذْري، وَصَدّقتُهمْ قِوْلِي، وَأَعْطَيتُمونَي، النَصَفَ كُنتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ، وَلَمْ يكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبيلُ وإنْ لم تَقْبَلُوا مِنّي بَعُذْرٍ، وَلَمْ تَعْطَونِيَ النَصَفَ من أَنْفُسُكمْ، ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[2].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٢٢ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٨٧.
(٢) سورة يونس/ ٨١.
(٣) سورة الأعراف/ ١٩٦.

ثم حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على النبي وآله وعلى الملائكة والأنبياء، فذكر من ذلك ما لا يحصى ذكره، ولم يسمع متكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه[1].

ثم تقدم نحو القوم واعظاً، وأنذرهم مغبة أمرهم محذّراً، وزهدّهم بالدنيا، ورَغّبهم بالآخرة، وحذّرهم غضب الله وسخطه، وعرَّفهم بذرية رسول الله ﷺ التي أزمعوا على استئصالها، وأفصح عن إعراض الله عنهم، واستحوذ الشيطان عليهم، وإعتبرهم من القوم الظالمين، فقال:

«**الحمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ الدُنيا فَجَعَلَها دارَ فَناءٍ وَزَوالَ، مُتفرقَةٍ بأهلها حَالاً بَعْدَ حالٍ، فَالْمَغْرورُ مَنْ غَرَّتْهُ، والشَقيُّ من فَتَنَتْهُ، فَلاَ تَغُرَنَكُمْ هَذِهِ الدُنيا، فأَنَها تَقْطَعُ رَجاءَ مَنْ رَكَنَ إليها، وتُخيّبُ طَمَعَ مَنْ طَمعَ فِيها، وَأَراكُمْ قَدْ إجْتَمَعْتُمْ عَلَى أَمْراً سخطتم اللهَ عَلَيكُمْ، وَأَعَرضَ بِوَجِهِ الكريَم عَنْكُمْ، وأَحَلَّ بكُمْ نِقْمَتَهُ، وَجَنبَكُمْ رَحْمَتَهُ، فَنَعْمَ الربُّ رَبُنّا، وَبِئس العَبيدُ وأَحَلَّ بكُمْ نِقْمَتَهُ، وَجَنبَكُمْ رَحْمَتَهُ فَنَعْمَ الربُّ رَبُنّا، وَبئسَ العَبيدُ أنتمْ، أَقْرَرتَمْ بَالطَاعَةِ، وآمَنْتُمْ بالرَسُولِ مُحمَدَ ﷺ ثُمَّ إنّكُمْ زَحَفْتمْ إلى ذُرِيَتِهِ وَعَترَتِهِ تَريُدونَ قَتلَهُمْ، لَقَدْ استحْوَذَ عَلَيكُمْ الشيطانُ فَأَنْساكَمْ ذِكْرَ الله العظيم، فَتَبّاً لكُمْ وَلِما تريدوُن، هؤلاءِ، قَوْمٌ كَفَروُا بَعْدَ إيمانِهِمْ ﴿فَبُعْداً لِلقَوْمِ الظَالِمينَ﴾**[2].

فقال ابن سعد: ويلكم كلّموه فإنه ابنُ أبيه، والله لو وقف منكم هكذا يوماً جديداً ما إنقطع، ولما حُصِرَ، فتقدم شمر بن ذي الجوشن، وقال «يا حسين ما هذا الذي تقول؟ أفهمنا حتى نفهم» فقال الحسين عليه السلام:

(١) ظ ـ ابن الأثير/ الكامل التأريخ ٣/ ٢٨٧.
(٢) سورة المؤمنون/ ٤١.

«أَقَوْلُ: اتقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَلاَ تَقْتُلُوني فَإِنَّهُ لا يَحُلُّ لَكُمْ قَتْلي، وَلاَ انْتهاك حُرْمَتي، فإنّي ابنُ بنتِ نبيّكُمْ، وجَدّتي خَديجةُ زوَجَةُ نَبيّكُمْ، وَلَعَلَهُ قَد بَلَغَكُمْ قَوْلُ نَبيّكمُ ﷺ: الحَسَنُ والحَسَينُ سَيِّدا شباب أَهْلِ الجنة»[1].

والحسين في هذا الموقف أنذر الجيش الأموي من قتال ذرية رسول الله ﷺ والمفروض بعد الطاعة والإيمان، مراعاة حرمته في أهله، لا الزحف عليهم قتالاً وتمثيلاً، فإنه لا يحل لهم قتله ولا قتاله، ولا يجوز انتهاك حرمته، ثم عرفهم بنفسه فأوجز، فهو ابن بنت نبيهم، وجدته خديجة زوجة نبيهم، وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة على لسان نبيهم.

ويبدو أن هذا التذكير والدفع بالتي هي أحسن، لم يجدِ أسماعاً واعيةً، فلم يجد نفعاً، ولم يحظَ بطائل، فَعَدل إلى اسلوبِ آخر في التوسع بتعريف ذاته، مبالغةً في العرف، وصيانة للنفس المحترمة من القتل، فسلك مسلكاً بلاغياً جديداً فيه تبيان بعض الخصائص عن نسبه، ومنزلته، وسابقة أهل بيته، مستشهداً على ذلك بمساءلة بقية الصحابة المتواجدين بأعيانهم، فقال:

«أمّا بَعْدُ، فانْسبوني وانظروا مَنْ أنا، ثُمَّ ارجعُوا إلى أنْفُسكُمْ فَعَاتبُوها، وانظُرُوا هَلْ يِحلُّ لَكُمْ قتلي وانْتهاكُ حرمتي؟؟؟».

أَلَسْتُ ابْنَ بنتِ نَبيّكُمْ، وابنَ وصيّهِ، وابنَ عَمّهِ، وأول المؤمنِينَ به، والمُصَدّقَ بما جاءَ مِنْ عِندِ رَبّه؟

أوَلَيس حَمْزَةُ سيدُ الشهداءِ عمَّ أبي؟

---

(١) ظ ـ الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٥٦.

أوَلَيسَ جَعفرُ الشهيدُ الطَّيّارُ في الجنةِ عَمّي؟

أو لم يبْلُغْكُمْ قَوْلُ رسول الله ﷺ لي ولأخي:

«هَذانِ سيدا شَبابِ أهَلْ الجنة».

فإن صَدّقْتُمُوني فيما أقولُ فهوَ الحَقُّ، فَوَالله ما تَعَمَدتُ كَذِباً مُنْذُ عَلْمتُ أنَّ الله يَمْقتُ عَلَيه أهْلَهُ، ويضّرُ بِهِ مَنْ اخْتَلَقَهُ. وَإنْ كذَّبتموني، فإنَّ فيكم مَنْ إن سَألْتُمُوهُ عَنْ ذلَكَ أخبركم سَلُوا جابر بن عبد الله الأنْصَاري، وأبا سعيد الخدْري، وسَهلِ بنَ سَعْد الساعدي، وزيدُ بن أرقم، وأنسَ بن مالك، يُخْبُروكُمْ أنَّهمْ سَمعُوا هَذه المقالة مِنْ رسولِ الله لي وَلأخي، أمَا في هذا حاجز لكُمْ عَنْ سَفْك دَمَي؟»[1].

وكان على العقول النابهة أن تتحرر من ربقة العبودية الفكرية، وعلى الضمائر أن تتنبه من الغفلة بعد هذا البيان الجزل الوافي، وكان على الجيش المقاتل أن يعي حقيقة ما أقدم عليه، فهو لمن يقاتل وينازل؟ فإن نظر إليه باعتباره فكراً فهو جزء لا يتجزأ من الرسالة، وإن نظر إليه نسباً فهو قطعة من رسول الله ﷺ مؤسس الإسلام، وإن نظر إليه نسباً وسبباً فهو بضعة من حمزة وجعفر وعلي شهداء الإسلام.

إن العرض الفريد الذي قدمه الحسين بين يدي احتجاجه كان كافياً لإلقاء الحجة، وإبلاغ النداء، إلا أن ما حدث كان بخلاف ما طرحه الحسين عليه السلام فقد لجّ الجيش الأموي في العتّو والعناد، وأوغل في مجاهل التنكر والضلال، وتجاهل هذه الحقائق في تقاطرها وتسلسلها؛ فقال شمر، هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال حبيب بن مظاهر الأسدي: والله إني لأراك تعبد الله على

---

(١) ظ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٤٩٥.

سبعين حرفاً، وأشهد أنك صادق لا تدري ما تقول، قد طبع الله على قلبك.

وواصل الإمام الحسين عليه السلام احتجاجه الصارخ بقوله:

«فَإِن كُنتُمْ في شكٍ مِنْ ذلِكَ أَفَتشُكّونَ أنّي ابنُ بنتِ نَبيّكُمْ؟ فَوَالله ما بَينَ المَشْرقِ والمَغربِ ابنُ بنتِ نَبيٍّ غيري فِيكُمْ وَلاَ في غيركُمْ، أنَا ابن بِنتِ نَبيّكم خاصةً، وَيْحَكُم!!؟ أفتطْلبوني بقتيل مِنكُمْ قَتَلْتُهُ، أوْ مالٍ لكُم اسْتهلَكْتُهُ، أو بقصاصٍ مِنْ جراحةٍ؟

فأخذوا لا يكلمونه. فنادى:

«يا شَبثُ بن ربعي، ويا حجارُ بنَ أبجر، ويا قيسُ بن الأشعث، ويا يزيدُ بنَ الحارث: أَلَمْ تكْتُبُوا لي أنْ قدْ أيَنَعْتِ الثمارُ، واخضرَّ الجنابُ، وإنّما تَقْدمُ عَلَى جُند لَكَ مُجنَدّ فقال له قيسُ بن الأشعث: ما ندري ما تقولُ؟ وَلَكنّ انزلْ عَلَى حُكْم بني عَمّك، فإنَّهُمْ لَنْ يُروك إلاّ ما تحبُّ.

فقال الحسين: **«لا والله لا أعطيكُمْ بيديَ إعطاءَ الذليل، ولا أُقرّ إقرارَ العَبيد»**[1].

ثم نادى الحسين عبادَ الله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾[2].

﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[3].

ثم أناخ الحسين راحلته، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها»[4].

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٢٥ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٨.
(٢) سورة الدخان/ ٢٠.
(٣) سورة غافر/ ٢٧.
(٤) ظ ـ الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢١٨.

وكان الانحراف والعزوف عن استماع الحق قد بلغ ذروته لدى الجيش الأموي المحارب، فما أفاد من هذا النصح شيئاً، ولا كبح من جماح هيجانه الضالّ، ولا وقف عند حدّ متوازن، فأقبل زحفه يرقل نحو مخيمّ الحسين عليه السلام وفيه ثقل النبوة ومستقّر الرحمة، وبقية الله في الأرض، وكان فيهم جلفٌ جافٍ يدعىٰ عبد الله بن حوزة التميمي، فصاح: أفيكم حسينٌ؟ فلم يجبه أحد، فأعاد القول ثانياً وثالثاً، فقال له بعض أصحاب الحسين: هذا الحسين فما تريد منه؟

فقال: يا حسين ابشر بالنار.

فقال الحسين عليه السلام كَذَبْتَ بَلْ أقْدمُ عَلَى رَبٍّ غَفُور، كَريمٍ، مُطاعٍ، شفيعٍ، فَمَنْ أنْتَ؟ قال: أنا ابن حَوزة.

فرفع الحسين يديه نحو السماء حتى بان بياض إبطيهما، وقال: اللّهم حُزْهُ إلى النار.

فغضب ابن حوزة، وأقحم فرسه في نهر بينهما، فتعلق قدمه بالركاب، وجالت به الفرس فسقط عنها، فانقطعت ساقه وفخذه، وبقي جانبه الآخر معلقاً بالركاب، يضرب به الفرس كل حجر وشجر، وألقته في النار المشتعلة في الخندق، فاحترق بها حتى مات[١].

وكان لاستجابة دعاء الحسين الفورية، دلالة على المظلومية من جهة، فالله عزّ وجلّ إنما يستجيب للمظلوم، وحافزٌ على تحرك الحسب الباطني لدى بعض مقاتلي الجيش الأموي، فبين ملتحق بالحسين، وبين منصرف عن القتال، وبين من عاد متردداً بين هؤلاء وهؤلاء.

وللمؤرخين في هذا المجال شذرات تدوينية فيها من العظة

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٣١.

والعبرة الشيءُ الكثير، بحيث أفاد منها بعضهم درساً في الانتهاء والارتداع، مما يشكل ظاهرة الاهتزاز غير المستقرة في مشاعر القوم وأحاسيسهم، حتى إذا حانت الفرصة الحاكمة دون محيص، عادوا إلى العمق النفسي ليصدهم عن الإيغال في متاهة الانزلاق والتردي، وأكتفي هنا بإيراد نموذج واحد في دلالته:

قال مسروق بن وائل الحضرمي ـ وكان قد خرج مع ابن سعد لقتال الحسين عليه السلام ـ قال: خرجت لعلي أصيب رأس الحسين، فأصيب به منزلة عند ابن زياد؛ هكذا كان وكدُهُ، فلما رأى ما صنع الله بابن حوزة بدعاء الحسين رجع وقال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً، لا أقاتلهم أبداً[1].

ج ـ أصحاب الحسين يناشدون الجيش الأموي:

ولئن أعذر الإمام الحسين عليه السلام في خطبه البليغة في الجيش الأموي، ووضع كلاً أمام مسؤوليته، ونصح فيما بينه وبين الله لذلك الجمع المقاتل، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقد أعذر أصحابه بما قدّموه من النصح الكريم والتوجيه الرائد، وإني مختار لك ثلاثة نماذج هي في الذروة من المناشدة والاحتجاج.

١ ـ خرج زهير بن القين إلى القوم، وهو على فرس ذنوب، شاك السلاح، وخطب فيهم قائلاً:

«يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم ونحن ـ حتى الآن ـ أخوة وعلى دين واحد وملة

---

(١) ظ ـ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٩١ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٩.

واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهلُ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أمةً وكنتم أمةً.

إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلاّ بسوء سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال: حجر بن عدي وأصحابه، وهانىء بن عروة وأشباهه.

فسبّوه، وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: لن نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً.

فقال لهم: عباد الله إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخّلوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية، فلعمري إنه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين».

فرماه شمر بسهم، وقال: أسكت، أسكت الله نامتك. فلقد أبرمتنا بكثرة كلامك، فقال له زهير: يا ابن البوّال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال له زهير: أفبالموت تخوفني؟ فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم.

ثم أقبل زهير على القوم رافعاً صوته:

«عباد الله، لا يغرنكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فلا تنال شفاعة محمد قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم، وذبَّ عن حريمهم».

فناداه رجل من أصحاب الحسن، وقال له:

«إن أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه، وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ»[1].

ولدى تحليل هذا الخطاب الجزل، تجد زهيراً في الطليعة المؤمنة التي فقهت أبعاد قضية الحسين، وتفاعلت معها واستوعبت مفاهيمها، فاندفع بإخلاص منقطع النظير، يحذر القوم تحذير ناصح شفيق، وينذرهم من عذاب الله العظيم، ويدعوهم إلى النصف والقصد، فهم على دين واحد ما لم يقع بينهم السيف، فإذا وقع انفرط العقد، وتفرقت الوحدة، وتشتت الجمع، وعاد كل منهما أمة تقابل الأخرى، لا يربطهما وثاق ولا سبب.

وأبدىٰ زهير في خطابه: أن الله عز وجلّ قد امتحن المسلمين بذرية نبيه محمد ﷺ ليزن الأعمال، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء. وهذا عرض يسير لا يتعسر فهمه على أحد، وهو وحده كافٍ للاحتجاج بأن يكونوا في موقع الإحسان لآل محمد، والائتمار بأمرهم، لا الاجتماع على قتالهم.

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٢٧ ـ ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣/ ٢٨٨ ـ أحمد زكي صفوت/ جمهرة خطب العرب ٢/ ٤٨.

ثم دعاهم إلى نصرة الحسين وخذلان الطاغية مبرراً ذلك بما علموه وشاهدوه من مظالم النظام والطاغية: سمل العيون، وقطع الأيدي والأرجل، والقتل، والمثلة بعد القتل، والصلب على جذوع النخل، واستئصال الأماثل والقرّاء.

وأوضح زهير في خطابه بديهيةً لا يختلف فيها اثنان، أن نصرة أبناء فاطمة وذرية الرسول الأعظم ﷺ أولى من نصرة ابن سمية وذرية الطلقاء. فإن لم يستجيبوا لنصرتهم فهو يعيذهم من قتلهم، ثم ليدعو الحسين على رسله، فطاغيتهم قد يرضى من طاعتهم بما هو دون القتل - إن قال هذا -.

فكان جواب القوم له: أن رماه شمر بالسهم، ثم أشعره بالقتل، وخوفه بالموت، فردّه أن الموت مع الحسين أحب له من الخلود مع الأمويين.

ولم يقف زهير عند هذا النكير، بل أضاف إليه أن شفاعة محمد ﷺ لا تنال قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته.

ولما تحيّر النصح فما أجدى، وتداعى الوعظ فما أثمر، اعتبره الحسين كمؤمن آل فرعون في النصح والدعاء لو نفع النصح والإبلاغ، وأمره بالرجوع والعودة.

٢ - ويبدو أن أصحاب الحسين عليه السلام من خلال موقعهم في الريادة والتخطيط الرسالي كانوا يؤمنون حقاً بالتسامح الأخلاقي، والحوار النزيه حد الإعذار، كما يؤمنون بالثورة والتغيير الاجتماعي، فكلاهما هدف يُعمل من أجله، لهذا نجدهم يسلكون سبيل النقد الموضوعي للإجراءات التعسفية حيناً، وقد يسلكون سبيل التحذير من

غضب الله تعالى حيناً آخر.

لقد تقدم للإمام الحسين عليه السلام شيخ من شيوخ القرّاء في الكوفة، عرف بين القوم بحسن السيرة ونقاء الضمير، وهو برير بن خضير الهمداني، واستأذن الحسين أن يكلّم القوم، ويعذر إليهم فيما بينه وبين الله، ناصحاً محذراً وداعياً، فأذِن له الحسين عليه السلام فنادى بإزاء القوم:

«يا معشر الناس، إن الله بعث محمداً بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً. وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابه، وقد حيل بينه وبين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أفجزاء محمد هذا؟

فقالوا: يا برير: أكثرت الكلام، فوالله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله. فقال: يا قوم، اتقوا الله، إن ثقل محمد قد أصبح بين أظهركم، وهؤلاء ذريته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم، وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم.

فقالوا: نريد أن نمكّن منهم الأمير عبيد الله بن زياد، فيرى فيهم رأيه.

قال: أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه، ويلكم يا أهل الكوفة، أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها من أنفسكم، وأشهدتم الله عليها؟ وكفى بالله شهيداً.

ويلكم أدعوتم أهل بيت نبيكم وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم؟ حتى إذا أتوكم أسلمتوهم إلى ابن زياد، وحلأتموهم عن ماء الفرات الجاري الذي يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس، وترده الكلاب والخنازير، بئسما خلفتم محمداً في ذريته، ما لكم لا سقاكم

الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم.

فقال نفر منهم: يا هذا ما ندري ما تقول.

فقال: الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة. اللهم: إني أبرء إليك من فعال هؤلاء القوم. اللهم ألق بأسهم بينهم حتى يلقوك وأنت عليه غضبان فجعل القوم يرمونه بالسهام، فتقهقر[1].

إن هذا الموقف المحاجج السليم ما كان ليذهب تأثيره سدى كما يبدو لأول مرة، بل وضع الجيش المقاتل في حيرة من أمره، فهو يعلم صحة ماورد بفقراته، وهو يدري بواقع ما أثاره برير من تساؤلات، وهو قد ركب رأسه بالغرور، فلا يقدر أن يرّده ببديهية ما تحدث به، ولا يستطيع أن يتجاوز التقوقع على الذات فيصيخ إلى ما انتدب إليه، فما كان منه إلا أن يكابر ويناور، فهو يتذرع بعدم الدراية حيناً، وهو يلوحّ بالقتل حيناً آخر، وليس في ذلك شيء من صواب، ولا حقيقة في جواب.

٣ ـ وكان من أبرز خطباء ذلك اليوم، الفارس البطل حنظلة بن أسعد الشبامي، فقد أعذر في الخطاب، جاعلاً من النصّ القرآني ميداناً لحديثه. فقد اكتفى فيه منذراً، وقد تمثل به منظّراً، حتى استحق شكر الحسين عليه السلام وفاز بثنائه العاطر، فقد برز بين يدي الإمام الحسين عليه السلام ونادى.

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٥.

ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1].

يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب، وقد خاب من افترى.

فجزاهُ الحسين خيراً، وقال له رحمك الله ـ يا ابن أسعد ـ إنهم قد استوجبوا العذاب حتى ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن، وقد قتلوا أصحابك الصالحين»[2].

وهكذا نجد أصحاب الحسين أوفياء لمبادئهم، أشدّاء على أعدائهم، أُمناء على حمل رسالتهم حتى أغدروا في الخطاب، بينما نجد الإمام الحسين عليه السلام قد جاوز حدّ الإعذار إلى الإنذار بل إلى الإنكار كما سترى.

---

(١) سورة غافر/ ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٢٤ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٦ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ الهامش/ ٥٦٠ وأنظر مصادره.

الفكر الثوري يخترق صفوف النظام

أ ـ الحسين يستوعب سبل الاحتجاج:

وأراد الإمام الحسين عليه السلام أن يستوعب بفكره الثائر سبل الاحتجاج كافة، وأن يضع بصماته في مسيرة الهداية الإنسانية، فلا ينهض عدوّه بعذر ما، وعسى أن يهدي الله به أحداً، وعسى أن يرتّد نفر من القوم فيقلعوا عن الوزر العظيم.

هذه الإرادة الصلبة بشتى معالمها الإصلاحية إنما تنبع من صميم المسوّغات الإسلامية لثورته لدى رفض ما يطرح من أفكار.

تحدث الإمام الحسين عليه السلام إلى الجيش الأموي حديث الموجّه الثائر، وتحاور معه بلغة المنطق المعاصر للأحداث، فهو لا يريد التغرير به في متاهات موحشة كما يفعل النظام، وهو ينبّه إلى أوزار بني أمية وأعوانهم في نهب الفيء، وسفك الدماء، وكيت الحريّات، وقتل الأولياء، وتحريف الكتاب، وإطفاء السنن، ونبذ القرآن، وإثارة العصبية، وإعادة الجاهلية.

هذه المفردات الضخمة التي وسم النظام بها حياته السياسية الفجّة، جديرة بأن تستدعي انتباه تلك الجموع المضللة، لقد جهد الحسين عليه السلام أن يوقف الجميع على تلك الثغرات الطولى في كيان الحكم والأمة.

وها هو الإمام الحسين عليه السلام يستقبل هذا الجيش التائه، وتلك الجماعة الضالة بأروع خطاب في تأريخ الحرب دقةً ودلالة وبياناً، فهو يضع النقاط على الحروف كما يقال، وهو ينعي تلك المظالم الهائلة التي يقترفها النظام، وهم عاكفون على تأييده، متناوبون على خدماته، إسراعاً في التداعي المتدهور، وابتغاءً للفتنة العمياء، فحذّر وأنذرّ وأخطر، بما تقصر عنه الأساليب البلاغية في ساحات القتال، حيث يتمتم البليغ، ويصمت المفوّه، وتستسلم العارضة البيانية، ولكنه الحسين ابن أبيه، يفرغ عن منطقه، ويتحدث بعملاق بيانه الهادر.

لقد حاول الحسين جاهداً إنصات القوم له وهو يريد الخطاب، فأبوا أن ينصتوا له، فاخترق صفوفهم بفكره الثوري صارخاً: ـ

«وَيَلَكُمَ ما عَلَيكُمْ أن تَنصتُوا لي فَتَسْمَعُوا قوْلي، وإنَّما أدعُوكُمْ إلى سَبيل الرَشَاد، فَمَنْ أطَاعَني كانَ من المُرْشَديَن، وَمَنْ عَصاني كانَ مِنَ المُهْلكَينَ، وَكّلكُمَ عَاصٍ لأمْري غير مُسْتَمع قولي، فَقَدْ مُلئَتْ بُطُونُكُمْ مِنَ الحَرامِ، وَطُبعَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، وِيْلَكُمْ ألا تنصتونَ؟ ألا تَسْمَعُونَ».

وفي هذا التقريع ما فيه من زلزلة الضمائر، وتأنيب العواطف، وردع التطاول، فتلاوم أصحاب عمر بن سعد فيما بينهم، وانقسم الجيش المقاتل على نفسه، وكثر اللغط، وعلا الضجيج، فقالوا: أنصتوا له.

فحمد الحسين عليه السلام الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأبلغ في المقال. وقال:

«تَباً لَكُمْ أيتّها الجَماعَة وَتَرَحاً، أَحينَ استصرَختُموُنا والهين؟

فَأصْرَخْناكُمْ مُوجفينَ، سللْتُمْ عَليْنَا سَيفاً لنا في أيمانكُمْ، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها علىٰ عدونا وعدوكم فأَصْبَحْتُمْ إلباً لأعدائكُمْ عَلَى أُوليائكمْ بغير عَدْل أفشوُهُ فيكُمْ، وَلاَ أَمَلٌ لكمْ فيهمْ، إلاّ الحرام من الدُنيَا أنالوكم، وخَسيسَ عَيش طمعتَمْ فيه، مِنْ غَير حَدَثٍ كَانَ مِنّا، وَلاَ رَأي تَفَيّلَ لنَا».

فَهَلاّ لكُمَ الوَيلاَتُ إذْ كَرهتُمونَا، تَرَكتُمُونا والسيف مَشيُم، والجأش طامنٌ، والرأي لَماً يُستحصَفْ، وَلَكِن أسْرعْتُمْ إلَيها كَطَيرةِ الدبَى، وتَداعَيْتُمْ إليَها كَتداعي الفراش، فسحْقاً لَكُمْ يا عَبيدَ الأُمّةِ، وَشذّاذ الأحْزابِ، وَنبَذَةَ الكتاب، وَمُحَرّفي الكَلمِ، وَنفثة الشَيطان، وَعُصْبةَ الآثام، ومَطْفىء السُنَنِ، وَقتَلةَ أوْلادِ الأنْبياءِ، وَمُبيدِي عترةِ الأوْصياءِ، وَمُلحِقِي بالنَسبِ، ومُؤذي المؤمنينَ، وَصراخ أئمة المُستَهزئِينَ، ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[1] ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[2].

وَأَنتمْ ابن حَربٍ وأشياعَهُ تعْضدُونَ، وَعَنّا تخاذَلوُنَ.

أَجَلّ ـ والله ـ غَذرُ فيكُمْ قديمٌ، وشَجتْ عَلَيهِ أصُولكُم، وَتَأزَرَتْ عَلَيه فرُوُعُكُمْ، وثبتت عليه قُلوُبُكُمْ، وَغشِيتْ صَدرُوُكُمُ، فَكنتُمْ أَخبث ثمرَ، شَجَىً للناظرِ، وأكلَةً للغاصب، ألا لعْنةُ الله على الناكثينَ، الذينَ يَنقُضُونَ الأيمانَ بَعْد توكيدها، وَقدْ جعَلتُمْ الله عَلَيكُمْ كَفيلاً، فأنتم ـ والله ـ هُمْ.

إلاَ إنَّ الدَعَّي وابن الدَعيٍّ قدْ رَكَزَ بَيْنَ اثنتينِ بَيْنَ السَلّةِ والذلّةِ، وهَيهاتْ مِنّا الذِلّةُ، يأبى اللهُ لَنا ذَلَك ورَسُولُهُ والمؤْمنونَ، وَجدودُ

---

(١) سورة الحجر/ ٩١.

(٢) سورة المائدة/ ٨٠.

طابَتْ، وحجُورُ طَهرَتْ، وأَنوفُ حَميّةٌ، وَنفُوسُ أَبيّةٌ، مِنْ أنْ تؤثر طَاعَة اللئام عَلَى مَصارع الكرام.

إلا وَقَدْ اعذرتُ وأنذرْتُ ألاَ وإنِّي زاحفٌ بهذهِ الأسرةِ، ثم وصل كلامه بأبيات فروة بن مسيك المرادي، متمثلاً:

فـإن نهـزمْ فهـزامَـونَ قـدْمـاً	وإن نُغلَـبْ فَغَيْـرُ مُغَلَبينَـا
ومَـا إنْ طبّنـا جُبْـنٌ، وَلَكـنْ	مَنَـايَـانَـا، وَدَوْلَـةُ آخَـرينَـا
إذا مـا المُـوتُ رَفَـعَ عَـنْ أُنـاس	كَـلا كلَـهُ، أنُـاخَ بـآخـرينـا
فـأفْنَـى ذلكُـمْ سَرَواتِ قَـومـي	كَمـا أفنَـى القُـرُونَ الغَـابـرينـا
فَلَـوْ خَلُـدَ الملوكُ إذَنْ خلُـدْنـا	وَلَـوْ بَقـيَ الكـرامُ إذَنْ بَقينَـا
فَقُـلّ للشـامِتِيـنَ بِنَـا أَفيقُـوا	سَيَلْقَـى الشـامتـونَ كَمَـا لَقينـا

ثم قال عليه السلام أمَا والله لا يَلبَثُونَ بعدَها الا كريث ما يُركبُ الفرسُ، حيثُ نذورُ بكمْ دورَ الرَحىٰ وَتَقلَقُ بكم قلقَ المِحورُ، عهدٌ عهده الرَّ أبي عن جدي: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1].

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

اللّهُمَ احْبِسْ عَنهُمْ قَطْرَ السَماءِ، وابْعَثْ عَلَيهمْ سنين كَسِنِىّ يُوسُفَ، وَسَلّطْ عَلَيهمْ غُلامَ تقيف يَسقَيهُمْ كأساً مُصبَّرَةً، وَلا يَدع فِيهم أحداً إلاّ قَتَلَهُ قَتلَةً بقَتْله، وَضرْبَهً بضَربةٍ، يَنْتَقمُ لي وَلأوْليائي وأَهْل بَيْتي

(١) سورة يونس/ ٨١.
(٢) سورة هود/ ٥٦.

وأَشيَاعي، فإنَّهُمْ وكذَّبُونا وخَذَلونا، وأنت رَبُنا عَلَيكَ تَوَكَلناَ، وإليكَ انَبنا، وَإلَيكَ المصيرُ»[1].

وكان الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الخطبة متأثراً غاية التأثر مما نزل به من الخذلان، ومما اصطدم به من الأحلام الطائشة، ومما شاهد من تقلّب الآراء في السياسة والخلق والاجتماع، كما نجده متبرماً من ظاهرة الغدر الفاضح الذي انتهجه أولئك الذين كتبوا له بالنصرة والفداء، وهو في هذه الخطبة يحاول أن يضع ذاك المجتمع الهزيل أمام هفواته ونزعاته، وهو يريد أن يفجّر في داخله الشعور بالإثم الفادح، فهؤلاء الذين استغاثوا به مستصرخين إلى تحريرهم من القيود والأغلال والعبودية، يعودون إلباً عليه لأعدائه، وحزباً لقاتليه على منقذيه ومحرريه، وكان في ضوء هذا معنياً بالحديث عن خصائصهم النفسية في الغدر، وجبلتّهم الذاتية، في الإخلاف، فكانوا أخبثَ ثمرٍ، وإذا كانوا كذلك فهّلا تركوه ومن معه، والأمور اعتيادية في مجراها الطبيعي ولكنهم تسارعوا إلى الفتن مسارعة الفراش إلى النار، ووصفهم بما يستحقون من سمات بارزة العلائم في المنحى والسلوك والافتراء فاعتبرهم عبيد الأمة لأن ما عملوه لا يقدم عليه الأحرار، وعدّهم من بقايا الأحزاب الذين تحزبوا على رسوَل الله، ورآهم وقد تركوا الكتاب خلف ظهورهم، محرفين للكلم عن مواضعه، نفث فيهم الشيطان سمومه حتى عادوا عصبة الآثام المشينة، ومطفىء سنن النبوة، وقتلة أولاد الأنبياء والأئمة الأوصياء، في الوقت الذي يلحقون العهار بالنسب كما في استلحاق زياد، ويؤذون المؤمنين، ويعضدون آل أبي سفيان

---

(١) ظ ـ ابن عساكر/ تأريخ دمشق ٣/ ٢٧٤ وما بعدها ـ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ١٠٨ ـ الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٥٨.

على حزب الله الأتقياء.

وفي ظل هذا الكشف الصريح لغلول ذلك النظام من جيشه المخاتل وولاته الظلمة، أعلن الحسين من موقع القوة والصلابة تصميمه على النضال الدموي بذلك العدد الضئيل، فهو يختار التضحية على الذلّ، والموت على الحياة، والأيام دول، ثم أنبأهم بمصيرهم الأسود القادم وشيكاً، فتدور بهم دور الرحىٰ، وتقلق بهم قلق المحور، ثم دعا عليهم بسنين كسني يوسف في القحط والشدة والبلاء، وتسليط غلام ثقيف عليهم يقتصّ منه ما ارتكبوه حذو القذّة بالقذّة، ويبدو أنه عليه السلام يشير إلى المختار بن أبي عبيدة الثقفي، فقد قتل قتلته، وانتقم لأوليائه.

ولم ينس الحسين في هذه اللحظات الحرجة عرض ظلامته على الله تعالى، والاتكال عليه، والإنابة إليه، والاستعانة به على من غرّه وكذبه وخذله، والمصير إلى الله.

ب ـ الحرّ يزدلف إلى معسكر الحسين:

كانت هذه الخطبة ذات أهمية خاصة في نتائجها الإيجابية، فإذا انضمت إلى بقية خطب الحسين الهادرة يوم الطف كانت النتائج أكثر عمقاً وفاعلية، فلقد بدا تأثيرها العظيم ذا كسب مضاعف في طائفة من الجيش الذي خرج لقتال الحسين، وقد انتشرت أنباؤها في المعركة انتشار النار في الهشيم، فبدأ جملة من المقاتلين زعماءَ وأفراداً يعيدون النظر ويرجعونه في موقفهم المشين من الحسين عليه السلام ويترددون في البقاء ضمن فصائل ابن سعد المقاتلة، فقد أبلغ الحسين كل الإبلاغ، فما ترك عذراً لأحد، فاستيقظت كوكبة صالحة من رقادها العميق، واستفاقت طائفة واعية من الإغفاء، فاندفعت تزيح ستار الزيف والدجل

عن واقعها المتخلّف بعد أن هزهّم الحسين عليه السلام من الأعماق، فانصاع هؤلاء وهؤلاء متلهفين إلى العودة حالمين، تائبين إلى الحسين مما صدر منهم وبدر عنهم.

كان في طليعة أولئك الزعيم العقائدي الحرّ بن يزيد الرياحي، ذلك الذي جعجع بالحسين في الطريق من ذي قبل في ألفٍ من رجاله، لكن العناية الإلهية تداركته نتيجة اختياره السليم وقراره الحاسم، فاستقبل التوبة، وتعجّل التكفير عن الذنب العظيم، وأسرّ أمراً في قلبه، وأستأنف العمل من جديد، فأقبل على ابن سعد قائلاً:

أمقاتل أنت هذا الرجل؟ يعني الإمام الحسين عليه السلام.

قال ابن سعد: إي والله، قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي. قال الحرّ: أما لكم في واحدة من الخصال التي عرضها عليكم رضا؟

قال ابن سعد: لو كان الأمر إليّ لفعلت، ولكنّ أميرك قد أبى ذلك فتركه الحرّ، وأقبل حتى وقف مع الناس، وكأن شيئاً لم يكن، والحق أن كل شيء قد كان في هذه اللحظات الصعبة، وكان إلى جنبه قرةّ بن قيس فقال له: يا قرّة، هل سقيت فرسك، اليوم؟ قال: لا. فقال الحرّ: أما تريد أن تسقيه؟

قال قرّة: فظننت ـ والله ـ أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال، ويكره أن أراه حين يصنع ذلك، مخافة أن أرفعه عليه.

فقلت له: لم أسقه، وأنا منطلق فأسقيه، فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه، فوالله لو أنه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين.

وبعد أن ترك الحرّ قرّةً، أخذ يدنو من معسكر الحسين عليه السلام قليلاً قليلاً.

فقال له المهاجر بن أوس: أتريد أن تحمل يا أبا يزيد؟

فسكت الحرّ، وآخذه مثل الأفكلّ، وهي رعدة وهزة تعتري الجسم عند شدة الحمىّ، فقال له المهاجر: والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل ما أراه الآن، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتك. فما هذا الذي أرى منك؟

قال الحر: إني - والله - أخير نفسي بين الجنة والنار، ولا أختار على الجنة شيئاً، ولو أحرقتُ وقطعُت.

ثم ضرب الحرّ جواده، وأقبل نحو الحسين عليه السلام واضعاً يده على رأسه، وقد قلب درقته، مُنكّساً رمحه كهيئة المستأمن:

وإذا حلّت الهدايةُ قلباً   نَشَطَتْ للعبادةِ الأعضاءُ

هذا والحرّ قد طأطأ برأسه حياءً من آل رسول الله بما أتى إليهم، ورفع صوته قائلاً:

«اللهم إليك أنيب فتبْ عليَّ، فقد أرعبتُ قلوب أوليائك، وأولاد بنت نبيّك»[1].

ثم جاء على عجل وسلّم على الحسين عليه السلام وقال له:

«جعلني الله فداك - يا ابن رسول الله - أنا صاحبك الذي حبسك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، ووالله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردّون عليك ما عرضت

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٣.

عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، والله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى، ما ركبت مثل الذي ركبت، فإني تائبَ إلى الله مما صنعت، أفترى لي من ذلك توبة، فقال الحسين: نعم يتوب الله عليك، فانزل. قال الحر: فأنا لك فارساً خيرٌ منّي راجلاً، أقاتلهم لك على فرسي وإلى النزول ما يصير آخر أمري.

فقال له الحسين عليه السلام فاصنع يرحمك الله ما بدا لك[1].

قال الرواة: فاستقدم الحرّ أمام الحسين عليه السلام واتجه نحو القوم خطيباً:

يا أهل الكوفة لأمكُمْ الهَبَل والعَبَرُ، إذ دَعوتُم هذا العبدَ الصالحَ حتى إذا أتاكُمْ أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، ومنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة، حتىٰ يأمن هو وأهل بيته، فأصبح كالأسير في أيديكم، لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرّاً، وحلئتموه ونساءه وصبيته وأصحابه من ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهود والنصارى والمجوس، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابها. وها هم قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمداً في ذريته، لأسقاكم الله يوم الظمأ، إن لم تتوبوا وتنزعوا عمّا أنتم عليه من يومكم هذا وساعتكم هذه».

فحملت عليه الرجّالة ترميه بالنبل، فتقهقر حتى وقف أمام الحسين[2].

---

(١) الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٢٨ ـ ابن الأثير/ الكامل٣/ ٢٨٨.

(٢) البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ١٨٨ ـ المفيد/ الإرشاد/ ٢٢٠.

وكانت صرخة الحرّ المدوّية هذه قد أضافت إلى القضية الكبرى زخماً ثورياً جديداً، غيّر موازين القوى المقاتلة في الجيش الأموي، فتجرأ الكثيرون على استبدال المواقف بأخرى صلبة، وتشجع آخرون على التمرد الفوري، وتساءل هذا وذاك عن الأسباب والدواعي، وتحدث نفر منهم عن الهزّة التي دفعت بالحرّ إلى هذا الموقف الحرّ.

فالتحق بمعسكر الحسين جملة منهم تاركين وراءهم الأوامر في قتال الحسين، وانضموا إليه في لحظة زمنية باهرة، يكفّرون فيها عن الماضي السحيق، ويستقبلون حياة الثورة الخالدة بما لا عهد لهم به من ذي قبل.

ج ـ طلائع العائدين إلى ركب الحسين:

وتمكنت الهداية في بعض النفوس بعد الضلال، وترامت مواكب العودة إلى ركب الحسين بالانابة، فتلّقاهم أصحاب الحسين بالأحضان، وتقبّلهم الحسين بالعفو، فكان ائتلاف المختلفين، فبينا هم في طليعة أهل الغيّ والعمى، وإذا بهم في ركاب الوعي الشامل والمحجة البيضاء، لقد كان قرار هؤلاء حاسماً في أحرج اللحظات، والمرء يخيّر نفسه بين الحق والباطل، فإذا عرفت العيون والرصد على الجيش المقاتل، عرفت مدى هذه المغامرة الصائبة في النجاح.

لقد ألمعنا فيما مضى لكثير ممن التحق بركب الحسين فيمن كان بعداد الجيش الأموي، وبالإضافة إلى ذلك فبالإمكان إلقاء الضوء في الإشارة إلى كوكبة جديدة من هؤلاء العائدين على سبيل النموذج لا الحصر.

١ ـ كان الحلاس بن عمرو الراسبي هو وأخوه النعمان بن عمرو مع ابن سعد في المعسكر الأموي، وتحوّلا إلى معسكر الحسين، وكانا في الشهداء.

٢ ـ وكان الحارث بن امرىء القيس الكندي مع عمر بن سعد في رجاله، فلمّا ردّوا على الحسين كلامه، مال معه، وقاتل بين يديه حتى قتل في الحملة الأولى.

٣ ـ وكان ضرغامة بن مالك ممن بايع مسلماً للحسين عليه السلام فلما خذل مسلم وقتل، خرج ضرغامة من الكوفة مع ابن سعد، والتحق بركب الحسين عليه السلام وقُتل معه مبارزة بعد صلاة الظهر.

٤ ـ وكان عبد الله بن بشر بن ربيعة الأنماري ممن خرج من الكوفة مع عسكر ابن سعد، ثم صار إلى الحسين عليه السلام، وقاتل بين يديه حتى قُتل في الحملة الأولى، قبل الظهر من يوم العاشر.

٥ ـ وكان عمر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة الضبعي التميمي، قد خرج مع ابن سعد، ثم ازدلف إلى الحسين عليه السلام وكان فارساً مقدماً مجرّباً في الحروب، وقاتل بين يدي الحسين حتى استشهد في الحملة الأولى.

٦ ـ وكان عمرو بن عبد الله الهمداني الجندعي، أوّل من ازدلف إلى الحسين من معسكر ابن سعد، وقاتل مع الحسين حتى صرع، وبقي مريضاً من أثر إصاباته ومات بعد سنة، وقيل: استشهد في الحملة الأولى.

٧ ـ وكان القاسم بن حبيب بن أبي بشر الأزدي قد خرج مع ابن

سعد، ثم مال إلى الحسين، وقاتل بين يديه حتى استشهد في الحملة الأولى.

٨ ـ ومسعود بن الحجاج التميمي وابنه عبد الرحمن، كانا مع ابن سعد في معسكره، فازدلفا إلى الحسين، وقتلا بين يديه في الحملة الأولى.

٩ ـ وكان أبو الشعثاء الكندي، واسمه: يزيد بن زياد بن المهاصر، ممن خرج مع عمر بن سعد لقتال الحسين، فلما ردّوا الشروط على الحسين، مال إليه وقاتل معه قتالاً شديداً، وكان رامياً مهدفاً، فجثا على ركبتيه بين يدي الحسين عليه السلام فرمى بمائة سهم ما سقط منها إلاّ خمسة أسهم، والحسين يدعو له ويقول: اللهم سدد رميته، واجعل ثوابه الجنة. فلما نفدت سهامه، قاتل حتى قتل[1].

والملاحظ أن أغلب هؤلاء العائدين قد استشهدوا في الحملة الأولى مما يعني ظاهرة ماثلةً: أن درجة النضج العقلي لدى هؤلاء كانت في ذروتها، فهم على بصيرة من الأمر، لا ريب معها ولا شك، فتسابقوا إلى المنايا مجاهدين في سبيل الله عن وعي وإدراك.

ولقد حاذر ابن سعد من ظاهرة تسابق العائدين في الالتحاق بركب الحسين، وخاف من تفكك عسكره على هذا النحو، فقطع الخصام، ونادى مولاه دريداً: يا دريد أدن رايتك، فأدناها، فوضع سهماً في كبد قوسه، ثم رمى معسكر الحسين، وقال: اشهدوا إلي عند الأمير، أنني أول من رمى، ثم رمى الناس، وأقبلت السهام من القوم

(١) ظ ـ في هذا السرد كلاً من: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ١٢ ـ الأربلّي/ كشف الغمّة ٢/ ٢٦٢ ـ ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ١١٣ ـ الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٥٢ ـ بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٥١٥ وما بعدها.

تترى كأنها المطر، فلم يبق من أصحاب الحسين أحد إلا أصابه من سهامهم.

يا لهول المطلع من هذا التوجه السقيم، فقصارى ما يريد عمر بن سعد بن أبي وقاص، أن يشهدوا له عند الأمير بأنه أول من رمى معسكر الحسين، لا أكثر ولا أقلّ، فهو لا يحارب عن بصيرة، وهو يعلم بالذي أقدم عليه، في حركة من الضلال الدائر والداهم، ولكنه يطمح بالشهادة عند الأمير، ومن هو الأمير يا ترى؟

إنه عبيد الله بن زياد الدعي ابن الدعي.

لما شاهد الإمام الحسين عليه السلام سهام القوم تترى على معسكره، التفت إلى أصحابه قائلاً:

«قوموا ـ رحَمكُمْ الله ـ إلى الموتِ الذي لا بدٌّ منه، فإنَّ هذه السهام رُسُلُ القَوُم إليكم»[١].

وبدأت المعركة حامية متلاحقة، تنذر بالدمار والبوار واستقبل كل ذلك الحسين عليه السلام بصدره الرحيب، وصبره العجيب، وجنانه الثابت بما بقي بعده أحدوثةً سائرةً مدى الأجيال.

---

(١) ظ ـ المفيد/ الإرشاد/ ٢٢٠ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٢.

الفصل الثالث

كواكب الشهداء في سماء المعركة

١ ـ قتال الأحرار ونضال الحرائر

أ ـ الخطة النضالية يوم الطف

ب ـ صلاة الخوف ودلالتها الرسالية

ج ـ أنصار الحسين صرعى في الميدان

د ـ نضال الحرائر في المعركة

٢ ـ أنصار الحسين: الانتماء السياسي والإجتماعي

أ ـ الجهود السابقة في الموضوع

ب ـ معجم إحصائي بأسماء أنصار الحسين

ج ـ نتائج المقارنة والتحقيق العلمي

٣ ـ شهداء بني هاشم

أ ـ أبناء أبي طالب في الميدان

ب ـ شمس الدين يحقق في الأسماء

ج ـ عنصر المأساة في مصارع الهاشميين

د ـ الحسين يناضل وحيداً حتى الاستشهاد.



قتال الأحرار ونضال الحرائر

أ ـ الخطة النضالية يوم الطف:

كانت الخطة النضالية يوم الطف تقتضي أن يتقدم بالفداء أصحاب الحسين عليه السلام عليه وعلى أهل بيته، وأن يسبقوا إلى الشهادة قبلهم، فهم إنما يحامون عن أهل هذا البيت، وأهل هذا البيت إنّما يذبّون عن هذا الدين الذي اندرست معالمه، وهم قادة هذا الدين، وما على الجنود إلا التقدم على القادة في الحرب والدفاع.

استبسل أصحاب الحسين وأنصاره عن بصيرة تجريبية في النضال، فخاضوا حرباً مقدسه لنصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضربوا للبشرية أروع الأمثلة في الفداء والإقدام، وثبتوا في ميدان المعركة كالجبال الرواسي، يستقبلون السهام بصدورهم ونحورهم، ويتلقون الرماح المشرعة بأبدانهم وأجسامهم، ويتناوبون السيوف بأيديهم وسواعدهم.

كان القتال قد بدأ عنيفاً ضحى العاشر من المحرم حينما أقبلت سهام المعسكر الأموي تتهادى على معسكر الحسين كالجراد المنتشر.

والسهام في الحرب القديمة سلاح كبير الأثر في بداية القتال، يعقر الخيول، ويصرع الرجال، ويشيع الاضطراب.

ولدى أول حملة قادها عمرو بن الحجاج الزبيدي على ميمنة

الحسين عليه السلام كانت السهام هي السلاح الأول، وقد صمد لها أصحاب الحسين وجثوا على الركب مستميتين، وأشرعوا الرماح في وجه الجيش، فلم تقدم الخيل على الرماح، ولاذت بالفرار، فرشقها أصحاب الحسين عليه السلام بالسهام والنبال، فصرعوا منهم رجالاً، وجرحوا آخرين[1].

وفشلت ـ أول الأمر ـ حملة عمرو بن الحجاج، فتبارز الفريقان، فكانت الغلبة لأصحاب الحسين، وكانت كفتهم هي الراجحة في ميدان القتال، وضجَّ العسكر فيما بينه، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس:

«يا حمقاء: أتدرون من تقاتلون؟ إنما تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر، وتقاتلون قوماً مستميتين، لم يبرز إليهم منكم أحد إلاّ قتلوه، إنهم قليلون وقلّ ما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم».

فقال له عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت، فأرسل إلى الناس من يعزم عليهم أن لا يبارز رجلٌ منكم رجلاً منهم، ولو خرجتم إليهم وحداناً لأتوا عليكم مبارزةً[2].

وَعُدّلَت خطة الجيش الأموي من المبارزةِ الأحادية إلى الحملة الجماعية، فحمل شمر بن ذي الجوشن على ميسرة الحسين عليه السلام فثبتوا له وطاعنوه، وحُمِلَ على أصحاب الحسين من كل جانب، فقاتلهم أصحاب الحسين قتالاً شديداً، وأخذت خيلهم تحمل، وإنما هي اثنان وثلاثون فرساً، أو أكثر بقليل، فلا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفته.

---

(١) ظ ـ الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢٢٠.
(٢) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٣٥.

وكان عروة بن قيس على خيل أهل الكوفة، فبعث إلى ابن سعد: أما ترى ما يلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدّة اليسيرة؟ ابعث إليهم الرجال والرماة، فبعث إليهم بالرماة. واستقبل الرماة أصحاب الحسين عليه السلام بالنبال والسهام، فصمد أصحاب الحسين لذلك برهة من نهار.

فلمّا رأى الحصين بن نمير ـ وكان على الرماة ـ صبر أصحاب الحسين عليه السلام على ذلك، تقدّم إلى أصحابه، وكانوا خمسمائة نابل، أن يرشقوا أصحاب الحسين بالنبل فرشقوهم، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم، وجرحوا الرجال وأرجلوهم، واشتد القتال بينهم، فبان النقص في أصحاب الحسين، وكثر فيهم الجراح والقتل[١].

بهذا الثبات الرائع قابل معسكر الحسين معسكر الأمويين، وبهذه الاستجابة النضالية الواعية أوقعوا في العدو خسائر فادحة لم تكن في الحسبان، قلّة من الشجعان يلتقون فصائل من الأوباش قادها العمىٰ، وكان للكثافة المقاتلة لدى الجيش الأموي أثرها في تعجيل إزهاق الأرواح ونقصان العدد، فقد استمرت المعركة على أشدها ضمن العاشر من المحرّم حتى الزوال، فما انجلت الغبرة إلا عن خمسين صريعاً من أصحاب الحسين عليه السلام[٢].

وكان أصحاب الحسين عليه السلام قد تجاوزوا المائة بقليل كما سيأتي إثباته، وقتلُ خمسين منهم يعني فقدان ما يقارب نصف العدد، وهذا ما يوجب الإشفاق، ونظر الحسين عليه السلام إلى المأساة شاخصةً أمام ناظريه، ورأى تساقط أصحابه جملة وفرادى، حتى لقد حزّ هذا

(١) ظ ـ الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢٢٢.

(٢) ظ ـ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ١٢.

المشهد الفظيع في نفسه، وضرب بيدْه على كريمته المباركة وقال:

«اشْتَدّ غَضَبُ الله عَلَى اليهودِ إذ جَعَلَوا لَهُ وَلَداً، واشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى النَصَارىٰ إذْ جَعَلُوهُ ثالثَ ثَلاثَةٍ، واشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى المَجوُس إذْ عَبَدوُا الشمْسَ والقَمَر، واشتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى قَومْ اتَفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَىَ قَتْل ابن بنتِ نَبيّهِم، أمَا واللهِ لا أُجيبهُمُ عَلَى شَيءٍ مما يُريدُونَ حتَى ألقى الله تَعالى»[1].

بهذا الإصرار العظيم رفض الحسين عليه السلام ذلك الاستبداد الطاغي، وبهذه الروحية الفذّة قاوم ذلك العدو الغاشم، وبمثل هذه الصفوة الناهضة نازل ذلك الجيش الجرّار، فما نزل على خسف، ولا صبر على ضيم، ولا تردد في الحرب المقدسة طرفة عينٍ أبداً.

ب ـ صلاة الخوف ودلالتها الرسالية:

ولمّا قُتِل من قُتِل من أصحاب الحسين في الحملة الأولى، بدأت حرب المبارزة، فصار يبرز الرجل والرجلان، يستأذنون الحسين في ذلك، ويقاتل أحدهم خاطباً أو منشداً أو مرتجزاً حتى يقتل.

واشتد القتال بين الفريقين على هذا النحو حتى كان الزوال، فالتفت أبو ثمامة الصائدي، واسمه عمرو بن عبد الله بن كعب الهمداني، إلى الحسين وقال له: نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقترَبوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأخضب بدمي، وأحبّ أن ألقى ربي وقد صليت معك هذه الصلاة التي دنا وقتها.

---

(١) ظ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٣.

فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، وقال: «**ذَكَرْتَ الصَلاةَ جَعَلَكَ الله من المَصَلّينَ الذَاكرينَ، نَعَمْ هذا أَوّلُ وَقتها، سَلُوا القوْمَ أنْ يَكُفّوا عَنّا حَتَى نُصلّي**»[1].

ولم يستجب القوم للكف عن القتال من أجل الصلاة، وجرى بين الفريقين جدال عنيف، ذلك ما أغضب حبيب بن مظاهر الأسدي يتبعه الحرّ بن يزيد الرياحي، فأقبلا يحاججان القوم ويذودان الجيش في مجابهة حربية حامية قتلا فيها من القوم مقتلةً عظيمة حتى صرعا واستشهدا فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فقد اتجه الحسين للصلاة جازماً، وقال لزهير بن القين، وسعيد بن عبد الله الحنفي: «تقدما أمامي حتى أصلي الظهر» فتقدما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف[2].

إن صلاة الحسين عليه السلام في هذا الظرف الحرج له دلالته الرسالية الهادفة، وصلاة الخوف قد شرعت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في إحدى حروبه أو مغازيه، ولها شروطها وآدابها وأحكامها في حيثيات خاصة عرض لها الفقهاء.

والحسين عليه السلام هنا يصلي هذه الصلاة، ليؤكد حقيقة توجهه النضالي فهو إنما يقاتل القوم من أجل إحياء السنن وإقامة الفرائض، والصلاة في طليعة تلك الفروض التي يكافح من أجل إقامتها خالصة لله، فهي معراج المؤمن، ومظهر علاقة العبد بربّه، فلا تترك في حال من

---

(١) ظ ـ الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٣٩.

(٢) ظ ـ الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ١٧.

الأحوال مهما كان صعباً وعسيراً.

وهنا ينبغي أن نشير إلى الموقف البطولي الذي وقفه العبد الصالح سعيد بن عبد الله الحنفي، فقد تقدم بالصلاة أمام الحسين عليه السلام يقيه بنفسه، فاستهدف من قبل القوم، ورموه بالنبل والسهام، وكلما جاءت السهام نحو الحسين يميناً وشمالاً قام بين يديه يدرؤها عنه، فما زال يتلقى النبل بصدره ونحره حتى سقط إلى الأرض صريعاً، وهو يقول:

«اللهم العنهم لعن عاد وثمود، اللهم أبلغ نبيّك عني السلام، وأبلغه ما لقيت من الجراح، فإني أردت بذلك ثوابك في نصرة ذرية نبيك محمد صلى الله عليه وآله»[1].

ثم التفت إلى إمامه الحسين عليه السلام قائلاً: أوفيت يا ابن رسول الله؟

فقال الحسين عليه السلام: نعم أنت أمامي في الجنة.

ثم قضىٰ سعيد نحبه شهيداً صابراً محتسباً، فوجد به ثلاثة عشر سهماً، سوى ما كان به من ضرب السيوف وطعن الرماح[2].

ج ـ أنصار الحسين صرعى في الميدان:

وحينما أنهى الحسين عليه السلام صلاته بهذا الشكل، قال لبقية أنصاره:

«يا كرامُ: هَذهِ الجنّة فُتحتْ أبوابُها، واتّصَلَتْ أنْهارُها، وأينعَتْ

(١) ظ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٧.

(٢) ظ ـ ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ١٠٣.

ثمارُها، وهذا رسولُ الله صَلّى الله عَلَيهِ وآلهِ، والشهداءَ الذَينَ قُتلُوا في سبيل الله يَتوقَعَونَ قدُومَكُمْ، ويتباشرون بكُمْ، فَحامَوا عَنْ دِين الله، ودينِ نبيِّهِ، وذبّوا عَنْ حَرَمِ الرسَوُلِ»[1].

وتناخى، أنصار الحسين فتوةً، وتطاولوا بسالةً ورجولةً، وقالوا للحسين ولحرمه: «نفوسنا دون أنفسكم، ودماؤنا دون دمائكم، وأرواحنا لكم الفداء، فوالله لا يصل إليكم أحدٌ بمكروه وفينا عرقٌ يضرب»[2].

وكان استباق أنصار الحسين إلى القتال مبارزة، فكل من أراد القتال يأتي إلى الحسين فيودعه ويستأذنه في القتال قائلاً: السلام عليك يا ابن رسول الله، فيجيبه الحسين: وعليك السلام، ونحن خلفك، ويقرأ قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[3].

وأخذ أصحاب الحسين يسارعون إلى الميدان بحماس بالغ، فيقتلون ويقتلوْنَ واحداً تلوَ الآخر على سبيل المبارزة تارة وعلى سبيل الهجوم تارة آخرى، وبإزاء الدفاع بينهما، فكانت الملحمة الكبرى التي أتت عليهم جميعاً، وهم بين شاهر سيفه، وطاعن برمحه، ومسدد بسهمه في أفعالهم، وهم أيضاً ما بين تالٍ للقرآن، ومنذر بالخطاب، ومرتجز عند القتال في أقوالهم، وإذا اقترنت الأقوال بالأفعال، وتصافحت الضمائر والجوارح، وصدّق اللسان ما في الحنان، بلغ الهدف ذروته، وحقق الرائد أمنيته، وهكذا كان، فعمر بهم الميدان

---

(١) القندوزي/ ينابيع المودّة/ باب/ ٦١.

(٢) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين.

(٣) سورة الأحزاب/ ٢٣.

حتى أستأصلوا بعد أن أبلوا في سبيل الله بلاء حسناً، وعادوا مثلاً في المواساة والفداء.

ولم يسلم من أنصار الحسين إلا ثلاثة: الضحاك بن عبد الله المشرفي، وعقبة بن سمعان مولى الرباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام والمرقع بن ثمامة الأسدي كما ذكر ذلك الطبري ووثقه شمس الدين[١].

ويبدو من ضم الروايات بعضها إلى بعض، ومن التحقيق في المصادر الأساسية الرئيسية، يضاف إليها ما ورد في زيارة «الناحية المقدسة» و «الزيارة الرجبية» أن الذين استشهدوا من أنصار الحسين عليه السلام في الحملة الأولى كانوا زهاء الخمسين من الأبطال، وأن الذين استشهدوا بعد صلاة الظهر كانوا أربعة وستين أو ما يقارب هذا العدد. وعلى هذا يكون عدد الشهداء من الأنصار ـ عدا الهاشميين ـ في حدود المائة والاثني عشراً والثلاثة عشر، أو الأربعة عشر شهيداً كما سيأتي ذلك.

د ـ نضال الحرائر في المعركة:

وينبغي الإشارة هنا إلى أن النضال يوم الطف بل قبله، لم يقتصر على الأحرار من الرجال، بل تجاوزهم إلى الحرائر من النساء، فقد سجل التأريخ بفخر وباعتزاز مشاهد رائعة من التضحية للمرأة المسلمة لا عهد للتأريخ بها قبل الثورة، وعند الثورة، وبعد الثورة.

سبق أن ذكرنا أن الحسين عليه السلام قد اصطحب عقائل النبوة معه إلى كربلاء، وقد أثار هذا الإجراء عدة تساؤلات ولاقى معارضة شديدة

(١) ظ ـ محمد مهدي شمس الدين/ أنصار الحسين/ ٥١ وانظر مصادره.

عند محبي أهل البيت وشركائهم في الثورة.

ولعل الإمام الحسين عليه السلام بنظرته الثاقبة للأحداث أراد قطع دابر هذا الحديث بإجابته لأخيه محمد ابن الحنفية، حينما سأله قائلاً:

ما معنىٰ حملك هؤلاء النسوة معك؟ وأنت تخرج على مثل هذا الحال فقال الحسين بالحرف الواحد: إنَّ الله شاء أن يراهنّ سبايا[1].

إن الاجتزاء بهذا الجواب الموجز يغني عن الدخول في فلسفة حمل النسوة والحرائر إلى طف كربلاء، ويكتفي به عادةً عن ذكر المبررات فيما لا طائل معه، ولمّا كان الجميع يعرفون الحسين إماماً مفترض الطاعة، لا يتكلم اعتباطاً استمعوا منه وسكتوا، أضف لذلك أن وقت الحسين الثمين لا يتسع للوقوف عند كل قضية كلية أو جزئية، فالمخطط للثورة شامل لأبعاد شتى، وضرورة نجاح الثورة حكمت بحمل النساء دون تردد لديه. بل هنالك ما هو أكثر من هذا الملحظ مما نلمسه عند النساء أنفسهن من الثوابت المطلقة في العزم على اصطحاب الحسين ومرافقته، فلقد قال ابن عباس للإمام الحسين عليه السلام في هذا الصدد: جعلت فداك يا حسين، إن كان لا بد من المسير إلى الكوفة، فلا تسر بأهلك ونسائك وصبيتك، فوالله إني لخائف أن تقتل، وهم ينظرون إليك، وكان من جواب الحسين: يا ابن العم، وإنهن ودائع رسول الله، ولا آمن عليهن أحداً، وهنّ لا يفارقنني.

وإذا بقائلة تقطع على ابن عباس صمته الرهيب، وهي مستنكرة: «يا ابن عباس: تشير على شيخنا وسيدنا أن يخلفنا ها هنا، ويمضي

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ١٠.

وحده؟ لا والله، بل نحيا معه، ونموت معه، وهل أبقى الزمان لنا غيره»[1].

إن هذا النداء الصارخ انطلق من عقائل بني هاشم فيما اخترن من مصير مرتبط بالحسين عليه السلام في الشدة كما كان مرتبطاً معه في الرخاء، ولقد كان من المحتمل جداً، بل من المقطوع به، أن الحسين لو قُدّر له أن يخلّف حرائره في المدينة، أن يعمد الحكم الأموي إلى اعتقالهن جملةً، بل ويهدد بقتلهن جهاراً، مما يعني إحراج الحسين في المضي بمنهجه المخطط له، فيكون ذلك عقبة كأداء في طريقه لا يستطيع تجاوزها، مما يعني عرقلة مسيرة الثورة، فكان عليه أن يصطحب النساء عسى أن لا يبقى ذهنه متعلقاً بجريرة من خلفه. أضف إلى هذا كله أن رسالة الحسين عليه السلام قد قدّر لها أن تكتمل صفحاتها بما تظهر هذه الحرائر من الجلد والصلابة عند الثورة، وبما تقدمه من النضال والمحاججة والاستظهار بعد الثورة، وهي تمثل الدور النسوي البارز في ميادين الكفاح.

لا أريد أن أحدثك بما قامت به عقائل بيت الوحي في الطف من جلائل الأعمال، ولا أريد أن أحيطك خبراً بما اتسمت به من الصبر والمعاناة وحسن تأتي الأمور لا سيما العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام، فليس ذلك بمقدور البحث الآن، وهو بحاجة إلى عمل مستقلّ تنهض به رسالة علمية أخرى، على أن الكثير قد كتب عن ذلك، ولكن الغالب فيه عادة عرض الجانب المأساوي والبعد العاطفي من السيرة، ومع أن لهذا الجانب إيجابياته المجدية ولكنه ليس كل شيء في الموضوع.

---

(١) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ١٩٧ وانظر مصدره.

إن سيرة تأريخ عقائل أهل البيت في طف كربلاء يقتضي رصداً جديداً في عرض موضوعي معاصر، يصّور لك حياة الثورة في هذا التأريخ مقترنةً بأمثلة معبّرة نابضة عن المعاني الكبيرة التي أوحتها المسيرة النسائية الحافلة بالعطاء والتضحية والإيثار، وما نجم عن ذلك من تغيير فعلي جبهت به الحياة الإنسانية نتيجة ذلك الزخم الثوري الهائل الذي حملته نسوة أهل البيت في طريق الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

لستُ مغالياً إذا قلت أنك قد لا تظفر في مسيرة التأريخ نظيراً لما قدمته المرأة الصالحة من أهل البيت، وهي تدافع عن العقيدة بأصالة، وتتطلب الشهادة بصلابة، وتسعف الثائرين بنوعية وحماساً واستمراراً، وتقوّم الحدث الداخلي المروّع لتصنع منه انتصاراً في درب النضال الطويل، بل هناك ما هو قريب من هذا إعجاباً، ذلك هو موقف نساء الأنصار في دعم الثورة، ومتابعة أحداثها الدامية، بما يصور لك روح الإباء والشمم والفتوّة.

وبالإمكان أن أضرب لك نماذج مشتركة فيما تقدمت به عقائل النبوة من جهة، ونساء الأنصار من جهة أخرى.

١ ـ حينما اشتد القتال وحمي الوطيس بعد صلاة الظهر، والحسين في قلّة من أصحابه، خرجن بنات الزهراء من المخيم، وقلن:

«يا معشر المسلمين، ويا عصبة المؤمنين، ادفعوا عن حرم الرسول وعن إمامكم المنافقين، لتكونوا معنا في جوار جدّنا رسول الله ﷺ».

فعند ذلك بكى أصحاب الحسين، وقالوا: نفوسنا دون أنفسكم، ودماؤنا دون دمائكم، وأرواحنا لكم الفداء، فوالله لا يصل إليكم أحد بمكروه وفينا عرق يضرب»[1].

٢ ـ بعد مقتل الحسين عليه السلام خرجت ابنة أمير المؤمنين عليه السلام إلى ميدان المعركة ووقفت على مصرع الحسين ترثيه مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وامحمداه، واجدّاه، هذا حسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء...

ثم وقفت على الجثمان الطاهر، وبسطت يديها تحته، ورفعته نحو السماء، وقالت برباطة جأش كلمتها المأثورة «**اللهم تقبل منّا هذا القربان**»[2].

٣ ـ وفي قصر الإمارة بالكوفة أقبل على ابنة أمير المؤمنين عبيد الله بن زياد قائلاً: الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم، وأكذب أحدوثتكم.

فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا.

قال ابن زياد: كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟

فقالت العقيلة زينب: ما رأيت إلا جميلاً. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، مبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يؤمئذٍ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة»[3].

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف/ ١٤ ـ الدربندي/ أسرار الشهادة/ ١٧٥.
(٢) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٧٤ وانظر مصدره.
(٣) الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢٤٨ ـ ابن طاووس/ اللهوف/ ٦٧.

٤ ـ كان جنادة بن الحارث السلماني قد خرج بعياله وولده إلى الحسين فقتل[١] مبارزة، فأقبلت زوجته إلى ولده عمرو وأمرته بنصر الحسين، وخرج الشاب، واستأذن الحسين في القتال، فقال الحسين هذا شابٌ قتل أبوه، ولعل أمه تكره خروجه، فقال: أمي أمرتني بذلك. فبرز وقاتل حتى قتل، وحزّ رأسه ورمى به إلى عسكر الحسين، فحملت أمّه رأسه، وقالت: أحسنت يا بني، وأخذت عمود خيمة، وبرزت إلى المعركة وهي ترتجز:

أنا عجوزٌ سيدي ضعيفة خاويّة باليةٌ نحيفة
أضربكم بضربةٍ عنيفة دون بني فاطمة الشريفة

وضربت رجلين فقتلتهما، فأمر الحسين بصرفها، ودعا لها[٢].

٥ ـ أقبل عبد الله بن عمير، وقال لزوجته أنه يريد المصير إلى الحسين عليه السلام فقالت له: أصبت، أصاب الله بك أرشد أمورك، افعل وأخرجني معك، فخرج بها حتى قدم على الحسين فأقام معه، ثم برز ليقاتل، فأخذت امرأته عموداً ثم أقبلت نحو زوجها تقول: فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين، ذرية محمد، فأقبل إليها يردها نحو النساء، فأخذت تجاذب رداءه، ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك. فناداها الحسين: جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء، فاجلسي معهن، فانصرفت.

ثم قتل زوجها فخرجت تمشي إليه حتى جلست عند رأسه تمسح التراب عنه وتقول: هنيئاً لك الجنة. فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام

---

(١) ذكره شمس الدين باسم جابر بن الحارث السلماني/ أنصار الحسين.
(٢) ظ ـ الأمين العاملي ٤/ أول/ ٢٨٠.

يسمى رستم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدخه، فماتت مكانها. وهي أول امرأة قتلت من أصحاب الحسين[1].

٦ ـ وهذا وهب بن حباب الكلبي، قالت له أمه: قم يا بني فانصر ابن بنت رسول الله ﷺ فقال أفعل. وحمل على القوم، ولم يزل يقاتل حتى قتل جماعة، ثم رجع وقال: يا أمّاه هلى رضيت؟ فقالت: ما رضيت حتى تقتل بين يدي الحسين، فقالت له امرأته: بالله عليك لا تفجعني بنفسك. فقالت له أمه: يا بني أعزب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك تنل شفاعة جده يوم القيامة، فرجع، ولم يزل يقاتل حتى قطعت يداه، ثم قتل[2].

هكذا كان موقف الحرائر يوم الطف من عقائل أهل البيت ونساء الأنصار، يفوق حدّ التصور، ويربي على المتوقع، وقد رأيت فيما سبق موقف الشاب المسلم، والشيخ المسلم، وأمامك الآن موقف المرأة المسلمة.

هذا هو المناخ الثوري لتضحية أنصار الحسين عليه السلام رجالاً ونساءً، شباباً وكهولاً وشيوخاً.

بقي أن نشير إلى أن التأريخ، وهو ما يمثل عادة الوجه الرسمي للأحداث، قد تجنّى كثيراً، فأغفل جملة من الأحداث الفريدة، وغطّى على كثير من البطولات النادرة، ومع هذا وذاك فقد برزت الحقيقة سافرة في طائفة من وقائعها الفذة، وإن تعجل المؤرخون في ظل الدول الحاكمة كتمان أحاديث المجد الرائدة، بيد أن ما وصلت من بين هذا الشتات التأريخي المتناثر هنا وهناك، كان فيه المزيد من التفصيلات

(١) ظ ـ محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١٩٧ وانظر مصدره.
(٢) ظ ـ المرجع نفسه/ ١٩٨ وانظر مصدره.

الدقيقة المعبرّة التي أوردها المعنّيون بالسير والمقاتل، لقد ألمعنا إلى نماذج من هذا السيل الطامي في خضم الأحداث النضالية التي خاضها أصحاب الحسين يوم الطف، ولو أردنا التوسع في ذكر البطولات حالّية ومقاليّة، أو الاسترسال في إيراد الخطب قبل القتال والأراجيز عند القتال، أو التحدث عن أنباء المبارزة الميدانية ومجرياتها، لو أردنا ذلك لضاق بنا المجال، ولخرج الكتاب عن منهجه الدلالي إلى استدراج تأريخي عريض يستدعي فصولاً إضافية قد تجدها في غير هذه الأطروحة.

أنصار الحسين

الأسماء والانتماء السياسي والاجتماعي

أ ـ الجهود السابقة في الموضوع:

لعلّ من الضروري حقاً خدمة للبحث العلمي، واستكمالاً لمسيرة هذا الكتاب، وبإزاء إعطاء كل ذي حق حقه من الذكر العاطر الجميل، أن نضع ثبتاً معجمياً بأسماء الشهداء من أنصار الحسين عليه السلام مع ترجمة موجزة إشارية، تكشف عن بعض الملامح العامة في الانتماء السياسي والاجتماعي والولائي الذي اتّصف به بعضهم، ونحاول بيان الموقع من الأحداث، ونشير إلى بعض الخصوصيات في العبارة أو المنزلة أو القتال، مؤكدين على ذكر المصادر والمراجع التي أوردت ذلك.

ولا تحسبن أن هذا العمل مما يسهل تناوله، أو يتوافر إعداده، فهو من الصعوبة بمكان، ومن الدقة العلمية بالمنزلة العظمى، فقد يختلط الحابل بالنابل دون الاحتراز والاحتراس.

وهذا المعجم الإحصائي تعتوّره مشاكل عدة أهمها:

١ ـ تداخل الأسماء بعضها ببعض تصحيفاً وتحريفاً وإستنساخاً خاطئاً.

٢ ـ اقتران كثير من الأسماء بالكنى والألقاب فتحسب الواحد من هؤلاء أكثر منه، وهو لا يتعداه.

٣ ـ مشكلة الخطأ لدى الناسخين في إثبات تلك الأسماء حتى ليختلط بعضها ببعض نتيجة الاشتباه أو التصحيف.

٤ ـ يضاف إلى ما تقدم مشكله الخطأ الطباعي في كثير من المصادر القديمة المطبوعة حديثاً مما يعني المعاناة بالحيطة والحذر والتصحيح.

٥ ـ وأهم المشكلات هو مسألة الروايات في تسجيل الأسماء، فبعض الأسماء اللامعة من شهداء الأنصار ذكرتها كل المصادر التأريخية، وبعضها انفردت به مصادر ثانوية، وبعضها ذكرته مصادر متأخرة، وأخرى ذكرها المحدثون.

إن غربلة هذا الزخم من المصادر والمراجع، وتنقية الأجواء البحثية لدى النسّاخ والمطبوعات، والتحقق من الأسماء حذر الاشتباه والتكرار، كل أؤلئك بحاجة إلى تدقيق مضنٍ، واتساعٍ في الوقت وافٍ، لجعل الشيء في نصابه قدر الإمكان.

ويمكننا القول بكل تواضع أننا قمنا بجزء كبير من هذا الافتراض، وأنجزنا طائفة لا يستهان بها من العرض الجيد الذي يوافق الحقيقة العلمية في الاستنتاج وإثبات الأسماء والمعلومات.

وكان اعتمادنا في هذا الإنجاز على المصادر الرئيسية في الموضوع وكان أهمها: الطبري في تأريخه، وابن الأثير في الكامل، والشيخ الطوسي في رجاله، والزيارة المنسوبة إلى الناحية المقدسة في عرضها لأسماء شهداء الأنصار، والزيارة الرجبية في الغرض نفسه،

وابن شهرآشوب في المناقب، والخوارزمي في مقتل الحسين، وابن طاووس في اللهوف، ولمصادر أخرى في هذا الجانب، كان أبرزها معجم رجال الحديث لسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي قدس سره الشريف، في الفرز والتحقيق والمقارنة.

ونشير هنا أن الشيخ محمد مهدي شمس الدين قد سبق بإصدار جدولين مهمّين في أسماء الشهداء من أنصار الحسين عليه السلام. اشتمل الأول منهما على ثبت معجمي باثنين وثمانين شهيداً صحّت عنده شهادتهم، وذلك لذكر كل المصادر لهم أو أغلبها، أو لتواتر نبأ استشهادهم تأريخياً. والثاني قد اشتمل على تسعة وعشرين اسماً مما انفرد به وبذكره مصدر من المصادر المتأخرة.

وقد أجهد نفسه ـ جزاه الله خيراً عن الحسين وأصحابه ـ في التصويب العلمي الدقيق، والنقد المنهجي الصائب، فكان ما توصل إليه في تعداده للشهداء من أنصار الحسين مائة وأحد عشر شهيداً، وقد قام بعرض معلومات قيمة ـ اعتمدناها ـ وقد أحسن تبويبها تبعاً للفئات الاجتماعية والقبلية، والجغرافية، والعنصرية[١].

وكان قد سبقه سيدنا السيد محسن الأمين العاملي إلى ثبت معجمي قوامه ستة ومائة من الشهداء ممن اتصلت به أسماؤهم مرتبة على حروف المعجم[٢].

وقد لحقه السيد حسين بحر العلوم في تحقيقه لمقتل الحسين لوالده السيد محمد تقي بحر العلوم فأثبت زهاء الخمسين ممن استشهد

---

(١) ظ ـ محمد مهدي شمس الدين/ أنصار الحسين/ ٥٧ ـ ١٠٤.

(٢) ظ ـ محسن الأمين العاملي/ أعيان الشيعة/ ٤/ أول/ ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

في الحملة الأولى وترجم لهم في هامش الأصل[1].

كما أثبت سجلاً بأربعة وستين شهيداً ذُكر منهم السيد والده ثلاثة وعشرين، وسرد المحقق أسماء الباقين، فهم عنده مائة وأربعة عشر شهيداً[2].

(١) ظ ـ بحر العلوم/ هامش التحقيق لمقتل الحسين/ ٥١٣ ـ ٥٢١.
(٢) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ الأصل/ ٥٢٦ ـ ٥٥٦ ـ هامش التحقيق ٥٥٦ ـ ٥٦٧.

معجم إحصائي بأسماء أنصار الحسين

١ ـ **إبراهيم بن الحصين الأزدي**: نص عليه ابن شهرآشوب، وذكر له رجزاً، وأورده السيد الأمين، وبحر العلوم، وشمس الدين في الجدول الثاني.

٢ ـ **أبو عمرو النهشلي، أو الخثعمي**: ذكره ابن شهرآشوب، وابن نما، والمجلسي، والسيد الأمين، وشمس الدين في الجدول الثاني، وكان متهجداً كثير الصلاة قتل في الحملة الأولى، وقيل مبارزة.

٣ ـ **الأدهم بن أمية العبدي البصري**: أقبل من البصرة وأدرك الحسين في كربلاء، قتل في الحملة الأولى، ذكره السيد الأمين في اللواعج، والسماوي في إبصار العين، وبحر العلوم في مقتل الحسين.

٤ ـ **أسلم التركي، مولى الحسين**: وهو عند الطبري والأمين «سليمان» وعند الطوسي «سليم» وعند شمس الدين محققاً «أسلم» وهو مراد المؤرخين بقولهم «ثم خرج غلام تركي كان للحسين» ذُكر أنه قارىء للقرآن، عارف بالعربية، وكان كاتباً.

أمّا سليمان مولى الحسين فيكنى بأبي رزين، وهو غيره، رسول الحسين إلى البصرة، وقد سبق ذكره، وسيأتي فيمن استشهد من أنصار الحسين في غير الطف.

٥ ـ **أمية بن سعد الطائي**: من أصحاب أمير المؤمنين، خرج إلى الحسين من الكوفة، وقتل في الحملة الأولى في أول الحرب، ذكره

الأمين والسماوي وبحر العلوم.

٦ ـ **أنس بن الحارث الكاهلي**: صحابي جليل أدرك النبي وسمع حديثه، وشهد معه بدراً وحنيناً، روى «سمعت رسول الله يقول: ـ والحسين في حجره ـ إن ابني هذا يقتل في أرض العراق، ألا من شهده فلينصرهُ».

نص عليه أغلب المؤرخين، وذكره شمس الدين مع التحقيق، والسيد الأمين، وبحر العلوم، استشهد مبارزة بعد أن صحب الحسين من مكة، بكى الحسين عند مبارزته، فقد كان شيخاً كبيراً، وقد شدّ وسطه بعمامته، ورفع حاجبيه عن عينيه بعصابته.

٧ ـ **أنيس بن معقل الأصبحي**: نص عليه ابن شهرآشوب، والخوارزمي، والأمين، وشمس الدين، وهو من القبائل القحطانية.

٨ ـ **أم وهب بنت عبد**: زوجة عبد الله بن عمير الكلبي، وقد مرّ ذكرها في مبحث «نضال الحرائر في المعركة» وسيأتي ذكرها مع زوجها.

٩ ـ **برير بن خضير الهمداني**: ذكر في كل المصادر، وكان شيخاً تابعياً ناسكاً، وسيد القرّاء في جامع الكوفة، خطب يوم الطف محاولاً صرف ابن سعد عن الحرب، وقد أبلى بلاءً حسناً، وقتل مبارزة.

١٠ ـ **بشير بن عمرو الحضرمي، أو بشير بن عبد الله الحضرمي**: وهو ثاني رجلين وآخرهما، بقيا مع الحسين قبل استشهاد بني هاشم، والآخر هو: سويد بن أبي مطاع الخثعمي على ما ذكر الطبري، وستأتي ترجمته.

ويؤكد شمس الدين: أنه محمد بن بشير الحضرمي ذو الوليد

الأسير الذي ذكره ابن طاووس بقرينة ذكره لقصة ابنه. وعلى هذا فهو واسم محمد بن بشير الحضرمي متحدان. ذكر في الزيارتين وعند الطبري والأمين والخوئي، قتل مبارزة.

١١ ـ **بكر بن حي بن تيم الله بن ثعلبة التيمي**: كان ممن خرج مع ابن سعد، ثم ازدلف إلى الحسين، وقتل بين يديه، ذكره السيد الأمين، وبحر العلوم عن اليمني والسماوي.

١٢ ـ **جابر بن الحارث السلماني**: وقد ذكره الشيخ الطوسي والسيد الأمين، والسيد الخوئي، وفي الزيارتين، وفي جملة من المقاتل أنه (جنادة بن الحارث السلماني، إلاّ أن شمس الدين خرج بعد التحقيق بأنه جابر، وظهر له أنه من شخصيات الكوفة، اشترك في حركة مسلم، وبعد إحباطها توجه مع جماعة إلى الحسين قبيل وصوله إلى كربلاء، فأراد الحرّ رحمه الله منعهم من اللحاق بالحسين فلم يستطع. استشهد في الحملة الأولى، وتقدمت قصة زوجته وولده.

١٣ ـ **جابر بن الحجّاج مولى عامر بن نهشل التيمي**: من شهداء الحملة الأولى، ذكره السيد الأمين، والسيد بحر العلوم في الهامش.

١٤ ـ **جبلة بن علي الشيباني**: ورد ذكره في زيارة الناحية المقدسة، اشترك في حركة مسلم بن عقيل في الكوفة، ثم التحق بالحسين، واستشهد في الحملة الأولى.

١٥ ـ **جنادة بن الحارث السلماني**: ذكره السيد الأمين في قائمته، وقد يكون متحداً مع (جابر بن الحارث السلماني) رقم (٢) وقد يكون أخاه.

١٦ ـ **جنادة بن كعب بن الحارث الأنصاري**: صحب الحسين من

مكة، وجاء معه هو وأهله. ذكره ابن شهرآشوب والخوارزمي باسم (جنادة بن الحرث) وذكره شمس الدين باسم (جنادة بن الحارث الأنصاري) ونص عليه السيد الأمين، وبحر العلوم.

١٧ ـ **جندب بن مجير الخولاني**: ذكر في الزيارتين، وذكره الشيخ الطوسي دون قتله، وذكره السيد الأمين، والسيد الخوئي، والشيخ شمس الدين.

١٨ ـ **جون مولى أبي ذر الغفاري**: ذكره عامة المؤرخين، وفي الزيارة، وابن شهرآشوب، والخوارزمي، والأمين، وبحر العلوم، وشمس الدين، وكان منقطعاً لأهل البيت بعد وفاة أبي ذر رحمه الله، وهو شيخ كبير السن، أذن له الحسين بالانصراف، فأبى قائلاً:

«أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، وفي الشدة أخذلكم؟ والله إن ريحي لنتن، وإن حسبي للئيم، وإن لوني لأسود، فتنفس عليّ بالجنة، ليطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيّض لوني، لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم».

ثم قاتل مبارزة قتالاً شديداً حتى قتل، فوقف عليه الحسين، وقال: «**اللّهم بَيّضْ وَجْهَهُ، وَطَيِّبْ رِيحَهُ، وَاحشُرْهُ مَعَ الأبْرارِ، وَعَرِّف بَينَهُ وَبين مُحَمدٍ وَآلِ مُحَمْدٍ**».

قال من حضر دفنه: إن جسده تفوح منه رائحة طيبة أذكى من المسك.

١٩ ـ **جوين بن مالك الضبعي**: نصّ عليه الشيخ الطوسي أنه من أصحاب الحسين دون الإشارة إلى استشهاده، وذكر السيد الأمين (جوين بن مالك التميمي) مصحّفاً أيضاً. كان من جنود ابن

سعد، وازدلف إلى الحسين قبل المعركة، وقاتل معه، واستشهد في الحملة الأولى.

٢٠ ـ **الحارث أو الحرث بن امرىء القيس الكندي**: يبدو من بعض الروايات أنه كان مع ابن سعد، وازدلف إلى الحسين، وقاتل معه حتى قتل في الحملة الأولى.

ذكر ذلك السيد بحر العلوم، وذكره السيد الأمين في الأعيان.

٢١ ـ **حباب بن الحارث السلماني**: ورد باسم حيّان تارة، وحسّان تارة أخرى، ولعله متحد مع جابر أو جنادة بن الحارث السلماني، ولعل الجميع واحد، أو أنه أحد الأُخوة، من شهداء الحملة الأولى.

٢٢ ـ **حبشي بن قيس النهمي**: وذكر الأمين أنه: حبشي بن قاسم النهمي، جاء إلى الحسين أيام الهدنة، وذكر بحر العلوم عن ابن حجر أنه قتل مع الحسين.

٢٣ ـ **حبيب بن مظاهر الأسدي**: ذكرته جميع المصادر، وعند السيد الأمين أنه (حبيب بن مظاهر الأسدي) والأول هو المشهور، والمذكور من أبرز شخصيات المجتمع الكوفي، ومن المعروفين في التحقق بولاء أهل البيت عليهم السلام وفي طليعة أصحاب أمير المؤمنين، وكان من شرطة الخميس في عهده، عهد إليه الحسين بقيادة ميسرة حربه ضد الأمويين، فكان زعيم الأنصار ورمزهم، قاتل قتالاً شديداً حتى استشهد مبارزة.

هدّ مقتله الحسين، فقال «**عِندَ اللهِ أُحتَسِبُ نَفْسِي وَحُماةَ أصحابي**».

٢٤ ـ **الحجّاج بن زيد السعدي**: ذكر في الزيارتين، وذكره السيد

الأمين باسم (الحجاج بن بدر السعدي) وذكره سيدنا الأستاذ الخوئي باسم (الحجاج بن زيد) وحقق في اسمه شمس الدين وقال: حمل كتاباً من مسعود بن عمرو الأزدي إلى الإمام الحسين جواباً على كتاب الحسين إليه وإلى غيره من زعماء البصرة يدعوهم إلى نصرته. استشهد مبارزة بعد صلاة الظهر.

٢٥ ـ **الحجّاج بن مسروق الجعفي**: مؤذن الحسين عليه السلام، ذكره الطبري، وفي الزيارتين، والمجلسي، وابن شهرآشوب، والسيد الخوئي، وشمس الدين، وبحر العلوم، والمصادر الأخرى، خرج من الكوفة إلى مكة، فالتحق بالحسين هناك، وصحبه إلى العراق، أمره الحسين بالأذان لصلاة الظهر عند التقائه الحر بن يزيد الرياحي. قاتل في الطف قتالاً شديداً حتى خضب بالدماء، ورجع إلى الحسين، وهو يرتجز ويقول:

أَقْدِمْ حُسَيـنُ هـادياً مهـدّيـا   اليـومَ أَلْقَـى جـدك النبيّـا
ثُـمَّ أبـاكَ ذا النَـدَى عليّـا   ذاكَ الـذي نَعْـرِفُـهُ الـوصيّـا

فقال له الحسين عليه السلام: وأنا ألقاهما على أثرك، فرجع يقاتل حتى قتل.

٢٦ ـ **الحرّ بن يزيد الرياحي اليربوعي التميمي**: ذكرته جميع المصادر، أحد قوادّ الجيش الأموي على ربع تميم وهمدان لقتال الحسين، وهو صاحب الحسين الذي جعجع به في الطريق، وقد التقى به عند جبل ذي حسم، وهو بإمرة ألف فارس عن ابن زياد، تاب قبل الحرب، وازدلف إلى الحسين في موقف مشهود مرّ ذكره، وقاتل معهُ قتال الأبطال، واستشهد بين يديه مبارزة، وسقط إلى الأرض فحمله قومه من المعركة، ودفن خارج الحائر الحسيني، وضريحه الآن مشهور

غربي كربلاء بمسافة قصيرة.

٢٧ ـ **الحلاّس بن عمرو الراسبي**: ذكره الشيخ الطوسي مصحفاً باسم (الحلاش) وفي الرجبية (حلاس بن عمرو) وكان على شرطة أمير المؤمنين في الكوفة، كان هو وأخوه النعمان بن عمرو الراسبي مع ابن سعد، ثم ازدلفا إلى الحسين، عدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى، ولم يشر الطوسي إلى مقتله.

٢٨ ـ **حنظلة بن أسعد الشبامي**: ذُكر في الزيارتين، وذكره الطبري والطوسي والمجلسي والأمين وشمس الدين وبحر العلوم وغيرهم. كان وجهاً من وجوه الشيعة في الكوفة، وتقدم ذكر خطابه يوم العاشر ودعاء الحسين له، استشهد مبارزة.

٢٩ ـ **حنظلة بن عمرو الشيباني**: عدّه ابن شهرآشوب في شهداء الحملة الأولى، وذكره السيد الأمين، وحقق فيه شمس الدين في الجدول الثاني، وذكره بحر العلوم في الهامش، واحتمل سيدنا الأستاذ الخوئي اتحاده مع (حنظلة بن أسعد الشبامي).

٣٠ ـ **خالد بن عمرو بن خالد الأزدي**: ذكره ابن شهرآشوب والخوارزمي والمجلسي وشمس الدين، وبحر العلوم ونسب له رجزاً في المعركة. استشهد مبارزة.

٣١ ـ **رافع مولى مسلم الأزدي**: جاء إلى الحسين مع مسلم بن كثير المقتول في الحملة الأولى، فقتل بعده مبارزة. ذكره الأمين والسماوي وبحر العلوم.

٣٢ ـ **زاهر بن عمرو الكندي، مولى عمرو بن الحمق الخزاعي**: ذكره الشيخ الطوسي، وابن شهرآشوب، والأمين، وشمس الدين، وله

ذكر في الزيارتين، وكان بطلاً مجرّباً وشجاعاً مطرقاً، معروفاً بولائه وحبه لأهل البيت، استشهد في الحملة الأولى. ذكره سيدنا الأستاذ الخوئي ونقل عن النجاشي أنه جدّ محمد بن سنان من أصحاب الإمامين الكاظم والرضا عليهما السلام.

٣٣ ـ **زهير بن بشر الخثعمي**: ورد ذكره في زيارة الناحية، وفي الرجبية باسم (زهير بن بشير) وفي الاقبال (زهير بن سليم الأزدي) الآتي ذكره، ورجح شمس الدين اتحادهما. وهو من شهد الحملة الأولى.

٣٤ ـ **زهير بن سائب**: أورده شمس الدين، وورد ذكره في الرجبية، كما نقله سيدنا الأستاذ الخوئي (قده).

٣٥ ـ **زهير بن سليمان**: أورده شمس الدين، وورد ذكره في الرجبية، كما نقله سيدنا الأستاذ الخوئي (قده).

٣٦ ـ **زهير بن سليم الأزدي**: ورد ذكره في الزيارتين، وعدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى، وذكره السيد الأمين، وبحر العلوم، ويراه شمس الدين متحداً مع (زهير بن بشر الخثعمي) كما تقدم.

٣٧ ـ **زهير بن القين البجلي**: ذكرته المصادر كلها، من أبرز أعلام الكوفة، انضم إلى الحسين في الطريق بعد أدائه الحج، وصحبه إلى كربلاء، وقد تقدم ذكر ذلك، عهد إليه الحسين بقيادة ميمنته يوم الطف، خطب أهل الكوفة، قبل الحرب ونصح لهم، قاتل قتالاً شديداً، وارتجز في الحرب، وكان يومه مشهوداً في كربلاء. استشهد مبارزة.

٣٨ ـ **زيد بن معقل الجعفي**: ذكره الشيخ الطوسي، ولم ينص على استشهاده، وذكره شمس الدين، ورجح اتحاده مع (منذر بن

المفضل الجعفي) الذي ذكر في الرجبية، وله ذكر في الزيارة، وفي نسخة (بدر بن معقل الجعفي) وبهذا الاسم ذكره سيدنا الأستاذ الخوئي قدس سره.

٣٩ ـ **سالم بن عمرو، مولى بني المدينة الكلبي**: ورد ذكره في الزيارة، وعند الأمين، وبحر العلوم، وشمس الدين في الجدول الثاني، من شهداء الحملة الأولى.

٤٠ ـ **سالم مولى عامر بن مسلم العبدي**: ذكره الأمين. وشمس الدين نقلاً عن الزيارة، وذكر بحر العلوم في الهامش: أنه خرج مع يزيد بن ثبيط العبدي من البصرة، والتحق بالحسين، واستشهد في الحملة الأولى.

٤١ ـ **سعد بن الحرث، مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**: خرج منذ اليوم الأول مع الحسين من المدينة إلى مكة، ومن مكة المكرمة إلى العراق، حتى نزل كربلاء، استشهد في الحملة الأولى ذكره ابن شهرآشوب والأمين وبحر العلوم.

٤٢ ـ **سعد بن حنظلة التميمي**: ذكره ابن شهرآشوب والمجلسي والسيد الأمين، وحقق القول فيه شمس الدين، ونسب له بحر العلوم رجزاً في المعركة.

٤٣ ـ **سعد بن عبد الله، مولى عمرو بن خالد الأسدي**: ذكره الطبري، والشيخ الطوسي، وهو في الزيارة (سعيد)، قال شمس الدين: لحق بالحسين مع مولاه عمرو بن خالد الأسدي الصيداوي وآخرين، فانتهوا إلى الحسين وهو بعذيب الهجانات، بعد لقائه الحر بن يزيد الرياحي، وقبيل وصوله إلى كربلاء، وقد أراد الحرّ منعهم من اللحاق

بالحسين، فلم يتمكن.

٤٤ ـ **سعيد بن عبد الله الحنفي**: من أعظم الثوار تحمساً للكفاح المسلح ضد النظام الأموي، حمل رسائل الكوفيين إلى الحسين، وبقي معه حتى نزل كربلاء.

استهدف بالنبال والسهام يوم الطف، وهو قائم بين يدي الحسين عند صلاته الظهر دريئة له، واستشهد حينذاك في حديث سبق ذكره.

٤٥ ـ **سلمان بن مضارب البجلي**: ذكرته أغلب المصادر، وهو ابن عم زهير بن القين، مال إلى الحسين مع زهير، استشهد مبارزة بعد صلاة الظهر. وفي بعض المصادر اسمه «سليمان».

٤٦ ـ **سليمان بن سليمان الأزدي**: ذكره شمس الدين في الجدول الثاني عن الرجبية.

٤٧ ـ **سليمان بن عون الحضرمي**: ذكره شمس الدين في الجدول الثاني عن الرجبية.

٤٨ ـ **سليمان بن كثير**: ذكره شمس الدين عن الرجبية، ورجح اتحاده مع مسلم بن كثير الأزدي.

٤٩ ـ **سوار بن منعم بن حابس الهمداني النهمي**: ذكره الشيخ الطوسي وابن شهرآشوب في عداد شهداء الحملة الأولى، وذكره سيدنا الأستاذ الخوئي، والسيد الأمين، وشمس الدين يقول: أتي به أسيراً إلى عمر بن سعد، وتوفي متأثراً بجراحه بعد ستة أشهر.

٥٠ ـ **سويد بن أبي المطاع الخثعمي**: ذكرته أغلب المصادر، وكان آخِر من استشهد بعد مصرع الحسين عليه السلام بقليل، وذلك أنه كان أحد رجلين بقيا مع الحسين، وبارز القوم فصرع ووقع بين القتلى وبه

رمق، فلما سمع الناس يقولون: قتل الحسين، وجد بنفسه إفاقةً ومعه سكيّن، فقاتلهم بسكينه برهة ثم أنه قتل، وكان آخر قتيل. ذكر ذلك الطبري في تاريخه ٥/ ٤٥٣.

٥١ ـ **سيف بن الحارث بن سريع الجابري**: ذكره الطبري والخوارزمي، وورد مصحفاً في الزيارة (شبيب بن الحارث) نصّ عليه الأمين وشمس الدين.

٥٢ ـ **سيف بن مالك العبدي**: وهو من جملة الرجال الذين كانوا يجتمعون في بيت مارية بنت منقذ العبدي في البصرة، وكانت دارها مألفاً للشيعة، ذكر ذلك شمس الدين عن الطبري، ذكر في الزيارة وعند الطوسي، والأمين، وبحر العلوم، وعدّه ابن شهرآشوب في شهداء الحملة الأولى.

٥٣ ـ **شبيب بن عبد الله النهشلي**: ذكره الطوسي، وذكر في الزيارتين، وأورده شمس الدين باسم (حبيب بن عبد الله النهشلي) خطأً مطبعياً، وقال: ربما يكون متحداً مع أبي عمرو النهشلي المتقدم ذكره رقم (١).

٥٤ ـ **شبيب مولى الحارث الجابري**: ذكره السيد الأمين في الأعيان.

٥٥ ـ **شوذب مولى شاكر بن عبد الله الهمداني**: ذكره الطبري والطوسي والخوارزمي، وذكر في الزيارة، واسمه في الرجبية (سويد مولى شاكر) وهو عند الأمين (شوذب مولى بني شاكر) قال شمس الدين في ترجمته: كان من رجال الشيعة ووجوههم، من أعظم الثوار اخلاصاً وحماساً. ذكره بحر العلوم وأورد: أقبل عابس بن أبي شبيب الشاكري

على (شوذب مولى شاكر) فقال له: يا شوذب ما في نفسك أن تصنع؟ فقال: أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله حتى أقتل، فجزّاه عابس خيراً، وقال له: ذلك الظن بك، تقدم بين يدي أبي عبد الله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه، وحتى أحتسبك أنا، فإن هذا يوم نطلب فيه الأجر بكل ما نقدر عليه، فإنه لا عمل بعد اليوم، وإنما هو الحساب. فتقدم شوذب إلى الحسين وسلم عليه، وقاتل بين يديه حتى قتل. ظ: الطبري/ التاريخ ٥/ ٤٤٤.

٥٦ ـ **ضرغامة بن مالك**: ذكره الطوسي، وذكر في الزيارتين، نصّ عليه الأمين وشمس الدين وبحر العلوم. وعدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى، وقيل قتل مبارزة.

٥٧ ـ **عائذ بن مجمع بن عبد الله العائذي**: ذكره السيد الأمين وغيره، قيل خرج مع والده إلى الحسين، التحق به في العذيب، وقاتل أهل الكوفة، وحازه الأعداء مع أصحابه إلى معسكر ابن سعد، فانتدب له العباس ابن أمير المؤمنين فخلصه منهم واستنقذه، ثم قاتل فقتل في أول الحرب.

٥٨ ـ **عابس بن أبي شبيب الشاكري**: ذكرته جميع المصادر والمقاتل، وفي الرجبية اسمه (عابس بن شبيب) ذكر المامقاني أنه كان من رجال الشيعة رئيساً شجاعاً، خطيباً، ناسكاً، متهجداً.

وقال شمس الدين: كان من أعظم الثوار إخلاصاً وحماساً، وكان داعياً، لُمح في كلامه مع مسلم أنه ليس واثقاً من الناس، ولكنه مع ذلك صمم، على الثورة، أرسله مسلم إلى الحسين بالرسالة التي فيها بيعة أهل الكوفة.

وكان نضاله يوم الطف متميزاً إذ فعل الأعاجيب في قتاله للجيش الأموي، ذكروا أنه كان يطرد أكثر من مائتين، تعطف عليه جمع كثير فقتل مبارزة.

٥٩ ـ **عامر بن جليدة أو خليدة**: ذكره شمس الدين في الجدول الثاني عن الرجبية.

٦٠ ـ **عامر بن حسان بن شريح الطائي**: ذُكر مصحفاً عند الطوسي باسم (عمار) صحب الحسين من مكة ولازمه حتى كربلاء، ذكره النجاشي، وفي الزيارتين، وذكره الأمين وشمس الدين وبحر العلوم. استشهد في الحملة الأولى.

٦١ ـ **عامر بن مالك**: ذكره شمس الدين عن الرجبية.

٦٢ ـ **عامر بن مسلم العبدي**: ذُكر في الزيارتين، وعدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى. ذكره الأمين وشمس الدين وبحر العلوم.

٦٣ ـ **عباد بن المهاجر الجهني**: ذكره السيد الأمين في الأعيان.

٦٤ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله بن الكدر (الكدن) الأرحبي**، ذكرته أغلب المصادر، وكان من حملة رسائل أهل الكوفة إلى الحسين. استشهد في الحملة الأولى.

٦٥ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله اليزني**: ذكره ابن شهرآشوب ونسب له رجزاً، ونصّ عليه الخوارزمي والمجلسي، وذكره شمس الدين وبحر العلوم.

٦٦ ـ **عبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري**: ذكرته أغلب المصادر،

وهو أحد الذين كانوا يأخذون البيعة للحسين في الكوفة، يقول شمس الدين: يبدو أنه إحدى الشخصيات البارزة. وهو الذي كان يضاحكه برير بن خضير الهمداني صبيحة عاشوراء استبشاراً بلقاء الله.

٦٧ ـ **عبد الرحمن بن عرزة بن حراق الغفاري**: ذكره الطبري والطوسي والمجلسي، وذكر في الزيارة (ابن عروة بن حراق) وذكر في الرجبية، وأورده الخوارزمي، قال شمس الدين: كان جده حراق من أصحاب أمير المؤمنين، حارب معه في الجمل وصفين والنهروان.

٦٨ ـ **عبد الرحمن بن عروة الغفاري**: ذكره الخوارزمي، ونسب له المجلسي رجزاً في المعركة، ونص عليه السيد الأمين، وحقق فيه شمس الدين.

٦٩ ـ **عبد الرحمن بن يزيد**: ذكره شمس الدين في الجدول الثاني عن الرجبية.

٧٠ ـ **عبد الله بن بشر الخثعمي**: نصّ عليه السيد الأمين في الأعيان.

٧١ ـ **عبد الله بن عرزة بن حراق الغفاري**: ذكر في المصادره التي ذكرت أخاه عبد الرحمن المتقدم ذكره برقم (٦٧) ونص عليه شمس الدين.

٧٢ ـ **عبد الله بن عرزة الغفاري**: ذكره ابن شهرآشوب في عداد شهداء الحملة الأولى، وقد انفرد بذكره، ويرجح التستري اتحاده مع عبد الله بن عرزة، ويشك شمس الدين في كون هذا الاسم يدل على مسمى تاريخي، وذكره في الجدول الثاني.

أقول: ولعله إن دلّ على مسمى تاريخي أن يكون أخاً

لعبد الرحمن بن عروة رقم (٦٨).

٧٣ ـ **عبد الله بن عمير الكلبي**: ذكرته كل المصادر، وعدّه الشيخ شمس الدين:

شاباً مقاتلاً شديد المراس من الكوفة، ومن أعظم الثوار حماساً، وكان القتيل الثاني من أصحاب الحسين، واستشهدت زوجته أم وهب بعد قتله.

قُتل مبارزة، وقد قطعت يده اليمنى وساقه، وقيل أُخذاً سيراً إلى ابن سعد فقتله صبراً، بينما عدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى.

٧٤ ـ **عبد الله بن يزيد بن نبيط (ثبيت) العبدي**: ذكرته أغلب المصادر، خرج مع أبيه وأخيه عبيد الله حين بعث الحسين كتاباً إلى أهل البصرة، دعاهم فيه إلى نصرته، فخرجوا من البصرة والتحقوا بالحسين في مكة.

٧٥ ـ **عبيد الله بن يزيد بن نبيط (ثبيت) العبدي**: أخو عبد الله المذكور قبله، ذكرا سويةً، وأورد ابن شهرآشوب استشهادهما في الحملة الأولى.

٧٦ ـ **عمّار بن أبي سلامة الدالاني**: ورد ذكره في زيارة الناحية نسبة إلى همدان، وبنو دالان بطن من همدان، ذكره السيد الأمين باسم (عمار بن سلامة) ونصّ عليه شمس الدين، وذكره ابن شهرآشوب في شهداء الحملة الأولى.

٧٧ ـ **عمّار بن حسّان بن شريح الطائي**: ورد ذكره في الرجبية، وذكره شمس الدين بلقب (الطافي) وهو خطأ مطبعي، وذكره الأمين

وبحر العلوم، صحب الحسين عليه السلام في مكة، ولازمه إلى كربلاء حتى قتل شهيداً بين يديه كما في المناقب.

٧٨ - **عمران بن كعب بن حارث الأشجعي**: ذكره الطوسي باسم (عمران بن كعب) فقط، وفي الرجبية (عمر بن أبي كعب) وعند الأمين (عمران بن كعب) فقط، وفي الرجبية (عمر بن أبي كعب) وعند الأمين (عمران بن كعب بن حارثة).

قال شمس الدين: والظاهر أن الكل واحد، والاختلاف نتيجة التصحيف.

عدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى.

٧٩ - **عمرو بن جنادة بن الحارث الأنصاري**: ذكرته أغلب المصادر، وكان أبوه جنادة المقتول في الحملة الأولى، والمترجم له برقم (١٦) من هذا الثبت، واسمه هناك جنادة بن كعب بن الحارث، وأوردنا الاختلاف باسمه فيما مضى، كان أبوه قد خرج مع الحسين من مكة، ومعه أم عمرو وولده عمرو هذا، وقد استأذن الحسين في القتال فأبى الحسين أن يأذن له، وقال: هذا غلام قتل أبوه في المعركة، ولعل أمه تكره خروجه، فقال الغلام: إن أمي أمرتني بذلك. فبرز وقاتل حتى قتل، وقد تقدمت قصته في مبحث «نضال الحرائر في المعركة».

٨٠ - **عمرو بن جندب الحضرمي**: ورد ذكره في الزيارة، وهو عند السيد الأمين وشمس الدين (عمر) خطأ مطبعياً لأن شمس الدين ذكره في جدوله من اسمه (عمرو).

وقال السيد بحر العلوم: خرج من الكوفة بعد قتل مسلم بن عقيل، والتحق بالحسين في الطريق، وقتل في الحملة الأولى.

٨١ ـ **عمرو بن خالد الأزدي**: ذكره ابن شهرآشوب والمجلسي، وأورده الخوارزمي، والسيد الأمين، وشمس الدين، ونسب له بحر العلوم رجزاً في المعركة، قُتل مبارزةً، وتقدم ذكر والده برقم (٣٠) من هذا المعجم.

٨٢ ـ **عمرو بن خالد الصيداوي**: ذُكر في الزيارة، وعند الطبري والمجلسي والخوارزمي والسيد الأمين وبحر العلوم، وذكره شمس الدين باسم (عمر) خطأ مطبعياً، والصيداوي نسبة إلى بني الصيداء؛ وهم بطن من أسد.

٨٣ ـ **عمرو بن عبد الله الجندعي**: ذُكر في الزيارة، وعند الأمين، وشمس الدين. وعدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى.

والجندعي: من جندع بن مالك: بطن من هَمْدان.

٨٤ ـ **عمرو بن ضبيعة الضبعي**: ذُكر في الزيارة، وعند الطوسي، والأمين، وشمس الدين، وبحر العلوم، واسمه في الرجبية (ضبيعة بن عمرو).

وعن ابن شهرآشوب (عمرو بن مشيعة) مصحفاً، وعدّه من شهداء الحملة الأولى.

٨٥ ـ **عمرو بن قرضة بن كعب الأنصاري**: ذكرته أغلب المصادر، أرسله الحسين مفاوضاً إلى ابن سعد، فلم يفلح في إقناعه، وعند المعركة وقف أمام الحسين عليه السلام يقيه من العدو، ويتلقى السهام بصدره وبوجهه، فلم يصل إلى الحسين سوء، فلما كثرت فيه الجراح التفت إلى الحسين قائلاً: أوفيت يا ابن رسول الله؟ قال: نعم أنت أمامي في الجنة، فاقرأ رسول الله عني السلام، وأعلمه أني في الأثر،

فقاتل مبارزة حتى قتل. ظ: اللهوف/ ابن طاووس/ ٤٥.

«وكان أخوه علي بن قرضة بن كعب الأنصاري مع عمر بن سعد، فنادى: يا حسين.. أضللت أخي وغررته حتى قتلته. فقال الحسين: إن الله لم يضل أخاك بل هداه وأضلك، قال: قتلني الله إن لم أقتلك، أو أموت دونك، فحمل واعترضه نافع بن هلال الجملي فطعنه وصرعه، فحمله أصحابه فاستنقذوه، وعولج فبرأ» ظ: ابن الأثير/ الكامل ٣/ ٢٩٠.

٨٦ ـ **عمرو بن عبد الله أبو ثمامة الصائدي**: ذكرته أغلب المصادر، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة، وكان يقبض الأموال لمسلم بن عقيل في الكوفة، ويشتري السلاح، عقد له مسلم على ربع تميم وهمدان في معركته حول قصر الإمارة، ولما فشلت الحركة غادر الكوفة إلى الحسين، وفي يوم الطف قال للحسين: إني هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلّف وأراك وحيداً، فقال له الحسين: تقدم فإنا لاحقون بك عن ساعة، فتقدم أمام الحسين حتى أثخن بالجراح، وشد عليه ابن عمه وكان مع ابن سعد فقتله، وذلك بعد قتل الحرّ.

٨٧ ـ **عمرو بن مطاع الجعفي**: ذكره ابن شهرآشوب وأورد له رجزاً في المعركة، وذكره الخوارزمي والأمين وشمس الدين وبحر العلوم. قُتِل مبارزةً.

٨٨ ـ **عمير بن عبد الله المذحجي**: ذكره ابن شهرآشوب، وأورد له رجزاً في المعركة، وذكره الخوارزمي والمجلسي والأمين وشمس الدين وبحر العلوم. قُتِل مبارزةً.

٨٩ ـ **غيلان بن عبد الرحمن**: أورده شمس الدين عن الرجبية.

٩٠ ـ قارب بن عبد الله الدؤلي: وهو مولى الحسين عليه السلام خرج معه من المدينة، واصطحبه إلى كربلاء، ذكر في الزيارة وعند الأمين وشمس الدين والسماوي وبحر العلوم.

قتل في الحملة الأولى.

٩١ ـ قاسط بن زهير التغلبي: ذكر في الزيارتين، وذكره الطوسي باسم (قاسط بن عبد الله) وذكره الأمين وشمس الدين وبحر العلوم. كان من أصحاب أمير المؤمنين والإمام الحسن، وخرج مع أخويه مقسط وكردوس إلى الحسين، وقتلوا معه جميعاً، عدّه ابن شهرآشوب من قتلى الحملة الأولى.

٩٢ ـ القاسم بن الحارث الكاهلي: ذكره الشيخ شمس الدين عن الرجبية، وأدرجه في الجدول الثاني قائلاً: هل يمكن أن يكون متحداً مع القاسم بن حبيب؟.

٩٣ ـ القاسم بن حبيب الأزدي: ذُكر في الزيارتين، وعند الطوسي والأمين وشمس الدين وبحر العلوم. استشهد في الحملة الأولى.

٩٤ ـ قرّة بن أعين قرّة الغفاري: ذكره ابن شهرآشوب والخوارزمي والمجلسي وشمس الدين وبحر العلوم. يبدو أنه كان من الأبطال الأفذاذ المعدودين، إذ برز وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل ثمانية وستين رجلاً في يوم الطف، ثم قتل. نسب له ابن شهرآشوب رجزاً في المعركة.

٩٥ ـ قعنب بن عمرو النمري: ذكر في الزيارة وعند شمس الدين وبحر العلوم، جاء معِ الحجاج السعدي من البصرة إلى الحسين، وقاتل بين يديه مبارزة حتى قُتل.

٩٦ ـ قيس بن عبد الله الهمداني: ذكر في الرجبية، وأورده شمس الدين عنها.

٩٧ ـ كردوس بن زهير (ظهير) التغلبي: ذكر حيث ذكر أخوه قاسط المتقدم ذكره برقم (٩١). استشهد في الحملة الأولى.

٩٨ ـ كنانة بن عتيق التغلبي: ذكر في الزيارتين وعند الطوسي والأمين وشمس الدين وبحر العلوم. عدّه ابن شهرآشوب في شهداء الحملة الأولى.

٩٩ ـ مالك بن دوران: ذكره ابن شهرآشوب وأورد له رجزاً في المعركة، ونصّ عليه الأمين وبحر العلوم، وأورده شمس الدين في الجدول الثاني.

١٠٠ ـ مالك بن عبد بن سريع الجابري: ذكر في الرجبية باسم: (مالك بن عبد الله الجابري) وعند الأمين (مالك بن عبد الله بن سريع الجابري).

١٠١ ـ مجمع بن عبد الله العائذي المذحجي: ذكره الطبري، وورد في الزيارتين ونصّ عليه الأمين وشمس الدين وبحر العلوم. تقدم ذكر ولده عائذ برقم (٥٧).

١٠٢ ـ ١٠٣ مسعود بن الحجاج التميمي وابنه عبد الرحمن: ذكرا في الزيارة معاً، وذكر الأب وحده في الرجبية، وكانا من الشيعة المعروفين، خرجا إلى الحسين من معسكر ابن سعد، ويبدو أنهما خرجا مَعَهُ تعميةً.

قتلا في الحملة الأولى.

١٠٤ ـ مسلم بن عوسجة الأسدي: من أبرز أنصار الحسين، وهو أول قتيل بين يديه بعد شهداء الحملة الأولى، وله مواقف مشهودة يوم الطف، وكان صحابياً جليلاً ممن رأى رسول الله ﷺ وكان يأخذ البيعة في الكوفة للإمام الحسين عليه السلام وهو أحد قوّاد مسلم بن عقيل، عقد له على ربع مذحج وأسد في معركته ضد ابن زياد.

قال شمس الدين: شيخ كبير السن، شخصية أسدية كبرى، إحدى شخصيات الكوفة البارزة. وقال بحر العلوم: كان شريفاً في قومه، صحابياً جليلاً ممن رأى رسول الله وروى عنه، وكان ممن كاتب الحسين من أهل الكوفة، ووفى له بذلك، خرج بأهله متخفياً إلى الحسين، فأدركه في كربلاء، واستشهد بين يديه.

وذكر المجلسي: أنه أول قتيل من أنصار الحسين بعد قتلى الحملة الأولى.

وذكر الطبري: أن الأمويين فرحوا بقتله، فقال شبث بن ربعي: ثكلتكم أمهاتكم؛ أيقتل مثل مسلم وتفرحون؟ لربَّ موقف كريم له في المسلمين، رأيته يوم (أذربيجان) وقد قتل ستة من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلمين. ظ: شمس الدين/ أنصار الحسين/ ٩٣ بحر العلوم/ المقتل ٥٢٦ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٦٩ + الطبري/ التاريخ ٥/ ٤٣٦.

١٠٥ ـ مسلم بن كثير الأزدي الأعرج: ذكره الشيخ الطوسي (أسلم بن كثير) وفي الرجبية (سليمان بن كثير) ورجح شمس الدين اتحادهما مع المترجم له. عدّه ابن شهرآشوب من شهداء الحملة الأولى.

١٠٦ ـ **مسلم بن كناد**: ذكر في الرجبية، أورده شمس الدين في الجدول الثاني.

١٠٧ ـ **مسلم مولى عامر بن مسلم**: ذكر في الرجبية، أورده شمس الدين في الجدول الثاني.

١٠٨ ـ **مقسط بن زهير التغلبي**: خرج مع أخويه قاسط المترجم له برقم (٩١) وكردوس المترجم له برقم (٩٧) واستشهدوا جميعاً.

١٠٩ ـ **منجح مولى الحسين** عليه السلام: ذكره الطبري والطوسي، وذكر في الزيارتين، وأورده الأمين وشمس الدين وبحر العلوم. قُتل مبارزةً.

١١٠ ـ **منيع بن زياد**: أورده شمس الدين في الجدول الثاني لذكر الرجبية له.

١١١ ـ **نافع بن هلال الجملي**: ذكرته جميع المصادر، وفي الزيارة (البجلي) مصحفاً، وهو صاحب الحسين ليلة العاشر من المحرم حينما تفقد التلاع، كان سيداً شريفاً مطاعاً في قومه، قارئاً للقرآن، ومن حملة الحديث الشريف، شارك مع أمير المؤمنين في الجمل وصفين والنهروان، خرج إلى الحسين مع الكوفة بعد مقتل مسلم بن عقيل، ولقيه في طريقه إلى كربلاء، وصحبه حتى المعركة، وجثا بين يدي الحسين عليه السلام ورمى بسهام مسمومة كتب عليها اسمه، فقتل اثني عشر رجلاً سوى المجروحين، وأحاط به الجيش الأموي يرميه بالحجارة والنصال حتى كسروا عضديه، أخذ أسيراً لابن سعد، فقتله شمر بن ذي الجوشن صبراً.

١١٢ ـ **نعمان بن عمرو الراسبي**: ذكره الطوسي، وذكر في

الزيارة، وفي الرجبية بلا نسبة، وأورده السيد الأمين وشمس الدين وبحر العلوم.

عدّه ابن شهرآشوب في شهداء الحملة الأولى.

١١٣ ـ نعيم بن عجلان الأنصاري: ذكره الطوسي، وذكر في الزيارة، وفي الرجبية بلا نسبة، وأورده السيد الأمين وشمس الدين وبحر العلوم.

عدّه ابن شهرآشوب في شهداء الحملة الأولى.

١١٤ ـ واضح التركي، غلام الحرث المذحجي السلماني: وهو عند الأمين: (واضح الرومي مولى الحارث السلماني) جاء مع جنادة بن الحرث وجماعته إلى الحسين، وأورده بحر العلوم. قتل مبارزةً.

١١٥ ـ ١١٦ ـ وهب بن عبد الله بن حباب الكلبي، وأمه أمّ وهب: ذكرت الابن أغلب المصادر، وفي الخوارزمي (وهب بن عبد الله بن جناب) وعند الأمين (وهب بن حباب الكلبي) روي أنه كان نصرانياً فأسلم، وقتل مبارزةً. يرجح شمس الدين: أن وهباً هذا هو ابن لأم وهب زوجة عبد الله بن عمير بن جناب الكلبي الذي تقدم ذكره في هذا الثبت برقم (٧٣) وقد قتلت زوجته أم وهب بنت عبد، وهي عند مصرع زوجها بعد القتل.

١١٧ ـ يحيى بن سليم المازني: ذكره ابن شهرآشوب ونسب له رجزاً في المعركة، وذكره الخوارزمي، ونصّ عليه شمس الدين وبحر العلوم.

١١٨ ـ يزيد بن الحصين الهمداني المشرفي: ذكره الشيخ الطوسي، وذكر في الزيارة، وأورده شمس الدين عنهما.

١١٩ ـ يزيد بن زياد بن مهاصر، أبو الشعثاء الكندي: ذكرته أغلب المصادر، وفي الزيارة (ابن مظاهر) وفي بعض المصادر (ابن مهاجر).

وهو تصحيف، والصحيح فيما يبدو ما ذكرناه.

قيل: إن أبا الشعثاء يزيد بن زياد تحوّل إلى الحسين من معسكر ابن سعد.

وقيل: خرج إلى الحسين من الكوفة قبل أن يلاقيه الحر بن يزيد الرياحي.

وفي يوم الطف جثا على ركبته بين يدي الحسين، ورمى الأعداء بمائة سهم، سقط منها خمسة سهام وأصاب في الباقي، ولما نفدت سهامه، حمل على القوم بسيفه، وقتل مبارزة.

١٢٠ ـ يزيد بن نبيط (ثبيت) العبدي: وفي الأعيان (يزيد بن ثبيط) قدم على الحسين من البصرة مع ولديه عبد الله وعبيد الله المتقدم ذكرهما برقم (٧٤ ـ ٧٥) من هذا المعجم، وكانوا من شيعة أهل البصرة، فاستشهدوا جملة واحدة.

* * *

نتائج المقارنة والتحقيق العملي:

لقد كان ما تقدم هو ما توصلنا إليه نتيجة للمقارنة التاريخية في الاستنتاج، وانتهينا إلى هذا العدد، وهو عدد لا بد أن يسقط منه من اتحد اسمه مع غيره، وهما واحد، وقد يختزل منه بعض من أورده سند

إحادي لا يفيد علماً يقينياً، وينقص فيه ما التبس اسمه بغيره نتيجة التصحيف أو التحريف فدّل على شخصية لا وجود لها تاريخياً.

وعلى هذا فيكون عدد الشهداء، من أنصار الحسين في الطف قد تجاوز المائة بقليل، أو قارب المائة وعشرة أو تجاوزها بقليل، وهو ما يشير إليه البحث العلمي.

ومع جولتنا المضنية في أمهات المصادر والمراجع الأساسية فلربما سقطت بعض الأسماء تاريخياً، وقد يتكرر بعضها جراء التقديم والتأخير في اسم الشهيد واسم والده، وقد يتكرر بعضها نتيجة التصحيف، وقد يعدَّ مستشهداً في أصحاب الحسين من لم يستشهد معه في كربلاء، أو نجا من المعركة صريعاً أو جريحاً أو أسيراً ومات بعد ذلك.

ومع ما تقدم كله، فإن من المقطوع به علمياً أن ما أثبتناه مقارب للواقع في حقائقه العلمية نتيجة التحقيق الدقيق.

وهنا نذكر أن السيد محسن الأمين الحسيني العاملي في كتابه أعيان الشيعة ٤/ أول ٢٩٩ وما بعدها، قد انفرد بذكر جملة ممن اتصلت به أسماؤهم من أنصار الحسين في كربلاء، وهم:

١ ـ **أبو الحتوف بن الحارث الأنصاري.**

٢ ـ **الحارث بن نبهان مولى حمزة.**

٣ ـ **الحباب بن عامر الشعبي.**

٤ ـ **زياد بن عريب الصائدي.**

٥ ـ **سعد بن الحارث الأنصاري.**

٦ ـ **عبد الأعلى بن يزيد الكلبي**: قتله ابن زياد في الكوفة، ولم يستشهد في كربلاء.

٧ ـ **عقبة بن سمعان (أخذ أسيراً ولم يستشهد)**.

٨ ـ **عقبة بن الصلت الهروي**.

٩ ـ **عمارة بن صلخب الأزدي**: قتله ابن زياد في الكوفة، ولم يستشهد في كربلاء.

١٠ ـ **مجمع الجهني**.

١١ ـ **محمد بن بشير الحضرمي**، ويمكن اتحاده مع بشير بن عمرو الحضرمي الذي أسر ولده في الري، وقد تقدم ذكره في المعجم برقم (١٠).

١٢ ـ **يزيد بن معقل الجعفي**:

ولدى التحقيق فبالامكان القول أن بعض هؤلاء كعقبة بن سمعان مثلاً من أنصار الحسين ولكنه أخذ أسيراً ولم يستشهد معه، وبعضهم قد قتل صبراً قبل الطف أو بعده فهو من الشهداء والأنصار، وإن لم يستشهد في كربلاء، كما يمكن اتحاد بعضهم كمحمد بن بشير بن عمرو الحضرمي.

كما أن في الرجبية أسماءً نصّ عليها شمس الدين في الجدول الثاني ذكرنا بعضها في هذا الثبت، وترددنا في ذكر بعضها الآخر، وجميع من تخلّف ذكره عندنا ثلاثة.

١ ـ **حمّاد بن حماد الخزاعي**: لا نعرف عنه شيئاً.

٢ ـ **رميث بن عمرو**: لم يذكر الشيخ الطوسي استشهاده وإن ذكر في الرجبية.

٣ ـ **زائدة بن مهاجر**: ويمكن اتحاده مع يزيد بن زياد بن مهاصر.

وهنا ينبغي أن نشير إلى استشهاد جملة من دعاة ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقد سبقوا أنصار الحسين في الشهادة في غير كربلاء، وهم:

١ ـ **هانيء بن عروة المرادي**: استشهد بالكوفة غدراً، وقتل صبراً بعد مقتل مسلم بن عقيل يوم الثامن من ذي الحجة سنة ستين من الهجرة.

٢ ـ **قيس بن مسهر الصيداوي**: رسول الحسين إلى الكوفة، وقد قتله صبراً ابن زياد، وقد نعي إلى الحسين في الطريق، وتقدم ذكره.

٣ ـ **عبد الله بقطر (يقطر)**: أخو الحسين من الرضاعة ورسوله إلى الكوفة، قتله ابن زياد صبراً، وقد نعي إلى الحسين في زرود، وتقدم ذكره.

٤ ـ **سليمان مولى الحسين، ويكنى بأبي رزين**: رسول الحسين إلى البصرة، سلّمه المنذر بن الجارود العبدي إلى ابن زياد، لأن المنذر خاف أن يكون الكتاب الذي معه دسيساً من ابن زياد، فأخذ ابن زياد فصلبه إعداماً، عشية الليلة التي غادر فيها البصرة إلى الكوفة والياً عليها. ظ الأمين/ الأعيان ٤/ ١٩٧.

٥ ـ **عبد الأعلى بن يزيد الكلبي**: شاب كوفي نهض مع مسلم لدى حركته لاستنقاذ هانيء بن عروة، فأخذ لابن زياد فحبسه، ثم استخرجه بعد أن استحلفه أنه لم يخرج عليه، فأبى الحلف كاذباً، فقال ابن زياد:

انطلقوا بهذا إلى جبانة السبع فاضربوا عنقه، فانطلقوا به فضربت عنقه صبراً. ظ. شمس الدين/ الأنصار/ ١٠٦.

٦ ـ **عمارة بن صلخب الأزدي**: من شباب الكوفة الثائرين، خرج لنصرة مسلم فقبض عليه وحبس، ثم دعا به ابن زياد بعد قتل مسلم، فقال له: فمن أنت، قال من الأزد. قال انطلقوا به إلى قومه، واضربوا عنقه هناك، فانطلقوا وضربت عنقه فيهم. ظ الطبري/ التاريخ ٥/ ٣٧٩.

وهؤلاء الستة يضافون إلى قائمة الشهداء دون شك، فقد قتلوا في سبيل ثورة الحسين، وقد سبقوا بقية الأنصار إلى الاستشهاد.

ولا أشك أن التاريخ قد ضنَّ علينا بكوكبة من الأسماء ولم تتصل بنا أخبارها، ولم تصل إلينا أنباؤها، ولكن أصحابها هم الخالدون في سجل السماء، وإن لم يُثبتوا في سجل الأرض.

لهذا فلا نبعد إذا اعتبرنا أنصار الحسين عليه السلام خلاصة الكون في العقيدة، ونخبة العالم في الثبات، وحماة الإسلام بالفداء، بما لمسناه من بطولتهم ورجولتهم وتضحيتهم، وبما قرأناه من أحاديثهم وسيرتهم وأخبارهم، كتبنا الله في زمرتهم.

وإذ خلا الميدان من هؤلاء القادة المستميتين، وتهاووا إلى الأرض هوي كواكب السماء، فإننا نجد الميدان معتمراً من جديد بأبناء أبي طالب وأحفاده من الهاشميين وأهل البيت عليهم السلام فتلتهب سماء الثورة التهاباً دامياً يبدأ بمصارعهم، وينتهي بمصرع سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

شهداء بني هاشم

أ ـ أبناء أبي طالب في الميدان:

استقبل ميدان الطف أبناء أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وأحفاده، بعد مصارع أنصار الحسين كافةً، إذ لم يبق مع الحسين سوى أهل بيته، وهم ولد أمير المؤمنين عليه السلام وولد جعفر الطيّار، وولد عقيل، وولد الحسن والحسين عليه السلام.

وقد اختلف المؤرخون في عدد المستشهدين منهم مع الحسين على أقوال:

قيل: إنهم سبعة عشر غير الحسين عليه السلام[1]

وقيل: إنهم تسعة عشر غير الحسين عليه السلام[2]

وقيل: إنهم عشرون غير الحسين عليه السلام[3]

وقيل: إنهم اثنان وعشرون مع الحسين ومسلم بن عقيل[4].

وقيل: إنهم ثلاثة وعشرون باستثناء الحسين ومسلم[5].

وقيل: إنهم أكثر من هذا العدد بقليل[6].

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٦٥.
(٢) ظ: ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٢٥٥.
(٣) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٨٢.
(٤) ظ: الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٦٧.
(٥) ظ: المقريزي/ الخطط ٢/ ٢٨٦.
(٦) ظ: ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ١٢.

وقيل: إنهم أقلّ من هذا العدد بقليل أيضاً[1].

ومهما يكن من أمر، فإن المقارنة السليمة بين النصوص والوقائع والأسماء، والمسح الميداني لساحة القتال، والتحقيق في ثبت فصائل المقاتلين، والإلمام التاريخي بسير المعركة وخطبها وأراجيزها، يقتضي كل ذلك أن يكون عدد شهداء الهاشميين: اثنين وعشرين شهيداً مع الحسين عليه السلام عدا مسلم بن عقيل[2].

وبالإمكان تصنيف الشهداء تصنيفاً نسبياً على الوجه الآتي:

أولاً: أبناء أمير المؤمنين، وهم:

١ ـ الحسين بن علي بن أبي طالب، قائد الثورة.

٢ ـ العباس بن علي بن أبي طالب، حامل اللواء.

٣ ـ عبد الله بن علي بن أبي طالب.

٤ ـ عثمان بن علي بن أبي طالب.

٥ ـ جعفر بن علي بن أبي طالب.

٦ ـ أبو بكر بن علي بن أبي طالب.

٧ ـ محمد الأصغر بن علي بن أبي طالب.

فهؤلاء جميعاً أولاد أمير المؤمنين عليه السلام الصلبيين، والحسين منهم وحده ابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين.

والعباس وأشقاؤه الثلاثة: عبد الله، وجعفر، وعثمان. أمهم أمّ

---

(١) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٧١.

(٢) ظ: ابن عنبة/ عمدة الطالب/ ٧٨.

البنين: فاطمة بنت حزام الكلابية.

وأبو بكر: أمه ليلى بنت مسعود النهشلية.

ومحمد الأصغر: أمه أسماء بنت عميس، وقيل: أمه أم ولد.

ثانياً: أبناء الحسن ابن أمير المؤمنين، حضر منهم الطف أربعة أولاد استشهدوا كلّهم إلا الأول.

١ ـ **الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب**: سقط جريحاً في المعركة، ونجا فيما بعد بشفاعة أسماء بن خارجة الفزاري.

٢ ـ **عبد الله الأكبر بن الحسن بن علي بن أبي طالب**.

٣ ـ **عبد الله الأصغر بن الحسن بن علي بن أبي طالب**.

٤ ـ **القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب**.

ثالثاً: أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب:

١ ـ **علي الأكبر**: وأمه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي.

٢ ـ **عبد الله الرضيع**: وأمه الرباب بنت امرىء القيس الكلبي.

رابعاً: أبناء عبد الله بن جعفر الطيّار:

١ ـ **عون بن عبد الله بن جعفر الطيّار**: أمه زينب ابنة أمير المؤمنين.

٢ ـ **محمد بن عبد الله بن جعفر الطيّار**: أمه الخوصا بنت حفصة من ثقيف.

خامساً: أبناء عقيل بن أبي طالب وأحفاده.

١ ـ **عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب**: أمه رقيّة ابنة أمير المؤمنين.

٢ ـ **محمد بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب**.

٣ ـ **جعفر بن عقيل بن أبي طالب**.

٤ ـ **عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب**.

٥ ـ **عبد الله الأكبر ابن عقيل بن أبي طالب**.

٦ ـ **محمد بن عقيل بن أبي طالب**.

٧ ـ **جعفر بن محمد بن عقيل بن أبي طالب**.

٨ ـ **محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب**.

فهؤلاء جميعاً: اثنان وعشرون شهيداً، فإذا أضفت إليهم عميد آل عقيل: مسلم بن عقيل، أصبح شهداء بني هاشم في الطف والكوفة ثلاثة وعشرين شهيداً ليس غير[١].

ولا ندّعي أن هذا العدد مما لا شك معه، فإننا نحتمل الوقوع في الخطأ، فيكون العدد أكثر من هذا بقليل أو أقل منه بقليل، أو أن تكون بعض الأسماء غير ما ذكرنا، فاختلط علينا ذلك. ولكن ما قدمناه جاء نتيجة للتحقيق العلمي الدقيق، فإن لم يكن العدد على وجه الأمر

---

(١) ظ: في ثبت هذه الأسماء وقارن في كلٍ من: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/٤٦٨ الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين ٦٦ وما بعدها + ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٢٥٥ وما بعدها + المفيد/ الإرشاد ٢٢٣ وما بعدها + الأمين/ أعيان الشيعة ٤/ أو /٢٩٨ وما بعدها.

المقطوع به، فلا أقلّ من أن يكون على وجه التقريب المحتمل جداً.

وهنا نشير أن السيد الأمين في الأعيان، قد ذكر أن من اتصلت به أسماؤهم من الشهداء من بني هاشم هم ثلاثون شهيداً، هم من ذكرناهم آنفاً مع مسلم بن عقيل عليه السلام، وأضاف لهم سبعة آخرين[1].

ب ـ شمس الدين يحقق في الأسماء:

وقد عقد الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه القيّم «أنصار الحسين» مبحثاً في الموضوع بعنوان: (أسماء شهداء كربلاء من بني هاشم) ثبت لديه فيه في ضوء التحقيق العلمي: أن الذين استشهدوا في كربلاء من بني هاشم عدا الحسين عليه السلام سبعة عشر شهيداً، لإجماع المصادر الأساسية على ذكرهم، وهم:

١ ـ علي بن الحسين الأكبر.

٢ ـ عبد الله بن علي بن أبي طالب.

٣ ـ جعفر بن علي بن أبي طالب.

٤ ـ عثمان بن علي بن أبي طالب.

٥ ـ محمد الأصغر ابن علي بن أبي طالب.

٦ ـ العباس بن علي بن أبي طالب.

٧ ـ عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

٨ ـ أبو بكر بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

---

(١) ظ الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٩٨ وما بعدها.

٩ ـ القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

١٠ ـ عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

١١ ـ عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

١٢ ـ محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

١٣ ـ جعفر بن عقيل بن أبي طالب.

١٤ ـ عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب.

١٥ ـ عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب.

١٦ ـ عبد الله بن عقيل بن أبي طالب.

١٧ ـ محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب[١].

وقد عقب على ذلك بقوله: «هؤلاء السبعة عشرهم الذين ثبت عندنا أنهم استشهدوا في كربلاء من بني هاشم، لإجماع المصادر الأساسية على ذكرهم. أما من عداهم فسنستعرض أسماءهم فيما يلي مع شكنا في كونهم ممن رزق الشهادة مع الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام في كربلاء. ونقدر أن بعضهم قد استشهد في مواقع أخرى متأخرة، واختلط أمره على أصحاب الأخبار والمؤرخين، مع احتمال أن يكون رأينا في عدد الشهداء السبعة عشر وأسمائهم خطأً أيضاً، وأن يكون العدد أكثر مما ذكرنا، وأن تكون بعض الأسماء غير ما ذكرنا»[٢].

وأما الأسماء التي شك شمس الدين في استشهاد أصحابها مع

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ أنصار الحسين ١١١ ـ ١١٦.

(٢) المرجع نفسه: ١١٧.

الحسين في كربلاء، ولم يقطع بأنهم من الشهداء، فهم عشرة.

١ ـ **أبو بكر بن علي بن أبي طالب.**

٢ ـ **عبيد الله بن جعفر بن أبي طالب.**

٣ ـ **محمد بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب.**

٤ ـ **عبد الله بن علي بن أبي طالب.**

٥ ـ **عمر بن علي بن أبي طالب.**

٦ ـ **غلام في أذنيه قرطان.**

٧ ـ **إبراهيم بن علي بن أبي طالب.**

٨ ـ **عمر بن الحسن بن علي بن أبي طالب.**

٩ ـ **محمد بن عقيل بن أبي طالب.**

١٠ ـ **جعفر بن محمد بن عقيل بن أبي طالب**[1].

وهؤلاء الذين ذكرهم هنا، مجموع ما يشك باستشهاده من بني هاشم، إلا أن أربعة من هؤلاء ذكرهم أكثر من مؤرخ واحد وهم:

١ ـ **أبو بكر بن علي بن أبي طالب.**

٢ ـ **عبد الله بن علي بن أبي طالب.**

٣ ـ **محمد بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب.**

ويُرجح أن يكون ما يذكره أكثر من مؤرخ، مما يعتد به عادة عند المؤرخين، فإذا أضفنا هذا العدد وهو أربعة شهداء، إلى ما ثبت لديه

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ أنصار الحسين ١١٧ ـ ١١٩.

وهم سبعة عشر شهيداً، أصبح مجموع الشهداء واحداً وعشرين شهيداً، وإذا أضفنا هذا العدد إلى الإمام الحسين سيدهم، ومسلم بن عقيل رائدهم، كان المجموع ثلاثة وعشرين شهيداً، اثنان وعشرون منهم في كربلاء، ومسلم بن عقيل وحده في الكوفة الغرّاء.

إن هذا العدد فيما أرى يوافق نتيجة البحث العلمي جملة من المؤرخين الذين يقاربوه إن لم يتزيدوا عليه، وهو مقارب لما عند الطبري في تاريخه[١].

ومقارب لما عند أبي الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين[٢].

وهو نفسه عند المقريزي باستثناء الحسين ومسلم بن عقيل[٣].

وهو ضمن العدد الذي ذهب إليه الخوارزمي[٤].

وتؤيد هذا كله رواية معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عليه السلام كما في كامل الزيارات لابن قولويه من أنهم مع مواليهم ثلاثون شهيداً، ومواليهم أقل العشرة[٥].

ج ـ عنصر المأساة في مصارع الهاشميين:

ومهما يكن من أمر فقد ضرب هؤلاء الفتية من بني هاشم أروع أمثلة البطولة في طف كربلاء، ولقد سجّل لهم التاريخ أطرف ما في صحائفه من مواقف أصيلة.

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٨٢.
(٢) ظ: الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٦٧ وما بعدها.
(٣) ظ: المقريزي/ الخطط ٢/ ٢٨٦.
(٤) ظ: الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٤٧.
(٥) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٥٨١ وانظر مصادره.

وهنا يبرز على الساحة عنصر المأساة الدامية في كثير من الأبعاد التي تجدد الأسى والحزن الشامل مدى الأجيال لا من أجل استعداد العواطف الجياشة فهي ماثلة للعيان، بل بإزاء تقرير الوقائع الفظيعة التي عانى منها أهل البيت في أنفسهم وأبنائهم، فأورثت الحزن العميق، ورددت اللحن الشجي، وفوق هذا وذاك فقد رسّخت روح النضال، وعمقت مبادىء التضحية.

ولا أريد أن أقف بك على فظائع ما جرى في المعركة بتفصيلاته فهذا ما لا تسمح به طبيعة الموضوع، ولا أريد تتبع الجزئيات فيما حدث لأبناء أبي طالب، ولكنني أكتفي بنموذجين في بعض الملامح العامة دون التدقيق، وأتبعهما بلمحات شاردة مما أصاب قائد الثورة قبل استشهاده، وعند استشهاده، وبعد استشهاده.

١ - كان علي بن الحسين الأكبر أول هذا الركب الطلائعي الزاحف إلى ميدان الكرامة يوم الطف، فقد استأذن أباه بالقتال فأذن له، ونظر إليه نظر آيسٍ منه، وأرخى عينيه بالبكاء، ثم رفع سبابته نحو السماء وقال: «**اللّهمّ كُنْ أَنْتَ الشَهيدَ عَلَيهِمْ فَقَدْ بَرَزَ إِليهِمْ غُلامٌ أشبَهَ الناسِ خُلقاً وَخُلُقاً وَمَنْطِقاً بِرَسُولِكَ، وَكُنّا إذا اشْتَقْنَا إلى نَبِيّكَ نَظَرْنَا إلَيهِ، اللّهم امْنَعْهُمْ بَرَكَاتِ الأرض، وفرِّقْهُمْ تَفريقاً، وَمَزِّقْهُمْ تَمْزِيقاً، وَاجْعَلْهُمْ طَرائِقَ قِدَداً، وَلا تُرْضِي الوُلاةَ عَنْهُمْ أبَداً، فَإِنّهُمْ دَعَوْنا لِيَنْصُرُونا، ثُمَّ عَدَوْا عَلَينا يُقاتِلُوننا**» ثم صاحَ «**يا ابنَ سَعْدٍ: قَطَعَ اللهُ رَحِمَكَ، ولا بارَكَ لَكَ في أمرِكَ، وَسَلَّطَ عَلَيكَ مَنْ يَذْبحُكَ بَعْدِي عَلى فِراشِكَ، كَمَا قَطَعْتَ رَحِمِي، وَلَمْ تحْفَظْ قرابَتي مِنْ رَسُولِ اللهِ**»[1].

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٨٣.

ثم رفع الحسين عليه السلام صوته وتلا قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

بهذا المطلّع الشجي افتتح أهل البيت القتال لأنفسهم يوم الطف، وبهذا العطاء النموذجي الفياض شيّع الحسين ولده الأكبر للميدان، وقدّمه قرباناً لتلك المبادىء السامية، فالحمل الثقيل لا ينهض به إلا أهله، على حد تعبير عليّ الأكبر نفسه كما في بعض الروايات.

روى المؤرخون المحايدون أن علياً الأكبر قد شدّ على الجيش الأموي مراراً، وعاودهم تكراراً، طاعن بالرمح، وضرب بالسيف، وأعاد إلى الذاكرة الحربية شجاعة جده أمير المؤمنين حين قاتل المشركين والناكثين والقاسطين والمارقين، وهؤلاء بقاياهم في الانحراف عن حضيرة الدين، «ولقد بلغت حملاته اثنتي عشرة حملةً، وقتل على عطشه مائة وعشرين رجلاً»[2].

ولم تكن هذه المقدرة الحربية وليدة انفعال وقتي أملته ساعة الحرب، وإنما هي حصيلة تراكم عقائدي عتيد ناءت بحمله الأعباء تنفجر ساعة القتال كالصاعقة التي لا تبقي ولا تذر، وقد يقال بأن ذلك أمر مبالغ فيه، ولكن نظرة فاحصة فيما قابله به الجيش الأموي حينما افترقوا عليه فرقاً متعددة من كل جانب توحي بصحة هذا الرقم الفريد، ولسنا في سبيل الإثبات لهذه الحقائق بقدر ما نحاول القاء الضوء على هذه البطولة الفريدة، ولكن الذي يدمي القلوب مرارة ولوعة أن العطش

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٣٠.

قد اشتد به، وهو في حرارة الشمس المحرقة، وفي ثقل الحديد المجهد، ويتوجه إلى الحسين بالقول:

«أبه: العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة ماءٍ من سبيل، أتقوّى بها على الأعداء»[1].

فالتاع الحسين التياعاً شديداً، وانفجر بالبكاء على رباطة جأشه، ووعده وعداً حسناً يلقاه عند جدّه رسول الله، وقال:

«واغوثاهُ! ! مِنْ أينَ آتِي لَكَ بالماءِ، قاتِلْ قَلِيلاً، فما أَسْرَعَ مَا تَلْقَى جَدّكَ رسُول الله، فَيَسْقِيكَ بِكأسِهِ الأَوْفى شِربَةً لا تَظْمَأ بَعْدَها أَبَدَاً»[2].

ورجع الأكبر إلى الميدان آيساً من الحياة، وعازماً على الموت، وقاتل أعظم القتال وأروعه، حتى قتل على عطشه تمام المائتين[3].

هذه البسالة النادرة منيت بردّة فعل معاكسة من قبل الأعداء، فالتفوا عليه في حملات منظمّة من كل الجهات، وخبطوه بالسيوف، فقطعوه إرباً إرباً.

ولا تسل عن تفصيلات مصرعه الشريف، فذلك ما لا أطيق بيانه. وعند مقتل علي الأكبر تداعى أبناء أمير المؤمنين، وأبناء عقيل، وأبناء عبد الله بن جعفر، وحملوا في الميدان حملات عنيفة وعديدة، بلغ تأثيرها أنْ لم يبق بيت في الكوفة إلا وفيه ناعٍ أو ناعية على القتلى، حتى تهاووا جميعاً إلى الأرض في سبيل الله تعالى، وأبيدوا إبادةً شاملةً على الصعيد، وكانوا يبرزون واحداً واحداً. أو يخطبون فيقتلون ويُقتلون،

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٣١.

(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٧.

(٣) الخوارزمي/ مقتل الحسين ١/ ٣١.

حتى فاضت أرواحهم الطاهرة، والحسين بصلابة ينقلهم أو يأمر بنقل أجسادهم إلى مخيمّ خاص.

٢ ـ وكان آخر من استشهد من أهل البيت قبل الحسين عليه السلام هو العباس ابن أمير المؤمنين، صاحب لواء الحسين، وقائد عسكره، وعيبة سرِّه، ومستودع ثقله، ورئيس أركان حربه.

وكان عمر العباس يوم الطف أربعة وثلاثين عاماً، وكان بطلاً شجاعاً، وفارساً معدوداً، وورعاً تقياً، وعالماً جليلاً، وثائراً مقداماً، لا يخاف الموت، ولا يرهب الأعداء، فلما رأى إخوته وأبناء عمومته، وأصحاب إمامه صرعى على صعيد الطف، نفد صبره، وقال للحسين: «أخي قد ضاق صدري، وسئمت من الحياة، وأريد أن آخذ بثأري من هؤلاء المنافقين»[١].

وكان العطش قد أثر بالحسين وأطفاله وأهل بيته تأثيراً بالغاً، إذ حال الجيش المقاتل بينهم وبين الماء قبل المعركة بثلاثة أيام[٢].

فأذن له الحسين على أن يأتي بالماء إلى الحرم والأطفال، فقصد العباس الفرات، فأحاط به أربعة آلاف كانوا موكلين بالفرات، ودارت بينهما معركة عنيفة، فكشفهم عن وجهه، وقتل منهم ثمانين فارساً، وامتلك الفرات، فاغترف من الماء غرفة، وأدناه من فمه، فتذكر عطش الحسين وآل الحسين، فرمى الماء من يده[٣].

وكانت مواساة العباس مثلاً من أمثلة المواساة الفريدة في التاريخ.

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٤١.
(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ١٧٢.
(٣) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٤١.

وحينما حاول العباس مستميتاً إيصال الماء إلى الحسين عليه السلام قطعوا عليه الطريق، وأحاطوا به، وتكاثروا عليه، فقاتلهم قتال الأبطال وحده، فاحتشدوا عليه زرافات ووحداناً، فمثلوا به تمثيلاً شنيعاً، قطع الأيدي، ورضخ الرأس، وتوزيع الأعضاء، وقد أدركه الحسين في مثل هذا الحال، ولا تسل عن مشهد الحزن والأسى، فهو أكبر من التصوير، ولا تسل عن جرح الحسين ولوعته، ويكفيك قوله:

«الآن انكَسَرَ ظَهْرِي، وَقَلّت حِيلتي، وَشَمَتَ بِي عَدوّي»[١].

د ـ الحسين يناضل وحيداً حتى الاستشهاد:

وباستشهاد أنصار الحسين وأهل بيته، بقي الحسين وحيداً في كربلاء، يناضل الهموم والأحزان كما يناضل الأعداء والطغاة، يسوءه انحدار هذا الخلق إلى الهاوية، ويؤرقه غياب الوعي الديني، ويشغله مصير الحرم المؤلم، فينادي:

«هَلْ مِنْ ذابٍّ عَنْ حرم رَسُولِ اللهِ؟ هَلْ مِنْ مُوَحِدٍ يَخافُ الله فِينا؟ هَلْ مِنْ مُغِيثٍ يرجو الله في إغاثتنا؟»[٢].

وذهب نداؤه أدراج الرياح، فما أغاثه أحد إلاّ الأصداء متجاوبة في صحراء كربلاء، وأخذ بتوديع حرمه، واستدعى عبد الله الرضيع ليودعه، وكان قد أثر به العطش، فاستسقى له الماء، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه في حجر أبيه، فتلقى الحسين دمه بكفه

(١) الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٣٠.
(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٤٩.

ورمى به نحو السماء[1].

وقال: «**هَوّن ما نَزَل بِي أنّهُ بعين اللهِ، اللَّهُمَ لا يَكُنْ عَلَيكَ أَهْوَنَ من فصيل، اللَّهُمَ إنْ كنتَ حَبَسْتَ عَنَّا النصر، فاجعلْهُ لِما هُوَ خيرٌ مِنْهُ، وانتقِمْ لَنَا مِنَ الظالِمينَ، واجعلْ ما حَلَّ بِنا في العَاجِلِ ذَخِيرةٌ لَنا في الآجِلِ**»[2].

ثم أن الحسين وجد التضحية بنفسه هي المنزع الأخير لإعزاز دين الله، فحمل على الميمنة مستقتلاً، فلم يزل يقاتل جاداً حتى قتل من القوم مقتلة عظيمة[3].

قال من حضر المعركة «فوالله ما رأيت مكثوراً قط، قد قتل ولده وأهل بيته وصحبه، أربط جأشاً منه، ولا أمضى جَناناً، وأجرأ مقدماً، ولم أرَ قبله ولا بعده مثله، ولقد كانت الرجال لتشد عليه، فيشد عليها، فتنكشف بين يديه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب»[4].

ونادى عمر بن سعد: «الويل لكم، أتدرون لمن تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب، احملوا عليه من كل جانب»[5].

وبدلاً من أن يتجهوا نحو الحسين في القتال، هجموا على النساء، وحالوا بين الحسين وبين رحله، فصاح بهم الحسين موبّخاً ومذكّراً:

«**وَيَحكُمْ يا شِيعَةَ آلِ أبي سفيانَ، إنْ لَمْ يَكُنْ لكم دينٌ، وَكُنتُمْ لا**

---

(١) ظ: الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٣٢.

(٢) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٦٦ + ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ١٠٩.

(٣) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٢٩٠.

(٤) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥٢.

(٥) ابن شهرآشوب/ المناقب ٤/ ١١٠.

تَخافُونَ المَعادَ، فَكُونُوا أحراراً في دُنياكُمْ، وارجعُوا إلى أحسابكم إن كُنتُمْ عَرَباً كما تَزْعَمُونَ»[1].

ويمكننا إلقاء الضوء على ما تقدم من روايات:

١ ـ نزعت الرحمة من قلوب القوم حتى قتلوا طفل الحسين الرضيع بين يديه.

٢ ـ أكد الحسين أن النصر الفعلي قد حبس عنه، فتحدث عن النصر المستقبلي، وهو ملحظ مهمّ في الاعتبار العسكري، وطلب من الله أن يجعل ذلك ذخيرة له آجلاً.

٣ ـ وصف مَنْ حضر المعركة بأن لم ير كالحسين مكثوراً قط، والمكثور من فقد ولده وأهله وأنصاره، في شجاعة الحسين وبسالته ورباطة جأشه.

٤ ـ رعب الجيش المقاتل من الحسين أدى إلى نداء ابن سعد ببيان الحقيقة الصادقة، فالحسين ابن الأنزع البطين الذي تهابه الفرسان، وهو قتال العرب، وابنه مثله، فما عليهم إلا أن يحملوا عليه من كل جانب.

٥ ـ فظاظة الجيش الأموي بحيث هجموا على العيال، وهذا ما تأباه الغيرة العربية فوبخهم الحسين وأنذرهم، وشكك في عروبتهم في هذا الملحظ.

فمن خلال نزعات الجيش الأموي في الحقد والكراهية أدرك الحسين جيداً ما سيلقاه الحرم والصبية من المتاعب والمصاعب

---

(١) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول / ٢٩٤.

والآلام، وما سيصب عليهم من البلاء العاجل على أيدي هؤلاء الجفاة، فودعهم الوداع الأخير، وأوصاهم!

«اسْتَعِدُوا لِلبَلاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله تَعالى حامِيكُمْ وحافِظَكُمْ، وسَيُنْجيكُمْ مِنْ شرِّ الأعْداءِ، وَيجْعَلُ عاقِبةَ أمْرِكُمْ إلى خيَر، وَيُعَذِّبُ عَدَوكُمْ بأنواعِ العَذابِ، وَيُعَوِضَكُمْ مَنْ هذِهِ البَلِيَّةِ بأنْواعِ النِعَمِ والكَرامةِ، فلا تَشْكُوا، وَلا تَقُولوا بألسِنَتِكُمْ ما يُنقِصُ مِنْ قَدرِكُمْ»[1].

ويبدو أن الجيش الأموي قد استغل هذه اللحظات الحاسمة، فحملوا عليه يرمونه بالسهام حتى تخالفت السهام بين أطناب المخيم، وحمل عليهم الحسين عليه السلام، والسهام تأخذه من كل جانب وهو يتقيها بصدره ونحره، ونادى بهم **«يا أُمَّةَ السُوءِ، بِئْسَمَا خَلَفْتُمْ مُحَمَداً في عِتْرَتِهِ، أَمَا أنَكُمْ لَنْ تقْتِلُوا بَعْدِي عَبْداً مِنْ عِبادِ اللهِ، فَتَهابُوا قَتلَهُ، بَلْ يَهُونُ عَلَيْكُمْ ذلِكَ عِندَ قَتْلِكُمْ إيّايَ، وأيْمُ اللهِ إنّي لأَرْجُو أَنْ يُكْرِمَني اللهُ بالشَهادِةِ، ثُم يَنتَقِمُ لِي مِنكُمْ مِنْ حَيثُ لا تَشعُرُونَ»**.

ويبدو أن هذا النداء كان ملحظ تفكير عند القوم، فهم يعلمون من هو الحسين، وهم يدركون أن دعاءه قد يستجاب، فناداه الحصين بن مالك السكوني: وبماذا ينتقم لك مِنّا يا ابن فاطمة؟ فقال الحسين:

«يُلْقي بأْسَكُمْ بَينكُمْ، وَيَسفِكُ دِماءَكُمْ، ثم يَصّبُ عَلَيكُمْ العَذابَ الأَليمَ»[2].

ثم أن الحسين عليه السلام برز إلى القوم، وكان مهابَ الحملة، فما

---

(١) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٥٩٥ وانظر مصادره.

(٢) الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٣٤.

ضرب أحداً بسيفه إلاّ قتله، ولا طعنه برمحه إلا صرعه، وكان هذا شأنه فيهم.

وصدرت التعليمات إلى الجيش المقاتل، فكانوا عليه أربعة أصناف: ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، ورمياً بالسهام، ورضخاً بالحجارة.

وصمد الحسين لذلك حتى أصابته جراحات كثيرة تفوق حد التصور، حتى لقد روي أنها كانت ألف وتسعمائة جراحة، وكانت السهام في درعه كالشوك في جلد القنفذ(١).

وكان الذي يحزُّ في النفس أن قد اشتد به العطش وهو في ظل هذا التطويق الكامل، حتى لقد روي أن العطش قد أثر منه في ثلاثة مواضع: في عينيه، فأصبح يرى ما بين السماء والأرض كالدخان، وفي لسانه، حتى عاد كالخشبة اليابسة، وفي قلبه حتى عاد كالحديدة المحماة.

ولا أريد أن أحدثك بما جرى عليه من رمي السهام، وطعن الرماح، وضرب السيوف، فقد أثبتُّ ذلك ثم حذفته، وقد تكفل أرباب المقاتل بذكر تفصيلاته.

وحينما ضعف الحسين عن القتال بعد إصابته بسهم محدد ذي ثلاث شعب، رفع رأسه إلى السماء قائلاً:

«إلهي إنّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقتلُونَ رَجلاً لَيسَ عَلَى وَجهِ الأرضِ ابنُ نَبيّ غَيرُهُ»(٢).

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٥٢.

(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٥٠.

وحينما تناول دمه بين يديه، خضب به وجهه ورأسه وقال: «**هكَذا أَكُونُ حَتَى أَلْقَى اللهَ، وَجَدِّي رسُول اللهِ، وأنا مخضوبٌ بدمي**»[1].

وضعف الحسين عليه السلام عن القتال، فقاتل جالساً، ثم مكث صدراً من النهار مطروحاً على الأرض، وقد سالت جراحاته دماً عبيطاً، وكان قد أعيا، ولو شاؤوا أن يقتلوه لفعلوا، إلا أن كل قبيلة تتكل على الأخرى، وتكره الإقدام عليه[2].

وأخيراً انتدب له من أغلب العشائر العربية فرسان الهجوم النهائي عليه، وكان شبيهاً بهجوم قريش على رسول الله في الدار ليلة الهجرة وقد أناب علياً مكانه.

وكان هؤلاء الأوغاد يمثلون النزعة التي لا مثيل لها في التاريخ، ويجسدون حقيقة الحقد الانتقامي المحموم، وقد تولى كبر ذلك المجرمون التالية أسماؤهم:

١ ـ شمر بن ذي الجوشن الضبابي.

٢ ـ مالك بن النسر الكندي.

٣ ـ أبو الحتوف الجعفي.

٤ ـ زرعة بن شريك التميمي.

٥ ـ سنان بن أنس النخعي.

٦ ـ صالح بن وهب المزني.

٧ ـ نصر بن جرشة.

---

(١) الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٣٤.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥٢.

٨ ـ **الحصين بن تميم**.

فما ترك هؤلاء نوعاً من التمثيل إلا فعلوه، حتى كأنهم اقتطعوه غنائم، فتولى كل رجس منهم حصته من الغنيمة[١].

وما اكتفى الجيش الجافي حتى سلب الحسين كل شيء بعد القتل، وقد تولى سلبه كل من:

١ ـ **عمر بن سعد بن أبي وقاص**.

٢ ـ **إسحاق بن حوية الحضرمي**.

٣ ـ **الأخنس بن مرثد الحضرمي**.

٤ ـ **أبحر بن كعب التميمي**.

٥ ـ **قيس بن الأشعث الكندي**.

٦ ـ **جعونة بن حويه**.

٧ ـ **جميع بن الخلق الأودي**.

٨ ـ **الأسود بن خالد الأودي**.

٩ ـ **بجدل بن سليم الكلبي**.

١٠ ـ **الرحيل بن خيثمة الجعفي**.

١١ ـ **هاني بن ثبيت الحضرمي**.

---

(١) ظ: تفصيلات ما قام به كل من هؤلاء في: البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ٢٠٣ + ابن طاووس/ اللهوف ٥٢ + الخوارزمي/ مقتل الحسين/ ٢/ ٥ + ابن شهرآشوب، المناقب ٤/ ١١١ + المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ٥٦ + الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥.

١٢ ـ جرير بن مسعود الحضرمي.

وآخر ثلاثة من هؤلاء قاموا بنهب الفرش والحلل[١].

وما اكتفى الجيش الأموي بهذا كله حتى مال إلى ثقله ومتاعه، وانتهبوا جميع ما في مخيمات الحسين كافةً، حتى انتزعوا الحلي من النساء[٢].

بعد ذلك عمدوا إلى إضرام النار بمخيمات الحسين، ففرت النساء في البيداء[٣].

وما اكتفوا بكل هذا حتى ابتدعوا ظاهرتين جديدتين في التاريخ الإسلامي.

الأولى: رض جسد الحسين، صدره وظهره بحوافر الخيل[٤].

الثانية: قطع ثمانية وسبعين رأساً من الشهداء بعد القتل، اقتسمت حملها القبائل فيما بينها، تقرباً للطغاة، وسيرت إلى الكوفة وبعدها إلى الشام[٥].

وبهذا التخطيط الهمجي تنتهي هذه المأساة الدامية، وإني لأكتب

---

(١) ظ: تفصيلات ما قام به كل من هؤلاء في: ابن طاووس/ اللهوف/ ٥٤ + الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٢٥ البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ٢٠٤ + الطبري تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥٣ + الخوارزمي/ مقتل الحسين/ ٣٧ + ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٢٩٥.

(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥٣ + ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٢٩٥.

(٣) ابن طاووس/ اللهوف/ ٥٥.

(٤) ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ١٨٩ + الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٠٤.

(٥) ابن طاووس/ اللهوف/ ٦٠.

هذه السطور، وإن بدني ليهتز ألماً، وإن جسدي ليهتز رهباً، وإن قلبي لينفجر قلقاً، وقد جمدت الدماء بالعروق.

لقد كانت مأساة الطف ومجزرة كربلاء المسمار الأول والأخير في نعش الحكم الأموي، فاقتلعته من الجذور، وشيعته إلى الأبد.

الفصل الرابع

إجراءات ما بعد الثورة

١ ـ مظاهر العنف الانتقامي

أ ـ الشهداء على رمضاء كربلاء

ب ـ ظاهرة قطع الرؤوس وتسييرها

ج ـ الهدف السياسي وراء مسيرة الرؤوس

٢ ـ عقائل الوحي في الأسر:

أ ـ الأسارى ومصارع الشهداء

ب ـ الدور الرسالي لطلائع الأسرى في الكوفة

٣ ـ أسرى أهل البيت في الشام

أ ـ كشف التضليل الديني والدجل السياسي

ب ـ الإمام وابنة أمير المؤمنين في مجابهة يزيد

٤ ـ الركب الهاشمي في طريق العودة

أ ـ الركب يعرّج على كربلاء

ب ـ الركب يتوجه إلى المدينة

ج ـ زين العابدين يستثمر الهياج الجماهيري

د ـ النظام يتنصل من جريمته النكراء

هـ ـ حديث الطف بين البحث الموضوعي والجانب المأساوي.

مظاهر العنف الانتقامي

أ ـ الشهداء على رمضاء كربلاء:

بعد تلك المجزرة الرهيبة في كربلاء التي ذهب ضحيتها ما يناهز المائة والأربعين شهيداً من آل الحسين عليه السلام وأنصار الحسين، تشير الروايات بالإجماع أن عمر بن سعد قائد الجيش الأموي، قد صلى على القتلى من صحبه ودفنهم، وترك الحسين وأصحابه دون دفن[1].

وهذا المظهر يشير إلى الإمعان بالحقد على آل بيت الرسالة، إذ لم تعرف العرب حتى في جاهليتها هذا النوع من التنكيل، وهو ذو ملحظ سياسي قمعي وردعي بوقت واحد، فحيث يقتل ابن بنت رسول الله ولا يدفن، وحيث تقتل كوكبة من أشراف الناس ولا يوارى أيّ منهم الثرى، فمعنى هذا أن النظام الا يبالي باتخاذ أشد الاجراءات عنفاً بشأن كل من يفكر في النكر على الحكم بقول أو عمل، هذا المصير الذي شاهده الناس ظاهرة فجّة لا مراعاة للاعتبارات الإنسانية معها في مواراة جثث القتلى، بل تركت وشأنها في العراء تصهرها حرارة الشمس، وتسفي عليها رياح الصحراء اللافحة الجافة.

لقد تناقل الناس أنباء هذه المشاهد الفظيعة، فأشاعت الذعر والفزع لدى الجميع، وظلت ماثلة في الأذهان بأبشع الصور، وبقيت

---

(١) الخوارزمي/ مقتل الحسين ٢/ ٩ + الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣١٣.

آثارها مرعبة في الذاكرة البشرية، وهذا بالضبط ما يريد تحقيقه النظام الأموي، ليكف الناس عن النضال، وليستسلموا إلى واقع القدر السياسي الشاخص.

قال الشيخ المفيد (ت: ٤١٣ هـ) «ولمّا رحل ابن سعد خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاضرية إلى الحسين وأصحابه، فصلّوا عليهم، ودفنوا الحسين حيث قبره الآن، ودفنوا ابنه علي بن الحسين الأكبر عند رجله، وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه الذين صرعوا حوله مما يلي رجلي الحسين عليه السلام، وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً، ودفنوا العباس بن علي عليه السلام في موضعه الذي قتل فيه على طريق الغاضرية حيث قبره الآن»[1].

وفي ترك الحسين عليه السلام وأصحابه دون دفن دلالة سياسية ذات شقين.

الأول: دواعي الحقد والانتقام من أهل البيت عليهم السلام بحيث تترك أجسادهم وأجساد أنصارهم في العراء ماثلة أمام الناظرين، إشباعاً للنزعات البهيمية لدى الحكام الأمويين وقوادهم وولاتهم، وفيه تحقيق لذلك النهم الفاغر في التشفي والكراهية لأهل هذا البيت وأشياعهم.

الثاني: إشاعة الذعر الجماعي في حياة الناس، واجتثاث روح التضحية والمعارضة من الأدمغة، فالقتيل لا يوارى، ولا ترى له حرمة إنى كان، وحتى إن كان الوريث الشرعي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا قيمة له مهما كانت قيمته الاجتماعية أو الدينية أو السياسية في الناس.

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٢٧.

ولئن صح الفرض الأول، وأشبعوا رغباتهم بالحقد والانتقام، فقد أخفق الفرض الثاني دون شك، فلم تتوقف إمدادات الثورة، ولم تخبُ جذوة النضال، وسترى في «آثار الثورة» مصاديق هذا الزعم رغم كل الدلائل المأساوية التي عرض لها الثائرون.

ب ـ ظاهرة قطع الرؤوس وتسييرها:

ولم يكن هذا وحده هو الاجراء الانتقامي المرعب، فلقد افتتن النظام بابتداع ما لا عهد للناس به، فاستحدث ظاهرة جديدة تتجسد في قطع الرؤوس وفصلها عن الأبدان والأجساد، إيغالاً في الجريمة، وتأكيداً لسياسة الارهاب.

لقد تم انتقاء أكثر من سبعين رأساً من بين جثث القتلى فقطعوها[1] وقد مثلت هذه العملية النظر السياسي في الاختيار على أساس المكانة والمنزلة الاجتماعية، ولم تكن عشوائية كيفما اتفق.

وهذه الظاهرة لم تكن معروفة في التاريخ الإسلامي وعند العرب، باستثناء رأس عمرو بن الحمق الخزاعي الذي قطعه والي الموصل لمعاوية، وبعث به إليه «فكان أول رأس حمل في الإسلام»[2].

أمّا «أول رأس رفع على خشبة، فهو رأس الحسين رضي الله عنه، وصلى الله على روحه»[3].

وتتابعت بعده الرؤوس في القطع والرفع كما سيأتي بيان ذلك.

---

(١) ظ: في عدد الرؤوس التي قطعت: ابن طاووس/ اللهوف/ ٦٠.
(٢) الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين + الأغاني ١٧/ ١٤٤.
(٣) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٣٩٤.

وقد سرح عمر بن سعد من يومه ذلك، وهو يوم عاشوراء برأس الحسين مع خِولّى بن يزيد الأصبحي، وحميد بن مسلم الأزدي إلى عبيد الله بن زياد[1].

وقد تمّ توزيع الرؤوس بصورة دقيقة، فاقتسمتها القبائل التي شاركت في قتل الحسين وأهل بيته وأنصاره، تنكيلاً بأفرادها الذين لم يشتركوا في القتال، وتحذيراً لهم أيضاً عن التفكير في أي حدث مضادّ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو تقييم قبائلي عتيد لزعامة وأهلية من اقترفوا جريمة قتل الحسين وأهل بيته وأصحابه، ودعم عملي معلن لمواقفهم الموالية للسلطة، عسى أن يقتدي بهم غيرهم في هذا النحو من التداعي والانحطاط.

وهذا الاجراء الفظيع؛ إمّا أن يكون بمبادرة من عمر بن سعد تقرباً للسلطة ليحضى بنائلها الموعود، وإما أن يكون بأمر مباشر من عبيد الله بن زياد الذي أمره بالتمثيل بالأجساد، وبرضّ الأجسام بالخيل بعد قتلها، وذلك هو الأمر المظنون، ويرجح الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

«إن هذا الاجراء قد نفذ استناداً إلى أمر من عبيد الله بن زياد، لم تصل إلينا صورته»[2].

ومهما يكن من أمر، فقد أقبل سنان بن أنس النخعي ـ وكان قد أخذ الرأس من المبعوثين ـ وهو يحمل رأس الحسين عليه السلام إلى باب ابن زياد مرتجزاً:

---

(١) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣١١.

(٢) محمد مهدي شمس الدين/ أنصار الحسين/ ٢١١.

أَوْقِرْ رِكَابِي فِضَّةً أوْ ذَهَبَا إنِّي قَتَلْتُ السيدَ المُحَجّبَا
قَتَلْتُ خيرَ الناسِ أمّاً وأبَا وَخيرَهُمْ إذ يُنسَبُونَ نَسبا[1]

«والعاطفة التي تشيع في هذا الرجز هي ـ مع الأسف ـ عاطفة الفرح والزهو: فرح القاتل بهذه الهدية الغالية التي يحملها إلى الأمير، وزهوه بهذا العمل الضخم الذي قام به من أجل الدولة، وهو لهذا يشعر بأن أقل ما يمكن أن يكافئه الأمير به: أن يوقر ركابه فضة أو ذهباً، وهو ـ لهذا أيضاً ـ يضفي على قتيله خير ما يمكن أن يضفيه إنسان على إنسان. وقد جعله هذا يشعر بشيء من الدالة على الأمير، يبيح له أن يجعل حديثه عن هذه الجائزة حديث الأمر الذي لا يقبل ردّاً ولا رفضاً، وهو ـ من أجل هذا ـ يبدأ رجزه لا بالحديث عن الحادثة التي تعني الأمير، وإنما بالحديث عن الجائزة التي تعنيه هو، كأنما لا يعنيه من الأمر إلا ما سوف يناله من ذهب وفضة، وليس من شك في أن هذا المطلع ـ على الرغم مما حمله من طمع ـ أرضى الأمير كل الرضا، لأنه وجد فيه تعبيراً طبيعياً عن مشاعر صاحبه، ومن الواضح أن هذا الرجز لم يتحدث عن المسألة من جانبها السياسي، وإنما تحدث عنها من جانبها الشخصي، وذلك لأن السياسة وأحداثها لم تكن مما يشغله في هذه اللحظة التي يضع فيها رأس الحسين أمام ابن زياد، وإنما كل ما كان يشغله هو النفع الشخصي الذي سوف يناله»[2].

ولمّا وصل رأس الحسين عليه السلام وبقية الرؤوس إلى ابن زياد، جلس في قصر الامارة، وأذن للناس إذناً عاماً، وتناول رأس

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٢٣.
(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٣٧٣ وما بعدها.

الحسين عليه السلام وجعل يضرب ثناياه بقضيب، وقال «يوم بيوم بدر»[1].

ذلك ما دَهش له الصحابي زيد بن أرقم، وكان إلى جنبه، فقال له: ارفع قضيبك من هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يحصيه كثرة يقبلهما، ثم التفت إلى الناس قائلاً أنتم العبيد بعد هذا اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمرّتم ابن مرجانة، والله ليقتلن خياركم، ويستعبدن أحراركم، فبعداً لمن يرضى بالذل والعار.

ثم اتجه إلى ابن زياد قائلاً: «يا ابن زياد لأحدثنك حديثاً أغلظ عليك من هذا: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقعد حسناً على فخذه اليمنى، وحسيناً على فخذه اليسرى، ثم وضع يديه على يافوخيهما، وقال:

«اللهم إني أستودعك إياهما وصالح المؤمنين».

فكيف كانت وديعة رسول الله عندك يا ابن زياد؟ ثم قام وخرج[2].

لقد بدد احتجاج زيد بن أرقم بلهجته الحادّة الصارمة، نشوة الظفر عند ابن زياد، ولفت نظر الحاضرين إلى الحدث السياسي في بعده الديني، وسبب لابن زياد هزيمة نفسية، ولكن هذه الهزيمة لم تردعه عن اقتراف ما هو أعظم مما جنى، ذلك ما يتحدث عنه الطبري:

«ثم أن عبيد الله بن زياد نصب رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به في الكوفة»[3].

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٢٤.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥٩.

وتناهت الأخبار بسرعة إلى البلاط الأموي بقتل الحسين وأسرته وأصحابه، وبقطع رؤوس المبرزين منهم، فأنفذ يزيد إلى ابن زياد بحمل رأس الحسين عليه السلام ورؤوس من قتل معه إلى الشام، فأرسلت الرؤوس بصحبة سبايا أهل البيت، فلما وصلت إلى الشام، كان يزيد في منظره له على «جيرون» فأنشد لنفسه[1].

لمّا بَدَتْ تِلْكَ الحُمُولُ، وأشْرَقَتْ ... تِلْكَ الشُمُوسُ عَلَى ربىٰ جَيرونِ
نَعَبَ الغُرابُ، فقلت صِحْ أو لا تصِحْ ... فَلَقَدْ قَضَيْتُ مِنَ الغريمِ دِيوني

وكانت الرؤوس في ثلاث هيئات:

١ ـ حملها على الرماح.

٢ ـ التعليق بلبان الفرس.

٣ ـ حشرها وسط محامل النساء.

وفي ذلك دلالة بارزة على قسوة النظام، وإثارة عاتية لنفسية الأسرى والسبايا، ووسيلة إعلامية لاستفزاز الجماهير.

ثم وضعت الرؤوس بين يدي يزيد في مجلسه العام، وفيها رأس الحسين عليه السلام فتمثل يزيد ببيت الحصين بن الحمام المريّ[2]:

نُفَلِّقُ هَاماً مِنْ رجالٍ أعِزّةٍ ... عَلَينا، وَهُمْ كانُوا أعقّ وأظْلَما

فقال يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم، وكان جالساً مع يزيد:

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٢٦.
(٢) البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ٢١٣.

لهـامٌ تجنبِ الطَفُّ أدنـى قـرابـةً مِن ابن زياد العبدِ ذِي الحَسَبِ الوغلِ
سُميّةُ أضحَى نَسلُها عَدَدَ الحَصى وَبِنَتُ رَسُولِ الله أضحَتْ بلا نَسْلِ

ثم دعا يزيد بقضيب خيزران، وجعل ينكث ثنايا الحسين مسروراً، وقال: «يوم بيوم بدر» قالها يزيد في الشام كما قالها ابن زياد في الكوفة، فهل تراه استدعاءً في الخواطر وتوارد فيها، أما تراه الشيطان ينزع على لسان هذا وذاك، والمسألة بعد هذا قبلية، فجد يزيد لأمه، وعمه، وخال أبيه، إنما قتلوا في بدر بسيف الإسلام دفاعاً عن النفس، والحسين قتل بسيف الطغيان انتقاماً من الإسلام، فشتان بين القتلى، ولكنه الحقد الأموي المتأصل على النبي وعلي وآلهما.

ومهما يكن من أمر، فقد قطع أبو برزة الأسلمي صاحب رسول الله ﷺ على يزيد زهوه وسروره وشماتته، وقال له: «ويحك يا يزيد؛ أتنكث بقضيبك ثغر الحسين ابن فاطمة؟؟ أشهد لقد رأيت النبي ﷺ يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن، ويقول: أنتما سيدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما ولعنه، وأعد لهم جهنم، وساءت مصيراً. فغضب يزيد، وأمر بإخراجه، فأخرج سحباً[1].

وليت شعري ما يصنع زيد بن أرقم وأبو برزة الأسلمي، وهم صحابيان معروفان في مجلسي ابن زياد ويزيد، وإذا سمعا ما سمعا من رسول الله ﷺ فما الذي منعهما من نصرة الحسين، وإذ لم ينصراه فما معنى حضورهما في قصر أو بلاط الظالمين؟ ألا يعلمان أن حضورهما تأييد للنظام؟ أين هي عدالة الصحابة يا ترى؟؟.

ومهما يكن من أمر، فإن موقف يحيى بن الحكم المرواني،

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ٥/ ٤٦٠ ـ المفيد/ الإرشاد/ ٢٣٠.

وإنكار أبي برزة الأسلمي الصحابي يمثلان احتجاجاً صارخاً وجريئاً، بدد من مخيلته لحظة الغبطة والسرور، ولكنه لم يقتلع من صدره شهوة الانتقام والتشّفي، فقد نصب رأس الحسين بين يديه، وتمثل بأبيات ابن الزبعرى، وأضاف لهما البيتين الأخيرين[1]:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزعَ الخزرجِ من وقع الأَسَلْ
لأهوا وأستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تُشَلْ
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدرٍ فاعتدلْ
لعبت هاشمُ بالمُلك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نَزَلْ
لستُ من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

وكان حول يزيد علوج بني أمية، وأبناء الطلقاء، وفي طليعتهم مروان بن الحكم وهو يهزّ أعطافه فرحاً بمقتل الحسين، ويلتفت إلى الرأس الشريف قائلاً[2]:

يا حبّذا بَرْدُكَ في اليدين ولونُك الأحمرُ في الخدّينِ
أَخَذْتُ ثأرِيَ وَقَضَيْتُ دَيَني شفيتُ قَلْبي مِنْ دَمِ الحُسينِ

ج ـ الهدف السياسي وراء مسيرة الرؤوس:

وها أنت ترى مسيرة الرؤوس من كربلاء إلى الكوفة، وفي الكوفة تشاهد الرؤوس بين يدي عبيد الله بن زياد فرحاً مسروراً، ولا يكتفي بذلك حتى يطاف بها في أزقتها تتصفحها الناس جيئة وذهاباً، وهي في

(١) ظ: في حديث أبيات ابن الزبعرى وإضافة يزيد لهما كلاً من: الطبري وابن الأثير/ حوادث سنة ٦١ هـ + ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٣/ ٣٨٣ + الفتال/ روضة الواعظين/ ١٩١ + ابن طاووس/ اللهوف ٧٥، وغيرها.

(٢) ظ: بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٣٨١ وانظر مصدره.

الشام بين يدي يزيد بن معاوية، وهو في نشوة الظفر يصبّ جام غضبه شامتاً ومنتقماً في إجراءات جبروتية، أترى الأمر ساذجاً يساق لمجرد التشفي وحده؟ أم أن هناك حافزاً وداعياً أكبر من هذا الظاهر الانتقامي، لا نستطيع هذا القول ولا يكفي تبريره لهذا الابتداع المرعب، إن الذي نعتقده أن وراء هذا الإجراء الصارم هدفاً سياسياً مبرمجاً يوحي بخطة رهيبة أُحكم تخطيطها تختفي وراء ذلك الظاهر الطائش المقيت، فالنظام يحاول جاهداً أن يقضي على كل ظواهر المعارضة في كل أصنافها وأشكالها معلنةً وخفيةً، ولا يتاح له هذا إلا باتباع أبشع الطرق الموصلة إلى هذا الهدف، وليس هناك بعد قتل الحسين وآله وصحبه، وانتشار ذلك في الأمصار خبراً وروايةً، من تمثيل هذه الحقيقة صارخةً باستعراض رؤوس أبرز القتلى في مشاهد مثيرة تستدعي رؤيتها إحباط كل الاحتمالات في التحرك ضد النظام، وتهبط بكل المعنويات إلى درجة الصفر، حتى لتصاب بالشلل الكلي الذي لا يؤمل معه أي دبيب في الحركة، وبذلك يضمن النظام استقراره بعد أن مني بهزة عنيفة أقامته وأقعدته، واستنفر لها كل إمكاناته الهائلة من أجل القضاء عليها، وهي ثورة الحسين بما تحمل بين جوانحها من بعد ثوري قد عرّض النظام للخطر الكبير الذي قد يقدر له الاطاحة بالنظام لو ترك وشأنه.

«ولذا فإن أي تحرك تقوم به قوة ذات نفوذ إسلامي يمكن أن يجمع الطاقات الثورية، ويعطيها قوة الحركة نحو إنجاز ثوري كبير الحجم، ولذا فإن ثورة الحسين ولقائدها مركز معنوي كبير جداً في المجتمع الإسلامي، تشكل بالنسبة إلى النظام الأموي خطراً بما يمكن أن تؤدي إليه من تفاعلات ينشأ منها تصعيد الروح الثورية، وإعطاء جماعات الثوريين في المجتمع الإسلامي أملاً كبيراً في الانتصار بوجود قيادة ذات رصيد معنوي كبير لدى المسلمين كما أننا نقدر أن رجال

النظام الأموي قد علموا أن الجماعة الثائرة مع الحسين تمثل في غالبيتها رجالاً قياديين يتبوؤون مراكز زعامة في المجموعات القبلية الجنوبية والشمالية، وأن لهؤلاء أتباعاً يتأثرون بمواقفهم.

«لهذا أراد رجال النظام أن يقضوا على كل أمل عند الجماهير بنجاح أية محاولة ثورية، وذلك بجعل أبطال هذه المحاولة عبرة للآخرين.

فحشدوا للقضاء على القوة الصغيرة في كربلاء أضخم قوة عسكرية استطاعوا توفيرها في هذا الزمن القصير. . . وذلك من أجل أن تضع الثائرين في حصار محكم، يحول دون إفلات أي واحد منهم، ويحول دون وصول أيّ أحد إليهم، ويضمن القضاء عليهم في وقت قصير جداً، لئلا يتأثر الجيش الأموي نفسه إذا طال الوقت.

ثم تنفيذ اجراءات انتقامية فيها إهانة للشهداء ونسائهم، مثل رضّ الأجساد بحوافر الخيل، والتمثيل بها، وحمل النساء سبايا يستعرضهن الناس في الأمصار.

وهدف النظام الأموي من هذا كله تبديد الهالة القدسية التي تحيط بالحسين وأهل البيت، وإفهام الثائرين الذين لم يتح لهم أن يشاركوا في ثورة كربلاء: إن اجراءات السلطة في حماية نفسها لا تتوقف عند حدّ، ولا تحترم أية قداسة، وأيّ مقدس، وأي عرف ديني أو اجتماعي.

«ويأتي قطع الرؤوس، وحملها من بلد إلى بلد، والطواف بها في المدن ـ وخاصة الكوفة ـ جزءاً من هذه الخطة العامة، ولتبديد إمكانات الثورة، وتحطيم المناعة النفسية لدى المعارضة، وإفهامها بأن الثورة قد انتهت بالقضاء عليها، ولقطع الطريق على الشائعات بالأدلة المادية

الملموسة، وهي رؤوس الثائرين، وفي مقدمتها رأس الحسين عليه السلام .

وإذن فقد كان ثمة هدف سياسي لقطع جميع الرؤوس بالإضافة إلى كونه عملاً انتقامياً، وهذا يفسر لنا لماذا لم تقطع جميع الرؤوس في الكوفة وكربلاء، ففي الكوفة قطع ابن زياد رأس مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة فقط من بين من قتلهم في الكوفة من الثوار، وفي كربلاء كانت الرؤوس التي قطعت وأرسلت إلى الكوفة وإلى الشام، على النصف تقريباً من عدد الشهداء.

«لقد خضع قطع الرؤوس لعملية انتقاء، فقطعت رؤوس الشخصيات البارزة التي تحظى بولاء شعبي في نطاق قبائلها أو مدنها، والتي يحطم قتلها قاعدتها الشعبية، ويشتت جمهورها، ويفقده فاعليته.

إن هانىء بن عروة ومسلم بن عقيل هما أقوى شخصيتين في التحرك الذي حدث في الكوفة، فلذا قطع ابن زياد رأسيهما، وأرسلهما إلى يزيد بن معاوية، برهاناً مادياً على قمع الثورة. أمّا الباقون، وهم رجالٌ عاديّون، فإن رؤوسهم لا تعني شيئاً، لأن قتلهم مع وجود القادة لا يؤثر على الثورة، ولذا فلم يكن ابن زياد بحاجة إلى قطع أكثر من رأسين.

وكذلك الحال في رؤوس شهداء كربلاء، فإن الموالي والرجال العاديين لم تكن رؤوسهم تعني شيئاً بالنسبة إلى الناقمين على الحكم الأموي. إن الذي يشل القدرة الثورية، ويسبب الهزيمة النفسية لدى الجماهير هو أن ترى زعماءها وقادتها قد قتلوا، ورفع الدليل المادي على قتلهم، وهو رؤوسهم على أطراف الرماح»[١].

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ أنصار الحسين/ ٢١٢ وما بعدها.

ولنا أن نتسائل عن مصير هذه الرؤوس بعد أن طيف بها في الأمصار، وأين دفنت هذه الرؤوس؟ وأين استقر بها المطاف؟ لا سيما رأس الحسين عليه السلام.

لقد اختلف في هذا الموضوع اختلافاً كبيراً في عدة أقوال هي:

١ ـ إنْ رأس الحسين عليه السلام قد دفن عند قبر أبيه أمير المؤمنين في النجف إلى جهة رأس الإمام عليه السلام، وفيه عدة روايات[١].

وهناك مسجد في الصحن الحيدري يسمى بمسجد الرأس، لا زال قائماً حتى اليوم. كان يشغله بالصلاة جماعةً أستاذنا السيد محمد جمال الهاشمي (قده).

٢ ـ إن رأس الحسين عليه السلام قد دفن في البقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء عليها السلام، دفنه عمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على المدينة، بعد أن سيّر يزيد إليه الرأس[٢].

٣ ـ إن رأس الحسين عليه السلام مدفون بظهر الكوفة (الحنّانة) دون قبر أمير المؤمنين عليه السلام.

رواه في الكافي بسنده عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام[٣].

٤ ـ إن رأس الحسين دفن في دمشق، في حائط، أو في دار الامارة، أو في خزانة يزيد، أو في المقبرة العامة[٤].

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٩٠.

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية ٨/ ٢٠٤.

(٣) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة/ ٤/ أول/ ٣٩١.

(٤) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٦٣٧.

وهناك مشهد في دمشق جنب المسجد الأموي يسمى رأس الحسين.

٥ ـ إن رأس الحسين دفن في القاهرة بمصر بدعوى أن الفاطميين نقلوه من باب الفراديس في دمشق إلى عسقلان، ومنها إلى القاهرة عام ٥٤٨ هـ[١].

وهناك في وسط القاهرة مشهد رائع عليه ضريح فضي يفضي إلى مسجد كبير عامر يسمى بمسجد سيدنا الحسين حيناً، وبمسجد رأس الحسين حيناً آخر، وموقعه بين الجامع الأزهر وجامعته اليوم وبين خان الخليلي وهما معلمان بارزان من معالم القاهرة، وقد جدده المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة وأضاف له مساحة واسعة عام ١٩٦٤ في بناء ضخم متميز يعد اليوم أحد معالم القاهرة.

٦ ـ إن رأس الحسين ورؤوس أهل البيت وجملة رؤوس الأنصار، كلها قد دفنت جنب أجسادها في كربلاء المقدسة، وقد أعيدت مع الإمام زين العابدين عليه السلام وزينب ابنة أمير المؤمنين يوم الأربعين.

«وهذا أصح الروايات الواردة في مدفن الرأس الكريم»[٢].

وقال ابن الجوزي «واختلفوا في الرأس على أقوال: أشهرها أنه رده إلى المدينة مع السبايا، ثم رُدّ إلى الجسد بكربلاء فدفن معه، قاله

---

(١) الشبلنجي/ نور الأبصار/ ١٢١.

(٢) بحر العلوم/ مقتل الحسين/ ٦٣٨.

هشام وغيره»[1].

ويبدو أن هذا هو الرأي المشهور عند الإمامية حتى قال ابن طاووس:

«وأما رأس الحسين، فروي أنه أعيد، فدفن بكربلاء مع جسده الشريفة»[2].

---

(١) سبط ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٢٦٥.

(٢) ابن طاووس/ اللهوف/ ٨٢.

عقائل الوحي في الأسر

أ ـ الأسارى ومَصْارِع الشهداء:

وهناك اجراء آخر ذو منظور سياسي لا يقل فظاظة عن قطع الرؤوس وتسييرها في البلدان، وهو حمل بنات رسول الله ﷺ سبايا من كربلاء إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشام، يتصفح مواكبهن القريب والبعيد، ويتطلع إلى هوادجهن القاصي والداني.

ففي اليوم الحادي عشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، نادى عمر بن سعد بالرحيل عن كربلاء، فارتحل ومعه نساء الحسين وأهل بيته وصبيته وجواريه، وكن عشرين امرأة عدا الأطفال، وساقوهم كما يساق السبي من الترك والديلم[١].

وقد بلغ العنف الانتقامي ذروته حينما مروا بالأسارى على مصارع الشهداء، مجزرين كالأضاحي على صعيد كربلاء، تصهرهم حرارة الشمس، وقد فرّق بين أجسادهم ورؤوسهم، دون دفن أو مواراة.

وكانت زينب ابنة أمير المؤمنين تقود هذا الموكب الحزين، وهي رابطة الجأش، شديدة القوى، لم تخذلها مظاهر المأساة عن أداء الرسالة، ولم يخرجها ذلك الظلم الغاشم عن الثبات. بل استثمرت تلك اللحظات في صالح الثورة، واهتبلت تلك النظرة الثكلى في ندبة جدّها

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٥/ ١٠٧.

رسول الله، ورثاء أخيها الحسين، فأخذت تحدّ النظر من الجسد الطاهر، وقالت:

«يا محمداه، صَلّى عَلَيكَ مَليكُ السماءِ، هذا حسينٌ بالعراءِ، مَرَمَلٌ بالدماءِ، مقطّعُ الأعضاء، محزوزُ الرأس من القفا، مسلوبُ العمامةِ والرداء.

يا محمداه: وبناتُكَ سبايا، وذريتُكَ مُقَتَلّةٌ تَسفي عَليهم ريحُ الصَبَا، بأبي مَنْ عَسكرُهُ يومَ الاثنين نهباً، بأبي مَن فِسطاطُهُ مقَطعُ العُرى، بأبي مَنْ لا هُوَ غائِبٌ فَيُرجى، ولا مرِيضٌ فيداوى، بأبي المهموم وحتى مضىٰ، بأبي العطشانُ حتى قضى، بأبي من شيبته تقطر بالدماء....»[1].

قال الراوي: فأبكت كلَّ عدوٍ وصديق.

وفي هذه الندبة التراجيدية الحزينة، ترديد لنبرة استصراخية موحية، كسبت بها ابنة أمير المؤمنين عليه السلام عواطف طائفة من الجيش المقاتل، وسلطت الأضواء على جمهرة من الحقائق الرسالية، فهذا القتيل إنما يندب به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو مطروح في رمضاء كربلاء، مرمل بدمائه، ومقطعة أعضاؤه، وممثل به أقسى تمثيل إلى آخر ما وصفته به، كما عبرت عن مشاعرها الجياشة التي تهز بها ضمائر كثير من الناس، وهي حيال صور القتلى المرعبة.

وغادر ركب السبايا كربلاء في طريقه إلى الكوفة، وقد سار به ابن سعد سيراً عنيفاً، فلما قارب الركبُ الكوفة، اجتمع أهلها للنظر إلى السبي، فأشرفت امرأة من الكوفيات وقالت: «من أيّ الأسارى أنتن؟»

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥/ ٤٥٦ + البلاذري/ أنساب الأشراف ٣/ ٢٠٦.

فقلن لها: نحن أسارى آل محمد ﷺ، فنزلت من سطحها، فجمعت لهن مُلاءً وأُزُراً ومقانع، ليتسترن بها عن أعين النظّار»[1].

وظاهرة سبي النساء المسلمات ظاهرة جديدة على المجتمع الإسلامي، فكيف بنساء آل محمد؟ إن الحدث الآنف يفسر لنا نوعاً من التستر على الجريمة بقتل الحسين في حدود، فالمرأة تسأل ـ وهي لا تعلم الحال ـ من أي الأسارى أنتن؟ والجواب: نحن أسارى آل محمد. فالدهشة تمتلك المرأة إذن، فأعلنت النكير لمثل هذا الاجراء، وعبّرت عملياً عن رفضها لهذا الأسلوب اللاإنساني في السبي لا سيما لنساء آل محمد، فجمعت للنساء الأُزر والمقانع لغرض التستر.

وليست النساء كلها، ولا الناس جميعهم يعلمون هوية هؤلاء الأسرى.

واستمر الموكب في المسير بأزقة الكوفة، وهو في طريقه إلى قصر الإمارة، وازدحم الناس من الجانبين ينظرون إلى السبي الجديد، وتغيّر الموقف بالكوفة بعد جلاء الأمر، إلا أن هذا التغيّر كان عاطفياً لا عقائدياً ولا ثورياً، بدليل كثرة النياح والبكاء دون إنكار معلن، أو معارضة مشهودة، كان هذا بادىء الأمر، وإن تطور جزئياً فيما بعد كما سترى.

وكان زين العابدين الإمام علي بن الحسين عليه السلام في طليعة موكب الأسرى، وحينما رأى ظاهرة البكاء تتجاوب بالنياح، ابتدر أولئك قائلاً:

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣١٥.

«أتنوحون وتبكون من أجلنا؟ فمن الذي قتلنا»[1].

وهذا الاستفهام الإنكاري له دلالته التأنيبية لدى القوم، فالقتلة هم ليس غرهم، والبكاء صدر منهم، وفي ذلك مفارقة بارزة للعيان، فمن يقتل لا يبكي ما في ذلك شك، وفي هذا إشعار بأن النظام الأموي وإن كان مسؤولاً عن القتل، إلا أن المنفذين أنتم يا أهل الكوفة، وهو كذلك.

ب ـ الدور الرسالي لطلائع الأسرى في الكوفة:

وكان لا بد لرسالة الحسين أن تنتشر، ولصوته المدوّي أن يخترق الآفاق، فقد أُحبِطتْ الخطة السياسية لدى الأمويين في اخماد الثورة، وعاد إعلامهم في سبي بنات رسول الله ﷺ وبالاً عليهم، فهم وإن ألجموا به الأفواه، إلا أنهم عادوا فوجدوه صدى لثورة مضادّة أخذت سبيل الأِعلام المستنكر لصور الجريمة من قِبل ابنة أمير المؤمنين، وابنة الحسين، وأم كلثوم بنت علي عليه السلام، والإمام زين العابدين:

١ ـ الموكب الآن في أزقة الكوفة، بين الزحام والمشاهد الكئيبة، ورؤوس الشهداء على أطراف الرماح، وعقائل بيت الوحي على أقتاب الإبل، وأهل الكوفة بين باكٍ ومَعْوِل، وإذا بزينب ابنة أمير المؤمنين تومىء للناس أن اسكتوا، فترتد الأنفاس، وتشخص الأبصار، وإذا بها تخطب الناس، وكأنها تفرغ عن لسان أبيها في بلاغته العليا، قالت: «الحمد لله، والصلاة على محمد وآله الطاهرين، أما بعد:

يا أهل الكوفة يا أهلَ الختلِ والغدرِ، أتبكونَ؟ فلا رقأتِ الدمعةُ،

---

(١) المصدر نفسه.

ولا قُطعتِ الرنّةُ، إنّما مثلكُمْ كمثلِ التي نَقَضَتَ غزلَها من بعدِ قوةٍ أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دَخلاً بينكُمْ، وهل فيكم إلاّ الصَلِفُ النَطِفُ؟ والصدر الشَنِفُ، وقَلَقُ الإماء، وغمر الأعداءِ، أو كمرعى على دمنةٍ، أو كفضةٍ على ملحودةٍ، ألا ساء ما قدمتْ لكُمْ أنفسُكُمْ أن سخطَ اللهُ عليكم، وفي العذابِ أنتمْ خالدونَ. أتبكونَ وتنتحبون؟! إي والله فأبكَوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فلقدْ ذهبتُم بعارِها وشنارها، ولن ترحضوها بغسلٍ بعدَها أبداً، وأنى ترحضون قتلَ سليل خاتِم النبوّةِ، ومعدنِ الرسالةِ، وسيد شبابِ أهل الجنةِ، وملاذِ خيرتِكُمْ، ومفزع نازلتِكُمْ، ومنار محجتكُمْ، ومدرهِ سنتِكُمْ، ألا ساءَ ما تزرونَ، وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خابَ السعيُ، وتبّتِ الأيدي، وخسرتِ الصفقةُ، وبؤتم بغضبٍ منَ اللهِ، وضُربتْ علَيكُمْ الذِلّةُ والمَسكَنَةُ.

ويلكُمْ يا أهلَ الكوفةِ: أتدرون أيَّ كبدٍ لرسول الله ﷺ فريتمْ؟ وأيَّ كريمة له أبرزتُمْ؟ وأيَّ دَمٍ لَه سَفَكْتُمْ، وأيّ حرمةٍ له انتهكتمْ، لقد جئتم بها: صلعاءَ، عنقاءَ، سوداءَ، فقماءَ، نأناء، كطلاع الأرض، أو ملء السماء، أفعجبتُمُ أن مطرتِ السماءُ دَماً، فلعذابُ الآخرةِ أخزى، وأنتم لا تنصرون، فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا يحفزه البدار، ولا يخافُ فوتَ الثأر، وإن ربكُمْ لبالمرصاد»[1].

لقد لخصّت العقيلة زينب في هذه الخطبة عدة لمحات عن مأساة الطف، فهؤلاء الذين يبكون على الحسين وسبايا الحسين، هم قتلته من أهل الختل والغدر، ومثلهم في هذا مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وكشفت ذميم الصفات فيهم، فهم يتخذون الإيمان دخلاً، وما فيهم إلا الصلف المتكبر العيّاب، وإلا المتنكر الكذّاب، يتملّقون،

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣١٦. وانظر مصادره.

ويطعنون، كمرعى على مزبلة، أو ميتة في ملحودة.

ثم استنكرت دموع التماسيح الكاذبة أو الصادقة، فهي غير مؤثرة في حال من الأحوال، وقد ذهبوا بالعار والشنار، ولن يغسلوها بتكفير أو تأنيب أو تحرّك أو ثأر، فقد قتلوا سليل النبي، وسيد شباب أهل الجنة، وهو الملاذ في الحيرة، والمفرغ في النازلة، ومنار المحجة، وخطيب القوم المفوه، وزعيم القوم الذي يرجعون إليه، ولكنهم قتلوه!! فالسعي خائب، والصفقة خاسرة، فقد باؤوا بغضب من الله، وضربت عليهم الذلة والمسكنة.

ثم قرعتهم على ما أقدموا عليه من قتل الحسين وآله، وسبي العترة والذريّة، فجاؤوا بها صلعاء شوهاء خرقاء.

ويبدو أن هذا المنطق الجزل الجريء قد طوّح بحلم الأمويين في تحقيق الغاية الإعلامية والهدف السياسي من إبراز السبايا، فقد جرّ عليهم إعلاماً مضادّاً ثائراً، إن لم يدفع النفوس على الاستنكار فعلياً، فقد هيأها للاستنكار مستقبلياً، وإن لم تجرأ على الإفصاح بمكونات الضمائر علناً، فقد ملئت غضباً وحنقاً مما شاهدتْ وسمعتْ.

٢ ـ ولم يقف الإعلام المضاد لانتهاك البعد الإنساني عند الأمويين في خطبة ابنة أمير المؤمنين عليها السلام بل توالت من بعدها الخطب الاحتجاجية الملتهبة بالنكير واللائمة والاستنفار، فانبرت فاطمة الصغرى بنت الإمام الحسين للخطابة في تلك الجماهير المتراصّة لاستطلاع أبناء هذا الركب من الأسارى، فحمدت الله، وصلت على النبي، وتولت أمير المؤمنين وذكرت مناقبه، واتجهت بالخطاب إلى القوم: «أمّا بعَدُ، يا أهل المكرِ والغدرِ والخيلاءِ، فانّا أهلُ بيتٍ ابتلانا اللهُ بِكُمْ، وابتلاكم بنا، فجعلَ بلاءَنا حسناً، وَجَعَلَ علمَهُ عنَدَنا، وفهمهُ

لدينَا، فنحنُ عيبةُ علمِهِ، ووعاءُ فهمه وحكمتِهِ، وحجتُهُ على الأرض في بلادِهِ لعبادِهِ، أكرمنا الله بكرَامتِهِ، وفضلّنا بنبيّه محمدٍ ﷺ على كثير ممن خلَقَ تفضيلاً بيّناً، فكذبتّمونا، وكفرّتمونا، ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً، كأننا أولاد تركٍ أو كابلٍ، كما قتلتمْ جدَّنَا بالأمسِ، وسيوفُكُمْ تقطرُ مِنْ دمائِنا أهلَ البيتِ، لحقدٍ متقدم، قرّت لذلك عيونكُمْ، وفرِحتْ قلوبُكُمْ، افتراءً عَلَى اللهِ، ومكراً مكرتم والله خيرُ الماكرين فلا تدعونكُمْ أنفسكُمْ إلى الجذلِ بما أصبتُمْ مِن دمائِنا، ونالت أيديكَمْ مِنْ أموالِنا، فإن ما أصابنا من المصائب الجليلةِ والرزءِ العظيمِ في كتابٍ من قبل أنْ نبرأها، إن ذلِكَ على الله يسيرٌ، لكيّلا تأسَوا على ما فاتَكُمْ، ولا تفرحُوا بما آتاكُمْ، واللهُ لا يُحبُ كل مختال فخور.

تباً لكُمْ، فانتظروا اللعنة والعذابَ فكأنْ قد حَلَّ بِكَمْ، وتواترتْ مِنَ السماءِ نَقِماتٌ فتسْحَقُكُمْ بما كَسَبتُمْ، يُذيق بعضكُمْ بأسَ بعضٍ، ثمَّ تخلدونَ في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتُمَونَا، ألا لعنةُ اللهِ على الظالمين ويَلَكُمْ أتدرون أيّةُ يدٍ طاعنتنا مِنكُمْ، وأيّةُ نفس نزعتْ إلى قتالِنا، أمْ بأيّةِ رِجلٍ مشيتُمْ إلينا، تبغونَ محاربتنا، واللهِ قسَتْ قلوبُكُمْ، وغَلَظَت أكبادُكُمْ، وَطُبِعَ عَلى أفئدتِكُمْ، وَخُتِمَ عَلَى سَمْعِكُمْ، وعَلَى بَصرِكُمْ غَشاوةٌ، فأنتم لا تُهدَوْنَ، فتبّاً لكُمْ يا أهل الكوفةِ، أيَّ تراتٍ لرسول الله ﷺ قِبَلَكُمْ؟ وذُحُولٍ لَهُ لديكُمْ، بما غَدَرتُمْ بأخيهِ عَلَيٍّ بن أبي طالبٍ جدّي، وبنيهِ وعترتِهِ الطيبين»[1].

بهذا الصوت الهادر جبهت ابنة الحسين تلك الجموع التائهة، فأثارت كوامنها، وهزتها من الأعماق، وإن كانت الإثارة والهزة عاطفيتين في الدلالة، إلا أنه سقط في أيدي القوم، وتذكروا ـ ولو وقتياً

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣١٨ وانظر مصادره.

ـ ما لأهل البيت من مكانة جحدت، ومن حرمة هتكت، وربما ندموا ولات ساعة ومندم.

٣ ـ وأكملت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام دور المرأة من أهل البيت في التبليغ، وتقريع الطغاة، والنكر على الظالمين، فخطبت قائلة:

«يا أهلَ الكوفة: سوأةً لكُمْ، ما لَكُمْ خذلتُمْ حُسيناً، وقتلتموه، وانتهبتمْ أموالَهُ، وورثتمُوهُ، وسبيتمْ نساءَهُ ونكبتمُوهُ، فتبّاً لكم، وسحقاً لكُمْ، أيُّ دواهٍ دهتكُمْ، وأيَّ وزرٍ على ظهورِكُمْ حَمَلتُمْ، وأيَّ دماءٍ سفكتموها، وأيَّ كريمةٍ أصبتموها، وأيَّ صبيةٍ سلبتموها، وأيَّ أموالٍ انتهبتموها، قتلتُمْ خيرَ رجالاتٍ بَعَد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونُزِعتِ الرحمةُ من قلوبِكُمْ، ألا إن حزب اللهِ هُم المفلحون، وحزب الشيطان هم الخاسرون»[1].

وقد عدد هذا الخطاب بايجاز بليغ المآسي التي واجهت الحسين وآله في الطف فكانت: الخذلان، القتل، نهب الأموال، سبي النساء، نكبة العترة الطاهرة.

كما اشتمل على التأنيب الممض، والدعاء بالقطع والسحق، لما اقترفوه من الأوزار، وما احتملوه من الآثام بحق أهل البيت عليهم السلام.

٤ ـ وتأتي ذروة هذا النكير المنظّم ـ والسبايا في طريقها إلى قصر الامارة في الكوفة ـ في خطبة الإمام زين العابدين عليه السلام إكمالاً لهذا الشوط الثائر، وإبلاغاً للهدف الرسالي الواعي، حينما شاهد ذلك الوجوم والذهول، فأومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا، وقد علا نحيبهم

(١) المصدر نفسه ٤/ أول/ ٣٢١. وانظر مصادره.

وبكاؤهم، فقام قائماً، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر النبي ﷺ بما هو أهله وصلى عليه، ثم قال:

«أيّها الناسُ: من عَرَفَني فقد عَرَفَني، ومَنْ لم يَعرفْني فأنا أعرِّفُهُ بنفسي، أنا عَلَيُّ بنُ الحسين بنُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، أنا ابن مَنَ أُنتهكَ حريمُهُ، وسُلِبَ نعيمُهُ، وأُنتُهِبَ مالُهُ، وسبي عيالُهُ، أنا ابنُ المذبوح بشطِّ الفراتِ مِنْ غيرِ ذُحلٍ ولا تِراتٍ، أنا ابن من قُتِلَ صَبراً، وكفى بذلِكَ فخراً.

أيّها الناسُ: ناشدتُكُمْ باللهِ، هل تعلمونَ أنّكُمْ كَتبْتُمْ إلى أبي وخدعتموُهُ وأعطيتمُوهُ من أنفسكُمْ العهدَ والميثاقَ والبيعةَ، وقتلتموُهُ وخذلتمُوهُ، فتبّاً لِما قدّمتُمْ لأنفسِكُمْ، وسوأةً لرأيكِمْ، بأيّةِ عينٍ تنظرون إلى رسولِ اللهِ إذ يقولُ لَكُمْ: قتلتُمْ عِترتي، وانتهكتُمْ حُرمَتي، فلَستُمْ مِنْ أُمَتّي. . . »[1].

وكان هذا المناخ الثوري المحاجج سبيلاً إلى عرض مظلومية أهل البيت، وأسلوباً جديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواصلة جماهيرية لمسيرة سيد الشهداء في مناهضة الحكم الأموي.

٥ ـ حتى إذا وصل ركب السبايا إلى قصر الامارة في الكوفة، أدخل آل الحسين على ابن زياد، وهو شاب نزق يمثل غطرسة النظام، وحاقد عتيد على أهل البيت، ومن أقطاب النظام الحاكم، وقد تملكته نشوة الظفر المزعوم، وحاط به المتزلفون والمتملقون، وداخله من الغرور والصلف الشيء الكثير، فهو والي العراقين البصرة والكوفة، وهو ثقة رأس النظام يزيد بن معاوية، وهو الذي سخّر كل القدرات

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٢٢.

البشرية والحربية لقتال الحسين، وهو الذي أخمد الأنفاس وقمع المعارضة، وهو فوق هذا كله قد أصبح الرمز الذي يشار إليه بالبنان في تصفية أعداء النظام الثوريين، حتى عاد أثيراً فوق العادة عند الأمويين، يحكم بأمره، ويشمخ بأنفه، ويهتز بعِطفهِ.

بمثل هذا المناخ المشحون طغياناً وزهواً واعتداداً، أُدخل الأسارى عليه، وفيهم ابنة أمير المؤمنين وهي متنكرة، فجلست ناحية من القصر، وقد حفتّ بها إماؤها، فقال ابن زياد: من هذه التي انحازت فجلست ناحية؟ فقيل له: هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وكان هذا الإنباء وحده جديراً بأن يغضّ نظره، ويطاطىء عنه برأسه، فابنة علي وفاطمة في محفله هذا، وهو أعرف الناس بمكانتها الدينية الاجتماعية، ولكن الصلف والطيش أبيا عليه الاتزان والتعقل، فأقبل عليها قائلاً:

الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم؛ وأكذب أُحدوثتكم. !!.

وأشهد أن هذا الافتتاح الغاشم لحديث ابن زياد، كان افتئاتاً مقيتاً، لم يكن ليوافقه أحد عليه حتى أقرب المقربين إليه، فالقتل طريق النضال لكل القادة، ولا يستلزم ذلك فضيحة كما يزعم، ثم ما معنى أن يحمد الله على أن أكذب احدوثة أهل البيت، وهي السنة الشريفة، وبناء صرح الإسلام، وإقامة دعائم الدين، وليس في ذلك ابتداع ولا إحداث، بيد أن المتاهة العقلية التي تعثر في مجاهلها رجال النظام تملي هذا النوع من التضليل والانحراف في التعبير والدلالة والإرادة. وكان على ابنة أمير المؤمنين وهي داعية من دعاة ثورة الحسين أن تجيب على هذا الزيف الفاضح، فقالت لابن زياد:

الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمد ﷺ، وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا، والحمد لله.

وما اتعظ ابن زياد بهذا الردّ المفحم، بل تجاوز ذلك، وكأن شيئاً لم يكن، فقال لابنة أمير المؤمنين: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟.

وهذا سؤال فجّ وقح لا ينبغي أن يوجه لعقيلة بني هاشم، وهي ابنة أبيها فصاحة وبلاغة وعارضة، ولكنه الغرور المقنّع بالاستعلاء الطاغوتي، إلا أن زينب لم تدع إجابته فأجابته بواقع الحال القضائي وقالت: كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّون إليه، وتختصمون عنده. وكانت هذه الإجابة جديرة بأن يقطع معها المحاورة، ولا يتجرأ بأكثر منها، ولكن ابن زياد غضب واستشاط، وجبهها قائلاً: قد شفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة من أهل بيتك.

فقالت ابنة أمير المؤمنين: لعمري؛ لقد قتلت كهلي، وأبرَتَ أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد شفيت. فقال ابن زياد: هذه سجاعّة، ولعمري لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً.

وكانت هذه مغالطة أخرى من ابن زياد، إذ اتهمها بالسجاعة، واتهم علياً بذلك، ولم يقل أحد بذلك، ولكنها سلطة الجبان.

قالت زينب: ما للمرأة والسجاعة، إن لي عن السجاعة لشغلاً، ولكن صدري نفث لما قلت[1].

كان هذا المنطق الصريح جذوة في طريق الاتقاد، وكان منهج الأسرى في الردّ والإثارة والإستظهار يمثل قمة التحدي للنظام، فيه

---

(١) ظ: في هذه المحاورة: الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٢٨.

توهين لهيبة الحكم المصطنعة، وفيه استخفاف برجال السلطة الظلمة، وفيه تأليب على رفض الممارسات الشاذة.

ولم يطل المقام بالأسارى في الكوفة، وكان وجودهم هناك يحسب له ألف حساب، فقد نبّه المشاعر، وأيقظ الأحاسيس، وكان لذلك تأثير ما في الاحساس بالذنب ربما يخشاه النظام.

ومهما يكن من أمر فقد وصل كتاب يزيد إلى ابن زياد يأمره فيه بحمل رأس الحسين، ورؤوس من قتل معه، وحمل أثقاله ونسائه إلى الشام.

وتحمل الركب الهاشمي متوجهاً إلى الشام، تعنفّه أفواه الجفاة، وتواكبه الأغلال بين الأيدي والأعناق، وتصحبه الرؤوس بين المحامل، وتعلوه السياط في زجر وعنف، يقطع تلك المهامه والقفار، بقليل من الزاد، وكثير من العناء، وأشباح مأساة الطف ماثلة للعيان.

ولا تسل عما رافق هذه الرحلة الشاقة من جور واعتساف، وما صاحبها من دموع وحسرات، فذلك مشهد حزين كئيب عرض له جملة من المؤرخين.

ومهما يكن من أمر، فقد اقترب الركب من الشام، ويبدأ مع هذا الاقتراب نمط جديد من النضال يطوّح بأحلام الحاكمين.

أسرى أهل البيت في الشام

أ ـ كشف التضليل الديني والدجل السياسي:

ازدحمت شوارع دمشق بأفواج المتجمهرين، وازدانت ساحاتها بأقواس النصر وهرع الناس يستقبلون موكب السبايا، ودقت طبول الفرح ايذاناً بذلك وعزفت أبواق النفير الجماهيري. أتي بأسرى أهل البيت نحو باب دمشق، وتوقفوا هنالك لحظات تستبق الساعات في أوقاتها، والتضليل الديني في سحب قاتمة يغطي سماء التجمع الحائر، والدجل السياسي يستوعب ذلك الأفق المتلبّد، فالأسرى خوارج، فمن أي الخوارج هم؟ لا يعلم أحد، ودنا من الركب شيخ متهدم القوى، تختلج شفتاه بعبارات واهنة، وقد ألبست عليه الحال، فقال:

«الحمد لله الذي أهلككم وقتلكم، وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم».

فانبرى له الإمام زين العابدين عليه السلام بوداعته المعروفة، وقد أدرك غفلة الشيخ وبراءته، وعرف عفوية مقالته وسذاجتها، فهو يتكلم دون دراية، ويلهث بلا رويّة، فأوقفه الإمام على الحقيقة استدراجاً، وقاده إليها قوداً، فانتزع إقراره بها طوعاً، وجعله يتقلب بين الذهول وطلب المغفرة.

جرت بين الإمام عليه السلام وبين ذلك الشيخ البريء المحاورة الآتية.

قال له الإمام: يا شيخ هل قرأت القرآن؟.

فوجم الشيخ مبهوراً، وقال: نعم.

قال الإمام: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

قال: نعم، قرأتُ ذلك.

فقال الإمام: فنحن القربى يا شيخ.

فهلّ قرأت في بني إسرائيل ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[2].

فقال: قد قرأت ذلك. قال الإمام: فنحن القربى يا شيخ.

قال الإمام: فهل قرأت هذه الآية.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3].

قال الشيخ نعم، فقال له الإمام: فنحن القربى يا شيخ.

قال الإمام: هل قرأت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4].

قال الشيخ: قد قرأتُ ذلك.

فقال الإمام: فنحن أهل البيت الذين اختصّنا الله بآية الطهارة يا شيخ.

---

(١) سورة الشورى/ ٢٣.
(٢) سورة الاسراء/ ٢٦.
(٣) سورة الأنفال/ ٤١.
(٤) سورة الأحزاب/ ٣٣.

وبقي الشيخ ساكناً نادماً على ما تكلّم به، وقال: بالله إنكم هم؟.

فقال الإمام: إنا لنحن هم من غير شك، وحق جدّنا رسول الله ﷺ إنا لنحنُ هم.

فبكى الشيخ ورمى عمامته، ثم رفع رأسه إلى السماء قائلاً:

اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد من جنّ وإنس.

ثم قال للإمام: هل لي من توبة؟.

فقال الإمام، نعم إن تبت تاب الله عليك، وأنت معنا، فقال: أنا تائب وبلغ خبره يزيد فأمر بقتله[1].

ولك ـ بعد هذه المحاورة ـ أن تتمثل مدى التمويه السياسي الكبير الذي مُني به الناس، فالسواد الأعظم لا يعلم من أمر هؤلاء الأسرى شيئاً، والاشاعة المنظّمة تقول إنهم خوارج استهدفوا الناس فقتلوا، وسبيت النساء والذريّة، والناس بين مصدّق يجهل حقيقة الحال، وبين عابر سبيل لا يعنيه من الأمر شيء، وبين مترصد يريد أن يعلم.

فهل استطاع هذا الفصيل أن يعلم؟ ربما كان ذلك.

حينما أدخلت الرؤوس مجلس يزيد، كان في مقدمتها رأس الحسين ابن أمير المؤمنين، وكوكبة من رؤوس أهل بيته وأنصاره، وإذا بالوقائع تنجلي أمام المغرّر بهم، وإذا بالقتيل هو الحسين بن علي عليه السلام وإذا بالقتلى أسرته وأصحابه الأقربون، فالقتلى إذن ليسوا بخوارج. وإذا بالأسرى هم ثقل آل محمد من الهاشميات، وإذا

---

(١) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٣١ وانظر مصادره.

بالموازين تنقلب في غير صالح النظام حتى ليكاد يبرأ رأس النظام مما حدث.

فقد روى الشيخ المفيد قدس الله سره الشريف «أن السبايا حينما أدخلوا على يزيد رأى هيئة قبيحة، فقال: قبّح الله ابن مرجانة، لو كانت بينه وبينكم قرابة ورحم ما فعل بكم هذا، ولا بعث بكم على هذه الحالة»[1].

وكأن ابن زياد لم يفعل هذا وأعظم من هذا بأمر يزيد بالذات؟ وكأن هذا الاجراء الفظيع لم يكن بتوجيه مباشر منه؟ لو كان يزيد صادقاً فيما يزعم لعنّف ابن زياد أو قرعّه في الأقل، ولعزله لاجترائه مستبداً في هذا الصنيع، ولكنه رفعه، وعَظُمتْ مكانته لديه، وحظي عنده بما لا مزيد عليه، بيد أن يزيد أراد آنياً إلصاق هذا العمل بابن زياد تهدأة لبعض الخواطر الملتهبة، وتضليلاً لغضب آخرين حاولوا النكير جزئياً بعد عرفانهم أن السبايا هم آل محمد، ضمن أحداث صغيرة يذكرها المؤرخون، ولكن دلالتها كانت كبيرة على النظام لأنها في غير صالحه. ولعل من ألصقها علاقة بما نحن بصدده؛ طلب رجلٍ من أهل الشام من يزيد أن يهب له فاطمة بنت الحسين بملحظ أنها سبيةً، فانتهرته زينب ابنة أمير المؤمنين قائلة لاضاءة الموقف: «كذبت واللهِ ولؤمتَ، واللهِ ما ذاك لك ولا له».

فغضب يزيد وقال «كذبتِ، إنّ ذلك لي، ولو شئتُ أن أفعل لفعلتُ».

فقالت زينب «كلاّ والله ما جعل الله لك ذلك، إلاّ أن تخرج عن ملتّنا، وتدين بغيرها».

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٣٠.

فاستطار يزيد غضباً، وقال: «إياي تستقبلين بهذا الكلام؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك».

فقالت زينب: «بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدك وأبوك إن كنت مسلماً».

قال يزيد: كذبت يا عدوة الله.

فقالت زينب «أنت أميرٌ تشتم ظالماً، وتقهر بسلطانك»[1].

بهذا انتهت هذه المحاورة الشديدة في لهجتها، القوية في حجاجها، المصمية في سهامها. وكان الرجل السياسي الذي استخدم للتعتيم على أبناء الثورة هو الذي جرّ إلى هذه المحاورة، وهو المسؤول الذي دفع بهذا الشامي أن يطلب مستخدماً ابنة الحسين، وهو لا يعلم ما لهذه المرأة من الحرمة، وهو لا يدري هويَّة هؤلاء الأسرى، وما يدرينا فلعله اعتقد الأسرى من سبي الروم أو الديلم أو الخوارج حقاً؟ حتى إذا صدعت ابنة أمير المؤمنين بما سمع، تفرّى الليل عن صبحه للناظرين.

وكان موقف الإمام زين العابدين عليه السلام وموقف ابنة أمير المؤمنين من أولويات الكشف النضالي لما اسْتغفِلَ به الناس، وهو أيضاً صوت انتقالي بأذهان هؤلاء الغافلين إلى حقيقة الأمر، وكلاهما جزءٌ لا يتجزأ من الإعلام الأساسي الذي يصور أبعاد الثورة.

ب ـ الإمام وابنة أمير المؤمنين في مجابهة يزيد:

ويبدو أن هذا الملحظ الدقيق لدى الإمام زين العابدين عليه السلام

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٣١.

ولدى العقيلة زينب، وحتى عند أخوات زينب وبقية السبايا، كان منظوراً إليه في ذاته لاستكناه الواقع المضيّع، والإيحاء بالظلامة النازلة، وكان منظوراً إليه أيضاً في تعرية ما اقترفه النظام الأموي من جرائر لا مزيد عليها، لهذا ولإيجابيات أخرى نجد هذا الموقف الصلب يتكرر بمناسبتين مختلفتين في الشام تستدعي كل منهما ذات المنهج.

١ ـ حينما استهان يزيد بحرمة الحسين عليه السلام ونكث ثناياه بمخصرته في مجلسه العام، انقضّت عليه ابنة أمير المؤمنين تستنكر فعله، وتعرّي حكمه، وتستفظع عمله، وهي تقف به على عاقبة أمره وسوء منقلبه في تلك اللحظة التي امتلأ بها زهواً وفرحاً وسروراً، وتطاول فيها غطرسةً وشماتةً وغروراً، فجابهته بخطبتها الشهيرة المدوّية، وقالت:

«الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وصلّى الله على رسُولهِ وآلهِ أجمعينَ».

وصدق الله سبحانَهُ حيثُ يقولُ:

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

أظننتَ يا يزيدُ حيثُ أخذتَ علينا أقطارَ الأرضِ وآفاقَ السماءِ، فأصبحنا نساقُ كما تساقُ الإماءُ أنَّ بِنَا هَواناً عَلَى الله وبِكَ عَليهِ كرامةً، وأنَّ ذَلكَ لِعُظم خطرِكَ عِندَهُ، فَشَمَخْتَ بأنفِكَ، ونظرتَ في عِطفِكَ جذلانَ مسروراً، حيثُ رأيت الدُنيا لك مستوسِقةً، والأمورَ مُتَسقَةً، وَحِين صَفا لَكَ مُلْكُنا وسُلطانُنا، فمهلاً مهلاً، لا تطشْ جَهْلاً، أنسيتَ قول الله تعالى:

---

(١) سورة الروم/ ١٠.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1].

أمن العدل يا ابن الطلقاءِ؟ تخديرُكَ حرائرَكَ وإماءَكِ، وسوقُكَ بنات رسول الله ﷺ سبايا، قَدْ هتكتَ ستُورَهُنَ، وأبديتَ وجوهَهُنَ تحدو بهن الأعداءُ منْ بلدٍ إلى بلدٍ، ويستشرفُهُنَ أهلُ المناهِلِ والمناقلِ، ويتصفحُ وجوهَهُنَ القريبُ والبعيدُ، والدَنيُ والشريفُ، ليسَ مَعَهُنَ مِنْ حماتهُنَ حَمِيٌّ، وَلا من رجالِهُنَ وَليٌّ. وكيف ترتجي مُراقبةُ من لَفَظَ فُوهُ أكبادَ الأزكياء، ونَبَتَ لَحمُهُ بدماءِ الشهداء، وكيف يستبطأُ في بغضنِا أهلَ البيتِ؟ مَنَ نظر إلينا بالشَنَفِ والشنآن والإحَن والأضغانِ، ثم تقولُ غير متأثمٍ ولا مستعظم.

لأَهَلّــوا واستهلّــوا فــراحــاً ثُــمَّ قــالــوا يــا يــزيــدُ لا تُشَــلْ

منحنياً على ثنايا أبي عبد الله، ومكان مقبّلِ رسول الله ﷺ تنكثها بمخصرتكَ، وكيف لا تقولُ ذلِكَ، وقد نكأتَ القرحةَ، واستأصلت الشأفة باراقتِكَ دماء ذريةِ محمد ﷺ ونجوم الأرض مِنْ آلِ عبد المطلب، وتهتفُ بأشياخكَ زَعَمتَ أنّكَ تنادِيهم، فلتردَنَّ وشيكاً مَوردَهَمْ، ولتودُنَ أنّكَ شُلِلتَ وَبكُمْتَ، وَلَمْ تكُنَ قُلتَ ما قُلتَ، وَفَعَلْتَ ما فَعَلْتَ.

اللّهُمَ خُذْ لنا بحِقّنا، وانتَقِمْ ممَنْ ظَلَمَنا، وأحلِلْ غَضَبَكَ بمن سَفَكَ دِماءَنا، وَقَتَلَ حماتنا، فوالله ما فريتَ إلاّ جِلدَكَ، ولا حززتَ إلاّ لحمَكَ، ولتردنَ على رسول الله ﷺ بما تحملتَ من سَفكِ دماء

---

(١) سورة آل عمران/ ١٧٨.

ذريتهِ، وانتهكتَ من حُرمتِهِ ولُحَمتِهِ، حيثُ يَجمَعُ الله شَمَلَهُمْ، ويلّمُ شَعثَهُمْ، وَيأخُذُ لَهُمْ بِحقّهِم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1].

وَلَئِن جَرّت عليَّ الدَواهي مخاطبَتَكَ، إنّي لأستصغرُ قدرَكَ، وأستعظِمُ تقريعَكَ، وأستكبرُ توبيخَك، لكنَ العيونَ عبرى، والصدور حرّى، ألا فالعَجَبُ كلُّ العَجَبِ لقتلِ حزب اللهِ النجباءِ، بحزبِ الشيطان الطلقاءِ.

فهذهِ الأَيدي تَنطِفُ من دِمائِنا، والأفواهُ تتحلبُ من لحومِنا، وتلكَ الجثثُ الطواهرُ الزواكي تنتابُها العَواسلُ، وتعفرّها أمهاتُ الفراعل، وَلَئِن اتخذتَنا مَغرَماً، لتجدننا وشيكاً مغرماً، حيثُ لا تجدُ إلاّ ما قَدَمَتْ يداك؛ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

فإلى اللهِ المشتكى، وعليهِ المعوّل، فَكِدْ كَيدَكَ، وأسعَ سعيَكَ، وناصبْ جهَدكَ، فواللهِ: لا تمحو ذِكْرَنا، ولا تميتُ وَحيَنا، ولا تُدرِكُ أمدَنا، ولا ترحض عنكَ عارَها. وهَلْ رأيُك إلاّ فَنَدٌ، وأيامُكَ إلاّ عَدَدٌ، وَجَمعُك إلاّ بَدَدٌ، يومَ ينادي المنادي: ﴿رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[3] فالحمدُ للهِ الذي خَتَمَ لأوَلنا بالسَعادةِ والمَغفِرَةِ، ولآخِرِنا بالشهادةِ والرَحمةِ، ونسألُ الله أن يُكملَ لَهُم الثوابَ، ويُوجبَ

---

(١) سورة آل عمران/ ١٦٩.

(٢) سورة فصلت/ ٤٦.

(٣) سورة هود/ ١٨.

لهم المزيدَ، ويحسنَ عَلَينا الخِلافةَ، إنّهُ رَحِيم وَدُودٌ، ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[1].

فقال يزيد مجيباً لها:

يـا صَيحَـةً تُحمـدُ مِـنْ صـوائـحِ ما أهونَ النوحَ عَلَى النوائح[2]

والمُعطىٰ الريادي لهذه الخطبة الثائرة يتجلى بالإفاضة بحمد الله تعالى، والابانة عن عاقبة الظالمين، رُبطَ ذلك بمنحى بلاغي تحذيري اعتمد الاستشهاد القرآني في سياق البيان، وثنّى بتوبيخ يزيد وتقريعه وإن أخذ أقطار الأرض وآفاق السماء على أهل البيت، فليس ذلك هواناً بهم وكرامة عليه، فلا خطر في حساب السماء للطغاة، وإنما هو سلطان الله اغتصبه من أهله، فصال به عليهم ظلماً وعدواناً.

ثم كان التذكير للطاغي بأنه طليق وابن طليق، يخدّر حرائره وإماءه، ويسوق بنات رسول الله ﷺ بالحالة التي وَصَفَتها وصفاً ميدانياً لا غبار عليه، وأردفت أن يزيد لا ترتجى مراقبته لله فهو ابن آكلة الأكباد هند أم معاوية جدته بلا فصل، وهو قد بنت لحمه بدماء الشهداء، فهو مسرع إلى بغض أهل البيت لا عن كلالة، فاستأصل شأفتهم باراقة دمائهم الزاكية، وما قرىء بذلك إلا جلده، ولا حزَّ إلا لحمه، وليبردن على رسول الله ﷺ بما تحمل من هذه الأوزار العظيمة، وهو بين يدي الله «وحسبك بالله حاكماً، وبمحمد خصيماً، وبجبرائيل ظهيراً» وانتفضت ابنة أمير المؤمنين انتفاضة الإباء والشمم، فأطاحت من كبرياء الحاكم الوضيع فقد جرّت عليها الدواهي مخاطبته، وهي تستصغر قدره، وتستعظم تقريعه، وتستكبر توبيخه.

---

(١) آل عمران/ ١٧٣.

(٢) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٣٤ وانظر مصادره.

لكن العيون عبرى والصدور حرّى، ثم كان الانكار التقريري تحمل فيه العجب لقتل حزب الله بحزب الشيطان، وما جرى بعد ذلك من المآسي والفظائع سعياً وجهداً لاطفاء نور الله، وإماتة وحيه، والذكرُ باقٍ لا يفنى، والوحيُ حيٌّ لا يموت.

وأوقفته على مصيره، فالأيام معدودة، والجمع إلى بداد، واللعنة على الظالمين.

وما كان ردّ يزيد إلا جواب المغبون ونداء المغبون، فقد بهر وبهت وارتد وتعثر واستشاط ، وذهب الردّ الهزيل الواهن أدراج الرياح.

٢ ـ وكان الإمام زين العابدين عليه السلام في حالة مرضيّة صعبة، ولكنه إشرأب لهذا الموقف العظيم الذي اتخذته ابنة أمير المؤمنين، فثنّى عليه مؤكداً، وعاود المنهج نفسه معاوداً، فامتلأ يزيد رعباً وفزعاً، واهتز خوفاً وفرقاً، ولكنه تستر على ذلك بالصمت الرهيب، ولاذ بالفرار المذهل، قال له الإمام:

«ويَلَكَ يا يزيدُ، إنَّكَ لَو تدري ماذا صَنَعْتَ؟ وما الذي ارتكَبتَ؟؟ مِنْ أَبِي وَأهْلِ بَيتي، وأخي وعُمومَتي، إذَنْ لهَرَبْتَ في الجبالِ، وافترشتَ الرَمَادَ، ودعوتَ بالويلِ والثبُوُر أنْ يكون رأسُ أبي الحسين بن فاطمة وعَلَيٍّ، منصوباً عَلَى بابِ مَدِينتِكُمْ، وهُو وديعةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأبشرْ بالخزيِّ والندامةِ إذا اجتمَعَ الناسُ ليومِ القيامة»[1].

وكان هذا المشهد النضالي لأسارى أهل البيت في الشام جديراً أن يبدو نشوة النصر المزعوم للأمويين، ولربما عكس الأمر تماماً على

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٣٧ وما بعدها.

أولئك الجبابرة العتاة، وما يدرينا فلعل الاحتجاجات قد كثرت، والنكير قد ازداد، وليس ذلك ببعيد إذ لم يطل المقام بهؤلاء الأسرى إلا أياماً معدودة في خربة من خربات الشام ما كادوا أن يغادروها حتى دفنوا (رقية بنت الحسين) وقد ماتت كمداً على رأس أبيها فيما يروى، وقبرها اليوم مشهد عظيم في مركز دمشق شمال المسجد الأموي الكبير.

فهو روضةٌ من رياض الجنة، وتحفةٌ من الأثر الفني البارز، زيّنتْ معالمُهُ بالضريح الذهبي الفضي، وجدرانه بالفسيفساء والكاشي المعرّق، ويحتضنه مسجدٌ كبير، فرش بأروع السجّاد الإيراني الثمين، وعليه من مظاهر الهيبة والوقار ما يسّر الناظرين، يحوطه الصحن الفاره حواليه، وقد زرته مراراً، وفتح لي سادن المقام والمتولي الأستاذ نبيل الأسمر الضريح، فطفت في جوانبه، وأنا أردد في نفسي مطلع قصيدة في مدح السيّدة رقية بنت الحسين عزمت بحول الله على نظمها، وهو:

هُنا بجّلق من صوتِ الحسينِ فمُ　　باقٍ معَ الدهرِ لا يجتاحُهُ الهرمُ

أقول لم يطل مكث الأسارى في الشام حتى سرح بهم يزيد مع النعمان بن بشير الأنصاري، فسار بالركب إلى المدينة المنورة سيراً رفيقاً، بعد مروره بكربلاء فيما يروى، وفي المدينة بدأ النضال الانكاري بأسلوب جديد، وعلى صعيد جديد وفي صوت هادر.

الركب الهاشمي في طريق العودة

أ ـ الركب يعرّج على كربلاء:

كان الركب الهاشمي من الأسارى قد غادر الشام وهو في طريق العودة إلى المدينة المنورة، وكانت آفاق الحياة السياسية مضطربة، والحالة الاجتماعية غير مستقرة، فالحكم بين الإصرار على الجريمة وبين التنصل المصطنع منها، والعامة من الناس قد سرى بين ظهرانيهم نبأ مقتل الحسين عليه السلام وأسر أهل بيته ونساء أنصاره، والخاصة منهم في تأنيب من الضمير، ومرارة من الندم، فهم لم ينصروا الحسين، وهم لم يمنعوا عن الحسين، وعسى أن يكونوا قد أعانوا عليه. وهناك الرعيل الثالث من الوصوليين ممن أفادوا واستفادوا بمصرع الحسين عليه السلام فهم مع بني أمية في التفكير العام، وهم مع المصابين في فجيعة الحسين قد يواسونهم كذباً، وقد يتقربون إليهم دجلاً، فهم الانتهازيون حقاً، يشاركون هؤلاء وهؤلاء في مشاعرهم بغية الكسب السياسي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت آهات الأسارى تخترق الصدور لتتعالى في الفضاء الرحب، وكانت أطياف المعركة تتراءى بفظائع مجازر القتلى فيدب النكير الصامت، وكان الركب الهاشمي في طريقه إلى العودة، فلما فصل الركب، كان مفرق الطرق يحاور الحدود العراقية، وكان الإمام زين العابدين أو ابنة أمير المؤمنين، أو كلاهما، أو سواهما، فيمن أشار على الدليل أن يأخذ بطريقه إلى كربلاء، وكان

النعمان بن بشير فيما يبدو هيّناً ليّناً في معاملة الأسرى، فاستجاب لهذا الطلب، ولبّى هذه الرغبة الملحّة، فاتجه إلى كربلاء بالركب، فوصلوا إليها في العشرين من صفر سنة إحدى وستين من الهجرة، وكان ذلك بعد مرور أربعين يوماً على استشهاد الإمام الحسين وعصبته من الهاشميين والأنصار.

وكان رهط من بني هاشم ـ فيما يروى ـ وجماعة من الصحابة والتابعين في طليعتهم الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، قد أغذوا السير حثيثاً إلى كربلاء لدى سماعهم بمجزرة الطف، فالتقى الجمعان هناك على غير موعد، وزاروا جميعاً الحسين، فكانت زيارة الأربعين[١].

وكانت هذه الرواية هي أساس هذه الزيارة، وقد يكون أساسها جابر بن عبد الله الأنصاري وحده، وسيأتي بيان شيء من ذلك في ظواهر الثورة الاجتماعية ومهما يكن من أمر، فقد نزل الركب كربلاء في هذه الرواية، وقضى الإمام زين العابدين عليه السلام وطره بالتزود من زيارة الحسين وبقية الشهداء الأبرار، وبمعيته حرم الرسالة، وأَعلَمَ القبور، وأشار إلى المستشهدين، فعلِم الناس من سكّان الطف وسواهم تفصيل ذلك.

ب ـ الركب يتوجه إلى المدينة:

ولم يطل المقام بالأسارى في كربلاء لأسباب عاطفية وسياسية، فانفصل الركب من كربلاء بعد ثلاثة أيام، واتجه نحو المدينة المنورة،

---

(١) ظ: في رواية زيارة الأربعين: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٤٤.

تطوي به الرواحل البيداء، فلمّا قربوا منها، يقول بشر بن جذلم: نزل بالقرب منها علي بن الحسين عليه السلام فحطّ رحله، وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه، وقال: يا بشر رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر شيء منه؟ قلت: بلى يا ابن رسول الله إني لشاعر. قال فادخل المدينة، وانعَ أبا عبد الله. قال بشر: فركبت فرسي، وركضت حتى دخلت المدينة، فلمّا بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء، وأنشأت أقول:

يا أهْلَ يثربَ لا مُقامَ لكُمْ بها ... قُتِلَ الحسينُ فأدمعي مدرارُ
الجسمُ منه بكربلاءَ مَضَرَّجٌ ... والرأسُ منهُ على القناةِ يدار

ثم قلت: يا أهل المدينة؛ هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته، قد حلّوا بساحتكم، ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم، أعرفكم مكانه. فما بقيت بالمدينة مخدرة ولا محجبّة إلا برزن من خدورهن، وهنّ يدعين بالويل والثبور، ولم يبقَ بالمدينة أحد إلاّ خرج، وهم يضجّون بالبكاء، فلم أرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وكانت هذه الإشارة من الإمام زين العابدين عليه السلام تشكل بعداً إعلامياً معاكساً لاتجاه النظام الحاكم في التغطية على المأساة من جهة، كما تمثل رصداً دعائياً مناوئاً لتطلعات الحاكمين في النصر والظفر فيما يزعمون من جهة أخرى، كما جسدت مظهراً حزيناً مفجعاً ضد مظاهر الشماتة والتشفي بقتل الحسين عليه السلام فالنساء برزت من الخدور، والرجال في تجمهر وتجمع، بين باكٍ وباكية، ونادب ونادبة، فكأنه يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) ظ: الأمين العاملي/ أعيان الشيعة ٤/ أول/ ٣٤٥ وانظر مصادره.

وكان هذا العمل في تقدير النظام عبارة عن اتجاه سلبي منظّم يقابل ذلك التشفي، وهو بعدُ تيّارٌ جديد يجابه ذلك الحقد الأسود، كما يفهم ذلك مما رواه

الطبري وابن الأثير وسواهما؛ قالوا:

«ولمّا نودي بقتل الحسين في المدينة، وعلم الناس بذلك، ضجّت المدينة بأهلها، ولم تسمع قطّ مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين. وخرجت ابنة عقيل بن أبي طالب حاسرة، ومعها نساؤها، وهي تلوي بثوبها، وتقول:

ماذا تَقُولُونَ إنْ قال النبيُّ لَكُمْ ... مَـاذا فَعَلْتُـمْ وَأنتُـمْ آخِـرُ الأُمَـمِ
بعتـرتـي وَبـأهْلِـي بَعْـدَ مُفْتقَـدي ... مِنْهُمْ أُسارى، ومِنهُمْ ضُرّجوا بِدمِ

فلما سمع عمرو بن سعيد الأشدق ـ أصواتهن، ضحك وقال:

عَجّـتْ نِسـاءُ بَنـي زيـادٍ عَجّـةً ... كَعَجيـجِ نِسـوتنـا غـداةَ الأرنـبِ

ثم قال: هذه واعيةٌ كواعية عثمان[1].

ج ـ زين العابدين يستثمر الهياج الجماهيري:

وقد استثمر الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الفورة العارمة استثماراً فعلياً من أجل استمرارية رسالة أبيه الحسين في الثورة، فأثار مكامن الأسى، وفجّر لواعج اللوعة، وجدد حياة الظلامة، ونشر مبادىء الاستنكار، فوقف خطيباً في أهل المدينة، ومشاعر الأسى تنتابهم، وهول الفاجعة قد أذهلهم، والشعور بالذنب قد أمضّ بهم،

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٣٥٦ + ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٠٠.

والقلق النفسي يسيطر عليهم، لا فرق في ذلك بين قريب للحسين وبعيد عنه، إلا أولئك النفر من أبناء الطلقاء ومسلمة الفتح وبقية الأحزاب، وباستثناء ولاة السوء وعملاء النظام، قال الإمام في خطبته:

«الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، الرحمنِ الرحيم، مالكَ يوم الدينِ، باريء الخلائقِ أجمعينَ، الذي بَعُدَ فارتفعَ في السماوات، والذي قَرُبَ فشهِدَ النجوى، نَحمَدُهُ عَلَى عظائمِ الأمور، وفجائعِ الدهور، وألمِ الفجائع، ومضاضةِ اللواذعِ، وجليلِ الرزءِ، وعظيم المصائب الفاظعةِ، الكاظّةِ، الفادحةِ، الجائحة».

«أيُّها القومُ: إنَّ الله وَلَهُ الحمدُ، ابتلانا بمصائب جليلةٍ، وثلمةٍ في الإسلام عظيمةٍ، قُتِلَ أبو عبد الله وعترته، وسُبيَ نساؤه وصبيتُهُ، وداروا برأسَهِ في البلدانِ من فوقِ عامل السنان، وهذه الرزيّةُ التي لا مِثلُها رزيّةٌ. أيُّها الناسُ: فأيُّ رجالاتٍ منكُمْ يُسَرّوُنَ بعدَ قَتلِهِ، أمْ أيُّ فؤادٍ لا يَحزَنُ مِن أجلِهِ، أمْ أيُّ عينٍ مِنكُمْ تحبسُ دَمعَها، وتضنُ عن انهمالِها، فقد بكت السبعُ الشدادُ لقتلِهِ، وبَكَتِ البحارُ بأمواجها، والسمواتُ بأركانِها، والأرضُ بأرجائِها، والأشجارُ بأغصانِها، والحيتانُ بلجج البحارِ، والملائكةُ المقربون، وأهل السماواتِ أجمعون.

أيّها الناسُ: أيّ قلبٍ لا ينصدع لقتلهِ، أم أيُّ فؤادٍ لا يحّنُ إليهِ، أمْ أيُّ سمعٍ يسمع هذه الثلمةَ التي ثلمتْ في الإسلام ولا يُصّمُ.

أيّها الناسُ: أصبحنا مطرودينَ، مشردينَ، مذودينَ، شاسعينَ عن الأمصارِ، كأنا أولادُ تركٍ أو كابلٍ، من غير جرمٍ اجترمناهُ، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمةٍ في الإسلام ثلمناها، ما سِمعِنا بهذا في آبائِنا الأولينَ. إن هذا إلاّ اختلاقٌ. واللهِ لَوْ أنَّ النبيّ ﷺ تقدّمَ إليهِمْ في قِتالِنا كما تقدّمَ إليهِمْ في الوصايةِ بِنا، لما زادوا عَلَى ما فَعَلُوا بِنا، فإنا لله وإنا إليهِ

راجعونَ، من مصيبةٍ ما أعظمها، وأوجعَها، وأفجعَها، وأكظَّها، وأفظَعها، وأمرّهَا، وأفدحَها، فعندَ اللهِ نحتسبُ فيما أصابنا، وما بَلَغَ مِنّا، إنَّهُ عزيزٌ ذو انتقام»[1].

وكان حرياً بهذا الانعطاف الثوري والمأسوي في هذه الخطبة وأمثالها، أن يسعى في تغيير مجرى الأحداث في غير صالح النظام، وأن تثير مشاعر الكراهية ضده، وأن تعبىء الطاقات حماساً يستهدف جبروت الحاكمين، هذا من وجه، ومن وجه آخر فإن هذا الإعلام النضالي بمظلومية أهل البيت قد يستثير ذكريات الخذلان لأهل البيت عند الناس، فيكون هذا الاستذكار مدعاةً لانتزاع الاحساس بالإثم، فيكفّر عنه بعمل إيجابي ولو كان ضئيلاً إلاّ أنه قد يساعد على إضعاف النظام ولو بعد حين، وقد تتجمع أصداء الأعمال الصغيرة فتندفع صوتاً هادراً موحّداً، وقد تتضافر الجهود مشحُونةً شحناً هائلاً بآثار الاثم العميق، فيحدث انفجاراً كبيراً ليس في الحسبان.

وما يدرينا!! فلعلّ هذا وذاك ما سيؤول في المستقبل إلى ثورة شاملة لا تبقي ولا تذر، أو قد يكون بأبعاده النفسية مما يهيىء للتفكير الجاد بصورة مستقبلية عارمة، وهذا ما حدث بالفعل، إذ توالت الأحداث الدامية موحدة ومتفرقة، وهي تنخر بكيان النظام، وتهز الحكم من أصوله، وتجمع حولها الثائرين بوعي وإصرار، وتوحد الناقمين والمستنكرين بحدٍّ وإخلاص، حتى استطاعت أن تقضي على النظام قضاءً تاماً فيما استُقبِل من الثورات.

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة/ ٤ أول/ ٣٤٦ وما بعدها.

د ـ النظام يتنصل من جريمته النكراء:

اهتز العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه يستنكر الجريمة النكراء بكثير من الفزع والاستهجان، فالأنبياء تشير إلى مصرع الحسين في أهله وأنصاره، والركبان تتحدث عن سبي بنات رسول الله ﷺ ويزيد هذا في أول سنة حكمه، فإلى أين ستصل بهم الحياة السياسية بهذا الاتجاه الخطير، وبدأت بعض الأصوات تتصاعد في المدينة والكوفة كما سترى، وبدأ حاجز الخوف يتلاشى تدريجياً مع كل الاجراءات القاسية، ويبدو أن النظام قد تنبه إلى هذا الخطر الداهم، وبدأ يحسب له الحساب الخاص، فحاول التخفيف من غلوائه، عسى أن تتم السيطرة على الموقف، وذلك بأمرين:

الأول: تنصل رأس النظام يزيد بن معاوية ـ متظاهراً ـ عن جريمته في مجزرة كربلاء الرهيبة، ونسب ذلك العمل إلى ابن زياد، مما يعني أنه عملٌ فردي، وإجراء شخصي، لا تخطيط له من قبل الحكم.

الثاني: تلك الأعطيات الضخمة، والهبات الجزيلة الطائلة، والمِنَحُ السخية المتتابعة، لوجوه المسلمين، وقادة المجتمع، وزعماء القبائل.

فقد تحدثت الأرقام عن مبالغ عتيدة كان النظام يجود بها لهؤلاء وهؤلاء تغطية على المأساة، وعسى أنه يجنح هذا الجمع إلى الصمت بدل الإنكار.

على أن التحقيق في إيجابيات هاتين الظاهرتين كما كان يريده النظام لم يكشف لنا عن أي جدوى فيما سُخّر إليه، بل كان العكس هو الصحيح غالباً.

لم ينخدع ذلك المجتمع بعامة، ولم يعتقدوا بل لم يصدّقوا أن

ابن زياد وحده كان وراء مجزرة الطف، بل كان الاعتقاد السائد أن يزيد هو الآمر وهو المريد وهو المدبر لتلك المجزرة وما لحقها من إجراءات تعسفية حاقدة، ولو كانت تلك الفظائع عملاً فردياً من صنع ابن زياد وحده، لعوقب وعزل، وحوسب، ولكن الذي حدث أن أدني ابن زياد وازداد خطوة عند يزيد، وعاد الآمر الناهي والناطق الرسمي باسمه، وهذا النوع من التضليل قديماً ما سلكه معاوية، فلا عجب أن يقتدي يزيد بأبيه، فقد أشاع معاوية أن زياداً قد أعجله على قتل حجر بن عدي، بل أن زياداً هو الذي قتل حجراً، ولكن أحداً لم يتعقل هذا الزعم لأن زياداً بعد مقتل حجر بن عدي عاد هو المقرّب والمتنفذ والوجيه عند معاوية، والمسلمون لم ينخدعوا بزعم معاوية سابقاً، ولا بزعم يزيد لاحقاً، فالحقيقة لا تحجبها إشاعة سياسية مبرمجة.

وكما لم ينخدع الناس بالظاهرة الأولى التي روَّج لها رأس النظام، فهم لم ينخدعوا أيضاً، ولم يجنحوا إلى الصمت بعد العطاء الجزل في الظاهرة الثانية، فقد علا صوت النكير أولاً، وتلاوم الناس فيما بينهم على ما أصيبوا به من الدعة والهوان ثانياً، وقد خرجت الجيوش الثائرة من هنا وهناك، واتصلت الثورات بعضها ببعض، واستيقظ الشعب المسلم من رقدة الضمير، وهب إلى التغيير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كما سترى ذلك في الفصل الخامس من هذا الكتاب إن شاء الله.

د ـ حديث الطف بين البحث الموضوعي والجانب المأساوي:

عرض هذا البحث الجانب الموضوعي في ضوء معطيات التحليل النقدي للأحداث، وقد تبنى الفصل الأول والثاني المنهج الموضوعي

خالصاً وفلسفة التاريخ، وهذا المنظور نفسه قد شمل الفصل الثالث والرابع أيضاً، إلا أنك تلمس فيهما مضافاً إلى ذلك الجانب المأساوي في حديث الطف، وقد تردد الباحث كثيراً في عرضه أول الأمر، ولكنه فرض حيثياته على الموضوع فرضاً منهجياً لا مفرّ عنه، فبرز فيه الدور البطولي لقادة الثورة، وتجلى البعد الفجائعي لأحداث الطف، وارتسمت مشاهد الفاجعة في سرد تراجيدي قد تبدو فيه العواطف جياشةً، وقد تستدرّ الدموع ساخنةً، وقد يتصاعد الأسى في تضاعيفه.

ولكن نظرة فاحصة تبدد هذه الاحتمالات منفردةً، فلثورة الحسين في كربلاء مناخ موضوعي مشحون بالصراعات بعواملها الاجتماعية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والقبلية. هذا ما لا شك فيه، ولها أيضاً جانب مأساوي لا نريد بعرضه استدرار الدموع وإلهاب المشاعر، بقدر ما يراد به إحاطة المتلقي علماً بحقد الحاكمين، وشراسة أجهزتهم القمعية، وهمجية جيشهم المقاتل، وبشاعة التصرف في النفوذ للولاة وأعوان النظام، فقد لجأ الحكم الأموي إلى أسوأ مثل في التاريخ الإنساني فجعله شعاراً له.. هذا المثل الشاذ يتجسد بوسائل ارتكاب أبشع الجرائم من أجل البقاء في السلطة ولو إلى حين قد يقصر وقد يطول، فهو يقترف كل صنوف القتل والتمثيل من أجل التشفي والانتقام، وهو يرضّ الأجساد القتيلة بالخيول، وهو يقطع رؤوس أعاظم الناس ويسيرها في الأزّقة والطرقات، وينصبها في الميادين العامة، وهو يسبي نساء آل محمد رسول الله، وهو يذبح الطفل الرضيع من الوريد إلى الوريد، وهو يقتل الشيخ الصحابي الكبير أشنع قتلةً، يسد بكل هذه الاجراءات الجديدة على الساحة الإسلامية كل منافذ التفكير في أيّ تغيير مهما كان جزئياً أو ضئيلاً، وليتجمد كل عمل في قرارته فلا يتحرك نحو التنفيذ، إذن لا بد للبحث من الإشارة بشيء من

الإيجاز إلى مجمل الممارسات اللاإنسانية للنظام، للتعبير عن واقعين متقابلين. واقع الثوار الرسالي في الصبر والمعاناة والمكابدة، وواقع النظام السلطوي في القمع والنكال والمُثلة، هذان الواقعان يتمم أحدهما الآخر في استقراء الوقائع في أصدق صورها، وهما باجتماعهما باطار موحّد قد عملا على بعث المجتمع من السبات العميق، وقد كان للمأساة بعدُها الفاعلُ في هذا الإحياء.

العنصر المأساوي في ثورة الحسين عليه السلام قد مثل رصيداً شامخاً ـ فيما بعد الثورة ـ دفع بالنفوس المتوجسة والمترددة إلى الشعور الدائم بالاثم، وكان توالي هذا الشعور وتدافعه يدعو إلى التفكير في التكفير عنه قدر المستطاع، وهو ما حرصت عليه ثورة الحسين في آثارها النضالية، فكان استمرار هذا اللهب الوقّاد قد هيج جذوة الكفاح من مكامنها، لتنطلق على شكل عمل ثوري يهز النظام.

والجانب المأساوي الصارخ كان وحده الدليل المادي على همجية النظام من خلال التأشير على كل تجاوزاته في كثير من الأحداث الحاقدة: الانتقام الدموي، رضّ الصدور والأجسام بعد القتل، قطع الرؤوس البارزة رغباً ورهباً، سبي العوائل الكريمة، الاستهتار بالقيم الإنسانية.

والشبح المأساوي المترائي لثورة الحسين، هو الذي كتب للثورة الحياة التاريخية المتجددة لدى فصائل الشعوب المختلفة، فتناقلها الأبناء عن الآباء والآباء عن الأجداد وهكذا، فكانت حية لا تهدأ ولا تستكين تستصرخ الضمائر، وتستلهم الأرواح في إيحاء داخلي تتعاقب على إثارته المشاهد التي جرت على العترة الطاهرة من أجل الإنسان المسلم.

والرصد المأساوي النافذ لثورة الحسين هو الذي قرَّب للأذهان المبادىء العليا التي نهض بها الحسين في ذلك المجتمع المخدّر بالمغريات والارهاب الدموي، فمثل الاحتجاج اللامتناهي على أوضار الحكم وشوائبه، ونبّه الشباب المتحفز من الثائرين إلى طيش الحاكمين، وسيّر النقد المتواصل لفوضوية الأحكام العرفية والجاهلية المجافية لروح الإسلام، فالتقى الهدف الديني الثوري في اطار اجتماعي متميز.

والبحث المأساوي الهادف لا يقلل من أهمية البحث العلمي الرائد، فهما رافدان جاريان يصبّان في محيط الثورة، فالمأساة في تفصيلاتها المضنية تكشف عن المجهول، وتنير الطريق بين يدي البحث، لأن العنصر المأساوي سيرة تاريخية جرت أحداثها في متاهات شتى، وهي تستهدف رجال الثورة، فأبرازها مصورة مما يعين على فهم الثورة.

وربما كان لهذا المنظور المأساوي في ثورة الحسين الخالدة، عامله المحرك في آثار الثورة النضالية، وربما كان في طليعة تلك العوامل التي قادت الجماهير عاطفياً، كما قادتهم الثورة نفسها عقائدياً، وإذا اقترنت العاطفة الصادقة بالعقيدة الخالصة في ملحظ ثوري عارم، كانت النتائج مثمرة في عطائها النضالي الفيّاض.

يضاف إلى هذا كلّه أن ثورة الإمام الحسين عليه السلام تخترق ـ في بعدها المأساوي ـ العالم كله في اللحظات الزمنية كلها، فذكره يتلىٰ على المنابر في شرق الدنيا وغربها ليلَ نهار، وذلك أن المآتم المعقودة لإحياء ذكراه الخالدة، تستوعب الزمن كله في إطار الاستمرارية، فحينما تتجدد الذكرى الحزينة صباحاً في دولة أو إقليم، فإنها تعقد

ضحى في إقليم آخر، وظهراً فيما سواهما، وعصراً وغروباً وليلاً في أطراف أخرى، ومعنى ذلك بقاء الثورة في الأذهان على مدى أربعة وعشرين ساعة في اليوم بالنسبة لاختلاف الشروق والغروب في بقاع الأرض.

الفصل الخامس

آثار الثورة النضالية

١ ـ ثورة الحسين ومواصلة الزحف النضالي

أ ـ الثورة تمتلك أداة التغيير الاجتماعي

ب ـ الاندفاع الثوري في الكوفة

جـ ـ ثورة المدينة المنوّرة

٢ ـ ثورة التوّابين

أ ـ الإعداد للثورة

ب ـ تنفيذ خطة الثورة

٣ ـ ثورة ابن الزبير

أ ـ المبدأ العالمي لثورة الحسين

ب ـ ابن الزبير ينهض بالأمر

٤ ـ ثورة المختار

أ ـ ذكاء المختار ودوافع ثورته

ب ـ شخصية المختار القيادية

ج ـ المختار يدرك أوتاره في الانتقام

٥ ـ ثورة مطرّف بن المغيرة

٦ ـ ثورة ابن الأشعث

٧ ـ ثورة زيد بن علي

٨ ـ الانقلاب العباسي

ثورة الحسين ومواصلة الزحف النضالي

أ ـ الثورة تمتلك أداة التغيير الاجتماعي:

الثورة البنّاءة الصاعدة هي تلك الثورة التي تمهد لأرضية راسخة في إعلان التغيير، وهي تلك الثورة التي تحقق إرادة الاصلاح الاجتماعي، وقد كانت ثورة الحسين ذات ثراء عريض في هذين الحدّين، وبهما كانت ثورة الحسين تمتلك أداة التغيير الاجتماعي.

لقد عملت الثورة على إقرار هذا المفهوم بدقة متناهية، فاستطاعت تحرير الإنسان المسلم من أغلال الذلّ والعبودية، ودفعت بتفكيره المخدّر النائم أشواطاً بعيدة المدى نحو اليقظة والاستقرار السياسي، فبعد أن كان التفكير منحصراً بتلقي جوائز الدولة وهبات الحاكمين في مزايدة يعتبر رابحها الأكثر تزّلفاً في القرب من المسؤولين، عاد منظوراً للعمل من جديد بإزاء مجابهة هذا العرف المتخلّف، وتغيير هذا المنظور البدائي المصلحي الساذج للحياة.

ما كان هذا الانقلاب في المفاهيم القاصرة التي مُني بها عصر الثورة، لو لم تقم الثورة بفاعليتها من قلب الموازين في القوى المؤثرة شعورياً وسلوكياً، وبما أذكته من روح النضال لدى الصفوة المختارة من المتوثبين والمتطلعين للخلاص من كل بقايا الجمود والانحطاط والمصالح الشخصية.

لقد عبأت الثورة الجماهير المسلمة تعبأة نضالية فريدة أورثت الندم للأمويين على ما أقدموا عليه من انتهاك وتحديات، فقد فتحت باب الانتفاضات المسلحة لقيادات جديدة تناوبت على تخليص الإنسان المسلم من سياسة الجور والطغيان، وكان الالتفاف الجماهيري، حول هذه القيادات يتفاوت بحسب قدراتها على استقطاب القدر الممكن من المعارضين لسياسة الاستعباد والإرهاب الدموي.

وقد أدرك الأمويون ـ بعد فوات الأوان ـ أن مذبحة كربلاء ستجرّ إلى مذابح أخرى وشيكة، وهي وإن لم تكن بمستواها في القوة والتأثير، ولكنها قد تكون على سبيل منها في الإصرار والتضحية والنضال.

لقد أدرك الأمويون جيداً أن ثورة الحسين التي لم تحقق نصراً مؤقتاً، استطاعت أن تبقى نصراً مؤبداً مستطيلاً مدى الأجيال، وذلك النصر يتمثل في بعث الوعي السياسي، وإحياء النزعة الثورية، ومواصلة الزحف النضالي، وكل أولئك مؤشرات على استمرارية الثورة وبلوغ الفتح.

لقد أصبح الحسين عليه السلام في التاريخ الإنساني أمثولة رائعة تُحتذى في الفداء والصبر والمعاناة وإباء الضيم، وكان للقائمين معه في الثورة وهم وقودها الدموي: ذلك المظهر القيادي الرائد في اختيار الطريق الأكثر صعوبة وإنارته بالدماء الزكية الطاهرة، بعد أن أخفقت وسائل الاجتماع كافة، وأُلحدت دعوات الإصلاح في مهدها الذي انطلقت منه، وخُنقت أصوات الانكار ولم يسمع حتى صداها، ولم يبقَ أمامهم إلاّ سبيل التضحية بمعناها المادي الدقيق: التضحية بالنفس والأهل والمال والأصحاب والأنصار.

وكان قدر الحسين الرسالي وقدر أنصاره الأوفياء، أن يحملوا هذا

المبدأ العظيم، ليكون درساً اجتماعياً بليغاً لأولئك الخانعين والمتواكلين والخوالف.

وليكون ـ أيضاً ـ قدوة شاخصةً للذين يريدون التغيير الاجتماعي غير مبالين بالمتاعب والمشاق والتبعات التي تترتب على هذا التحرك الجديد. «لقد اعتاد الرجل العادي إذ ذاك أن يرى الزعيم القبلي، أو الزعيم الديني يبيع ضميره بالمال وبعرض الحياة الدنيا؛ لقد اعتاد أن يرى الجباه تعنو خضوعاً وخشوعاً لطاغية حقير لمجرد أنه يملك أن يحرم من العطاء...

«ولذلك فقد كان غريباً جداً على كثير من المسلمين آنذاك، أن يروا إنساناً يخيّر بين حياة رافهة فيها الغنى، وفيها المتعة، وفيها النفوذ والطاعة، ولكن إلى جانب ذلك كله الخضوع لطاغية، والإسهام معه في طغيانه، والمساومة على المبدأ، والخيانة له، وبين الموت عطشاً مع قتل الصفوة الخلّص من أصحابه وأولاده وإخوته وأهل بيته جميعاً أمامه. وحيث تنظر إليهم عينه في ساعاتهم الأخيرة وهم يلوبون عطشاً، وهم يكافحون بضراوة وإصرار عدواً هائلاً يريد لهم الموت، أو هذا اللون من الحياة، ثم يرى مصارعهم واحداً بعد واحد، وإنه ليعلم أي مصير فاجع محزن ينتظر آله ونساءه بعده: سبي، وتشريد، ونقل من بلد إلى بلد، وحرمان.. يعلم ذلك كله، ثم يختار هذا اللون الرهيب من الموت على هذا اللون الرغيد من الحياة.. كان غريباً عليهم أن يشاهدوا هذا النموذج العملاق من الإنسان، وهذا النموذج الذي يتعالى ويتعالى حتى ليكاد القائل أن يقول: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[1][2].

---

(١) سورة يوسف/ ٣١.

(٢) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ١٨٥ وما بعدها.

لقد رأى المجتمع الإسلامي الحسين عليه السلام يفعل هذا وأكثر من هذا، فاندفعت فصائله بوحي من الحسين تحاول التغيير أو كادت، فما عاد الحاكم ليخيفهم وإن اشتدت أساليب القمع، وما عاد الحاكم ليمتلكهم وإن لوّح بالمال الفخم والأعطيات.

ب ـ الاندفاع الثوري في الكوفة:

كانت الاجراءات الانتقامية التي تبناها النظام في سياسته الحمقاء، كفيلة بأن تميت الصحوة النضالية، وأن ترهب كل ذي إرادة ثورية، ولكن أصداء ثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت أقوى دفعاً، وأكثر تنبيهاً للمشاعر من أن تكبت تحت طائلة القسر الإرهابي، أو أن تستخذي لموجات الإعلام السياسي المضادّ، فقد عاد بإمكان الإنسان ـ في ظل هذا الزخم ـ أن يقول كلمته التي خنقت، وأن يجاهر برأيه الذي أخمد، وأن يعلن معارضته التي قمعت.

ومع أن الدماء القانية الحمراء التي سالت في كربلاء، فاصطبغ المناخ الاجتماعي بألوانها المتوهجة، قد أثارت موجة عارمة من الرعب والفزع في أنحاء الجزيرة العربية، وذلك للأسلوب الوحشي الذي أتّبع في سفكها، وللتمثيل اللاإنساني الذي جرى لجثث الثائرين بعد القتل، إلا أنها في الوقت نفسه قد أشعلت نار الحقد والكراهية للنظام في قلوب أشتات من الناس هنا وهناك.

وكان الاندفاع الثوري قد أعطى إفرازاته سريعاً بعد استشهاد الإمام الحسين فوراً في الكوفة، موطن الثورات وقاعدة أهل البيت في الولاء، وإن ملأ ابن زياد السجون وأقبية المعتقلات بمئات الموالين للحسين في

كل تحركاته الثورية، إلا أن البقية الباقية كان لها الدور الأول في الإثارة الشعبية وإن كان ضئيلاً، ولكنه كان مفاجأة كبرى للنظام الذي اعتقد بأنه قد أحكم قبضته الحديدية على الناس، حتى لا يستطيع أحد مهما كان موقعه أن يتفوه بكلمة واحدة يشم منها رائحة السخط أو المعارضة.

فقد أنكر عبد الله بن عفيف الأزدي على الطاغية ابن زياد افتئاته وافتراءه على العترة الطاهرة، ووقف يردّه بكل جراءة وصلابة، ولم يستطع أن يمتلك أعصابه، وهو يستمع إلى ابن زياد من على منبر مسجد الكوفة يقول بعد مصرع سيد الشهداء مباشرة:

«الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذّاب وابن الكذّاب وشيعته»[1].

فانبرى له العبد الصالح عبد الله بن عفيف الأزدي، وكان من خيار شيعة أمير المؤمنين، وخلّص أصحابه المناضلين، وقد ذهبت عينه اليمنى في الجمل، وذهبت عينه اليسرى في صفّين، فهو كفيف لا يبصر، قال لابن زياد فوراً:

«يا عَدوّ الله ِإنَّ الكذّاب وابن الكذّاب أنتَ وأبوك، والذي ولاّكَ، وأبُوهُ. يا ابن مرجانة تقتلُ أولادَ النبيين، وتقومُ على المنبر مقام الصديقينَ».

فقال ابن زياد: عَلَيّ به، فأخذته الجلاوزة، فنادى بشعار الأزد، فاجتمع منهم سبعمائة فانتزعوه من الجلاوزة، فلمّا كان الليل أرسل إليه ابن زياد من أخرجه من بيته، فضرب عنقه، وصلب في

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٢٢٩.

السبخة، رحمة الله عليه[1].

كان هذا الموقف ـ وابن زياد في غمرة سروره وجبروته ـ يعتبر جراءة كبيرة على النظام، ويمثل خروجاً عن الطاعة، ويعد أول انتصار لقضية الحسين عليه السلام في الوقت الذي وئدت فيه المقاومة فلا تستطيع حراكاً.

وكان من الممكن أن يتخلص عبد الله بن عفيف من القتل والصلب نظراً لوجود المقاتلين السبعمائة الذين ثأروا له من ابن زياد وخلصّوه منه صباحاً، ولكنهم لم يكونوا بالمستوى الفكري الذي يفلسف الأحداث، وإلاّ فقد كان بامكانهم حمايته ليلاً، والتطوع لحراسته، فلا يؤخذ سراً، ويقتل بهذا الشكل.

ويعلل أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله تعالى ذلك بقوله:

«والظاهر أن شيعة علي عليه السلام في الكوفة كانوا في حالة ذعر وهلع لما رأوه من القسوة التي عومل بها الحسين ومن كانوا معه.

ولكن هذه الحادثة الفريدة كانت إرهاصاً لظهور جماعة «التوابين» في الكوفة الذين ندموا على خذلان الحسين، وتابوا إلى الله من ذلك، وخرجوا على الأمويين يطلبون بدم الحسين، وكانوا أول من نادى: «يا لثارات الحسين»[2].

كانت هذه البدايةَ لسلسلة من الثورات في العصر الأموي استهدفت النظام في أشخاصه ومرافقه وسياسته الغاشمة، فما عاد النظام

---

(١) ظ: الشيخ المفيد/ الارشاد/ ٢٢٩.

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٧٠ وما بعدها، وانظر مصادره.

في استقرار كما يريد، ولا أيامه في اطمئنان كما خيّل إليه، فما إن يجهز على حركة حتى تتجدد حركة، ولا يخمد لهيب ثورة حتى يندلع لهيب ثورة أخرى، فهو في دوامة من القمع الدموي، والناس في دوامة من البلاء النازل، الحكم يرمم بناءه الموشك على الانهيار، والشعب يلعق جراحه المتدفق بالنزيف. فلا الحكم يرعوي عن مجازره، ولا الجراحات تندمل، والثورات في تصاعد، وهي لا تهدأ حتى تضطرب من جديد.

ج ـ ثورة المدينة المنوّرة:

دراسة البنية للتركيب الاجتماعي في المدينة المنورة عند مصرع الحسين عليه السلام يفرز المجتمع السكاني بمعايير خاصة به تختلف عن بقية المجتمعات في الأقاليم الإسلامية، ففي المدينة بقية صالحة من أبناء المهاجرين والأنصار، وفيها ثلة من البدريين والأحديين، وفيها كوكبة ممن رافقوا مسيرة الإسلام في فجره، وفيها الهاشميون وهم الموتورون الحقيقيون بمقتل الحسين.. فيها هؤلاء جميعاً يضاف لهم ذلك الشباب المتحمس للإسلام وهو يعيش مُثلَهُ وَقِيمَهُ الإنسانية، وفوق هؤلاء وهؤلاء المهاجرون والأنصار أنفسهم في عدة محدودة. هذا التركيب البشري بتلك البقعة الطاهرة دار الإيمان، شاهدوا بأم أعينهم درايةً لا رواية مصير عيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأسر والسبي المفجع، وسمعوا منهم كل التفصيلات المرعبة لقتل الإمام الحسين ومن معه جملة وتفصيلاً، وعلموا علماً يقينياً قاطعاً بنيّة الحكم في استعباد الناس، والسيطرة على الفيء والمال والجاه، فكان المناخ مهيئاً للثورة على هذه الأرضية.

وجدت ثورة الحسين عليه السلام في المدينة أسماعاً صاغية لأصدائها المدوّية، وحفَّزت بأنباها الصارخة جمهرة من المسلمين عن الاجهار بالنكير غير وجلين ولا خائفين، وهم يعلمون بالمصير المرتقب في حساب النظام.

كان الوعي السياسي الذي خلقته الثورة يتدافع في ضمائر الناس، وكان الشعور بالذنب الكبير في خذلان الحسين يتردد على شفاه القوم، وكان الظلم العاصف بكل المقدرات تضيق به نفوس الرافضين، هذه العوامل الشاخصة نسفت كل معوقات التردد، وحطمت حواجز الخوف والاستكانة، وصيرت المجتمع في فصائله مهيأ للثورة نسبياً، بعد أن دمّرَته أجهزة النظام وسحقته، وجعلته أداة بيد الخضوع المهين.

كان هذا المجتمع في خوفٍ شامل، أردته بوادر التواكل والضياع، فهو في سبات عميق، وهو في تمزق داخلي مريع. أما بعد استشهاد الحسين عليه السلام فقد بدأت مظاهر التمرد على هذه المخلّفات في تصاعد ونمو مستمرين.

ولقد استثمرت زينب ابنة أمير المؤمنين هذا المناخ الملتهب، فغذته بخطبها البليغة، وهيجته بأحاديثها عن مأساة الطف الحزينة، فجددت الحزن والأسى، وفجّرت الغضب فيمن استمع لخطبها وأحاديثها، وكان هذا الاتجاه مقدمة سليمة لما خططت له من التوجه نحو أهداف الحسين في ثورته الكبرى وهو يقارع الظلم والجور والاعتساف، وخطوة جبّارة عبّدت الطريق بين يدي الأخذ بثأر الحسين عليه السلام ولو بعد حين.

وهذان الملحظان عند ابنة أمير المؤمنين فيهما كثير من النضج السياسي الجديد الذي حسب له النظام الحاكم ألف حساب، ولم يكن

ليخفى عليه هذا النحو من النضال الذي تمحضت له ابنة أمير المؤمنين، فهي تهيىء الأذهان، وتشحذ الهمم، وتستصرخ الضمائر الحيّة ضد النظام في حركة دائبة مستمرة. «حتى لقد خاف عمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على المدينة انتقاض الأمر، فكتب إلى يزيد عن نشاطها كتاباً قال فيه:

«إن وجودها بين أهل المدينة مهيّج للخواطر، وأنها فصيحةٌ، عاقلةٌ، لبيبةٌ. وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين».

فأتاه كتاب يزيد أن يفرق بينها وبين الناس[1].

ومع نجاح الحكم في الفصل بينها وبين الناس، إلا أنه أخفق في إلغاء دور ابنة أمير المؤمنين في الحياة السياسية، إذ قدّر لجهود العقيلة زينب أن تنجح وتلاقي تجاوباً كبيراً بين صفوف القادة، فقد كان بث الوعي الثوري الذي اضطلعت به قد خلق ما يمكن أن يكون فتيلاً لإشعال الثورة بالمدينة، وبدأ الناس يستلهمون تلك الايحاءات النابضة بشرعية التغيير والإطاحة بالنظام تارة، وبأصوات النكير المتعالية ضده تارة أخرى، وهنا نمسك بالموروث النضالي الذي يُبنى عليه مشبّك الثورة في المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، وهو رجل ذو منظور جهادي سابق، فأبوه حنظلة الأنصاري غسيل الملائكة في أحد، يستمد من ثرائه في المنزلة المحل المرموق، وهو أحد وجوه الأنصار وفي علية القوم، وكان النظام يحاول احتواءه، وربما غازله بشيء من الهبات، وكان في طليعة الذين أراد يزيد ـ شأن أي حاكم هزيل ـ أن ينعم عليهم بالمبرّات الضخمة والأعطيات المتوالية عبدالله بن

---

(١) ظ: محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٢١٠ وانظر مصادره.

حنظلة هذا، فقد عمد يزيد إلى طائفة من أبناء المهاجرين والأنصار عقيب مجزرة كربلاء فقربّهم إليه، عسى أن تهدأ العواطف، ويتناسى الناس ما أقدم عليه من كوارث، وما أنزل بهم من ويلات ونكسات، فأشار لوالي المدينة أن يبعث له وفداً من أعيانها، فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، والمنذر بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن أبي عمرو المخزومي وآخرين، وأمرهم بالشخوص إلى الشام، فقدموا على يزيد وافدين، فأحسن استقبالهم، وأكرم مثواهم، وبالغ في عطائهم، وأجزل لكل منهم الصلة، ثم انفصلوا من الشام وعادوا إلى المدينة إلا المنذر بن الزبير، فتوجه إلى العراق ثم توجه إلى المدينة وقال عن يزيد:

«إنه قد أجازني بمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر، والله أنه ليسكر حتى يدع الصلاة...»[1].

أما الوفد بمجموعه فعاد إلى المدينة حتى استقرت به الدار، فانثال الناس عليه، فتقدم الوفد بذمّ يزيد وشتمه، ووصمه بما هو فيه، وأظهر من عيوبه ما خفي عن أهل المدينة، وحرّض الشعب عليه وقال أفراده مجتمعين ومتفرقين:

«قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، وتعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عند اللصوص، وإنّا نشهدكم أنّا قد خلعناه»[2].

وكان هذا الاعلان بمثابة الثورة المسلحة ضد النظام لا سيما أن

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٨١.

(٢) نفس المصدر.

النفر الذين أقدموا على إذاعته من أعيان المدينة المرموقين.

ولقد مهّد هذا الاعلان للتذمر والكراهية من النظام وإليه، فأزاد عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة في إثارة الاحساس حينما قال:

«جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني، وما قبلت عطاءه إلا لأتقوّى به»[1].

وكان هذا الخطاب إعلاناً للثورة على الحكم، واستجاب المسلمون له استجابة كاملة، وبايعوا لعبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد بن معاوية، فخلعوه، وقلدوا عبد الله شؤون بلادهم.

واستبسل أهل المدينة، وجدّوا نشطين في المعركة، وطردوا عامل يزيد على المدينة، وشردوا بالأمويين كل مشرد، وهم زهاء ألف رجل.

وانفصلت المدينة عن حكم الشام، واستقلّت بشؤونها، وتولت قيادة نفسها بنفسها، برئاسة عبد الله بن حنظلة الغسيل.

وكأن القدر كان على موعد صارم مع المدينة، فلم يطل انتظار النظام بهذه الثورة، ولم يقف من أحداثها الجريئة موقف المتفرج العاجز، بل اتجه نحوها بحزم وعزم حديديين، فبعث مسلم بن عقبة المريّ بجيش سوري جرّار، دخل المدينة مستبيحاً لها بقسوة لا عهد لهم بها، فعاث بها فساداً، وجعلها نكالاً للآخرين، قتلاً وحرقاً ونهباً، وأباحها ثلاثاً، وقتل الثائرين وأعوانهم أجمع، واستأصل شأفتهم، وهتك الأعراض، واستباح الحرمات، واستعبد الأحرار والحرائر، وأخذ من أهلها الباقين البيعة ليزيد على أنهم خولٌ وعبيد، يحكم في

---

(١) الطبري/ تاريخ الامم والملوك ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٨١.

دمائهم وأهلهم وأموالهم بما يشاء[1].

وأصبحت المدينة المنورة في حالة يرثى لها تمزيقاً وتفريقاً وتقتيلاً، بما يسميه المؤرخون «وقعة الحرّة» وكانت أحداثها قد جرت يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة، سنة ثلاث وستين من الهجرة[2].

أنزلت المدينة على حكم عسكري عرفي، وكانت قسوة الجيش لا تدانيها قسوة أعتى الجيوش المتفرعنة في العالم، واستبيحت المدينة استباحة روّع لها التاريخ في ذكرياته عنها، مما لا يستطيع القلم بيانه.

ومهما يكن من أمر، فإن ملاحظة البعد السياسي لهذه الثورة يوحي بأنها ثورة دينية خالصة، ثأرت لكرامة الإنسان المسلم، وانبعثت من أجل تغيير النظام الكافر الجائر، استجاب لها أهل لمنازل والحرم، قامت بها طائفة من صالحي المسلمين اعزازاً للإسلام، وأغفل التاريخ صحائف من جوانبها المضيئة، وغطّى على كثير من أهدافها النبيلة، والذي لا شك فيه أن عليها قبساً من شعاع كربلاء الفياض، وأن فيها لمحاً من ألق الطف المتوهج.

---

(١) ط: المصدر نفسه فيما سبق.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

ثورة التوابّين

أ ـ الاعداد للثورة:

كان لمجزرة كربلاء جذوتها الخلاّقة في إذكاء روح النضال، وكان لها الأثر النفسي في إيراء مشاعر الندم لدى الكثيرين، فعند مقتل الحسين، وعودة ابن زياد من معسكره في النخيلة مباشرة «تلاقت الشيعة بالتلاوم والندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصرة، وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم، والاثم في مقتله، إلاّ بقتل من قتله، أو القتل فيه»[١].

بهذا الشعور المتفجر بدأ تفكير التوابين بالثورة المسلّحة ضد النظام الأموي أخذاً بثأر الحسين، وتكفيراً عن الذنب، ففزعوا إلى خمسة نفر من زعماء الشيعة في الكوفة، وهم: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيّب بن نجية الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وأل التميمي، ورفاعة بن شدّاد البجلي، واجتمعوا بهم يتلاومون على خذلانهم الحسين، وتداولوا أمر الثورة انتقاماً له، وبدأ المسيب بن نجية القول، فقال: «لقد كنّا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا، حتى بلا الله خيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبينا ﷺ، وقد بلغتنا كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدأً، وعلانية وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٢٦ + البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٠٤.

حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربّنا، وعند لقاء نبينا؟. لا والله، لا عذر دون أن تقتلوا قاتليه والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربّنا أن يرضى عنّا عند ذلك»[1].

وفي هذا الخطاب اعتراف كئيب بالتقصير، وفيه تعبير قائل عن الندم، وفيه إفاضة بالتحوّب، وفيه حقيقتان أخريان، الأولى:

حقيقة التواكل والخذلان عند الناس لدى قدوم الحسين.

والثانية: حقيقة الاعلان عن حتمية الثأر للحسين من قاتليه، أو القتل دون ذلك.

ثم خطب سليمان بن صرد الخزاعي قائلاً: «إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنيهم النصر، ونحثهم على القدوم، فلما قدموا ونينا، وعجزنا، وأدّهنا، وتربعنّا، وانتظرنا ما يكون، حتى قتل فينا ولد نبينا، وسلالته، وبضعة من لحمه ودمه.. ألا انهضوا، فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء، حتى يرضى الله، وما أظنه راضياً حتى تناجزوا من قتله، أو تبيروا.

ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط إلاّ ذلّ، كونوا كالأول من بني إسرائيل، إذ قال لهم نبيهم: «﴿... **إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ باتخَاذِكُمْ العِجْلَ فَتُوبُوا إلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لكمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ**...﴾»[2][3].

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٢٨.

(٢) سورة البقرة/ ٥٤.

(٣) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٢٩.

وكان خطاب سليمان هذا أكثر صراحة، وأشد إفحاماً، وأظهر إيضاحاً لعوامل التقصير والتواكل، وأبرع إبانة لظروف التمهل والانتظار حتى قتل الحسين وكان الخطاب ثورياً إذ دعا إلى وداع الحلائل والأبناء، ومناجزة قتلة الحسين حتى القتل، والاستهانة بالموت، فما هابه امرؤ قط إلا ذلّ، ودعاهم إلى قتل أنفسهم تكفيراً عن الذنب العظيم. وضرب لذلك مثلاً بما قاله موسى عليه السلام لبني اسرائيل.

ومهما يكن من أمر، فقد تداول القوم في هذا الشأن، وجدّوا في تشكيل أول خليّةٍ للأخذ بثأر الحسين عليه السلام وانتخبوا سليمان بن صرد الخزاعي زعيماً لهم، وقائداً للثورة المرتقبة، عند ذاك بدأ العمل السري الحثيث بعد قتل الحسين مباشرة سنة إحدى وستين من الهجرة، واتعدوا سنة خمس وستين على الحركة المسلحة، وجعلوا هذه الحقيقة بين قرارهم هذا وبين ساعة الصفر، فترةً لجمع الأموال، وجمع السلاح، وتأليب الأنصار، ونشر الدعوة، وتحصين الحركة على أن تكون النخيلة موعدهم لدى إعلان الثورة.

وتمحضّ التوابون لاعداد الثورة بجدّية وإصرار، وأخلصوا في العمل إلى الأخذ بثأر الحسين، وجمعوا آلة الحرب والسلاح، وحصنّوا أنفسهم وأهليهم ودعاتهم بجمع التبرعات والأموال من الموالين للثورة، وعهدوا بها إلى أحد زعمائهم كأمين لبيت مال الثورة، وبثوا الدعاة هنا وهناك يستميلون الناس، ويكسبونهم، ويتحدثون إليهم بأهداف الثورة، وكان شعارهم الذي أعلنوه فيما بعد: يا لثارات الحسين.

ولم تكن حركة التوابين هذه مقتصرة على الكوفة وحدها، وما فيها من ثقل كبير لشيعة الحسين، بل تخطّت حدودها الجغرافية إلى المدائن والبصرة.

فكتب قادة الثورة إلى سعد بن حذيفة بن اليمان ومن قبله من المسلمين في المدائن، فاستجابوا سراعاً في الانضمام إلى الحركة. وكتب سليمان بن صرد إلى المثنى بن مخرمة العبدي وأتباع أهل البيت في البصرة، فلبّوا النداء، وأجابوه إلى الثورة.

وبذلك تكون الحركة قد استقطبت العراقين والمدائن، فنشطت بذلك دعوتهم، وترسخ شعارهم، واشتدت شوكتهم.

ويموت يزيد بن معاوية ـ وهم بمثل هذا التجمع ـ سنة أربع وستين من الهجرة[1] فيثب الثائرون على عمرو بن حريث نائب ابن زياد على الكوفة، فيخلعونه، ويخرجونه من القصر بعنف، ويصطلحون على عامر بن مسعود[2].

وتأخذ حركة التوابين بالنهوض إلى العلنية تدريجياً، ويفترق الناس في الأحياء بالدعوة إليها جهاراً، «فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك[3].

ب ـ تنفيذ خطة الثورة:

تكامل الإعداد العسكري والبشري لثورة التوابين فأصحروا بها معلنين ليلة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وستين، وخرجوا في أربعة آلاف، بعد أن بايع لها ستة عشر ألفاً، وتلاقوا بالنخيلة[4].

(١) ظ: المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ٣٠٦.
(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٤٠.
(٣) ظ: المصدر نفسه ٤/ ٤٣٢.
(٤) ظ: المسعودي/ التبنيه والاشراف/ ٣٠٦.

وتوجه الجمع المقاتل إلى قبر الحسين عليه السلام وقد تخلف عنهم أصحاب الهمم الواهنة، فلما وصل التوابون إلى القبر الشريف، صاحوا صيحة واحدة: «يا حسين».

أقام التوابون حول القبر يوماً وليلة يصلّون على الحسين، ويستغفرون له، ويبكون ويتضرعون، ويتوبون إلى الله من خذلانه[1].

فما رؤي باجتماعهم هناك يوم أكثر باكياً منه، وهم يقولون معترفين بالذنب «يا ربّ: إنّا قد خذلنا ابن بنتِ نبيّنا، فاغفر لنا ما مضى، وتُبْ علينا، إنَّكَ أنتَ التوابُ الرحيمُ، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا ربّ أنّا على مثل ما قتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»[2].

ثم فارق التوابون قبر الحسين عليه السلام بعد أن جددوا عهداً به، وساروا يقدمهم رؤساؤهم نحو الشام، وعوف بن عبد الله بن الأحمر شاعر الثورة يرتجز بالجيش الزاحف:

خَرَجْنَ يَلْمَعْنَ بِنا إرْسَالاً عَوابِساً يَحْمِلْنَنا أَبْطالا
نريدُ أن نَلْقى بها الأَقيالا القاسِطِينَ الغُدُر الضُلّالا
وَقَدْ رَفَضْنا الأهلَ والأَموالا والخَفَرات البيضَ والحِجالا
نُرضي بها ذا النِعَمِ المِفضالا[3]

ويبدو أن هذه الثورة قد بلغت من النَضج السياسي ذروته، إذا اتجهت بجيوشها المقاتلة نحو الشام، ولم تقصد أشخاص قتلة الحسين

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٤٩.
(٢) ظ: المصدر نفسه ٤/ ٤٣٦.
(٣) المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٩٤.

في الكوفة، فهي قد اعتبرت النظام الأموي هو المطالب بدم الحسين، لا القتلة أنفسهم[1].

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

«ولقد اعتبر التوابون أن المسؤول الأول والأهم عن قتل الحسين عليه السلام هو النظام، وليس الأشخاص، وكانوا مصيبين في هذا الاعتقاد، ولذا توجهوا إلى الشام، ولم يلقوا بالاً إلى من في الكوفة من قتلة الحسين عليه السلام»[2].

وسرعان ما انتهى نبأ هذا التحرك الضخم إلى مقرّ قيادة الحكم الأموي في الشام، وكان الحاكم مروان بن الحكم، فعبّأ جيشاً جرّاراً يقدر باثني عشر ألفاً[3].

وكان هذا الجيش بقيادة عبيد الله بن زياد، وقد أباح له مروان نهب الكوفة، واستباحتها ثلاثاً، إذ هو ظفر بأهلها[4].

ويلتقي الجيشان «بعين الوردة» ويستميت التوابون في القتال، ويظهرون من الشجاعة والبسالة ما يعدّ مضرباً للمثل آنذاك، وتشتد المعركة ضرواة بين الجانبين، وينتهي القتال باستئصال التوابين، ويقتل قائدهم سليمان بن صرد الخزاعي، ولا ينجو منهم إلا القليل، فيتحمّلون في أول الليل عائدين من حيث أتوا إلى الكوفة[5].

وكانت نهاية هذه الثورة مفجعة حقاً، فقد أبيد قادتها وأفرادها

---

(١) ظ: المؤلف/ الصورة الأدبية في الشعر الأموي/ ٢٣٩.
(٢) محمد مهدي شمس الدين / ثورة الحسين/ ٢٠٧.
(٣) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٥٠.
(٤) المصدر نفسه ٤/ ٤٤٢.
(٥) المسعودي/ التنبيه والأشراف/ ٣١١.

إبادة تكاد تكون شاملة، وقد سفكت فيها الدماء بغزارة، وقد أرخى النظام فيها العنان لشهوة الانتقام، ونفذها تنفيذاً مأساوياً، وهذا شأن كل ما هو دخيلٌ على الإسلام، وبعيد عن الأعراف العربية الأصيلة.

«ونلاحظ هنا أن هذه الثورة قد انبعثت عن شعور بالاثم والندم، وعن رغبة في التكفير، فمن يقرأ أقوالهم، وكتبهم، وخطبهم، يلمس فيها الشعور العميق بالاثم والندم، والرغبة الحارّة في التكفير، ولا يستهدفون شيئاً آخر وراء ذلك، فلا يريدون نصراً، ولا ملكاً، ولا مغانم، وإنما يريدون انتقاماً فقط، وقد خرجوا من ديارهم وهم على مثل اليقين بأنهم لا يرجعون إليها، كانوا يريدون أن يموتوا، ولقد بُذِلَ لهم الأمان فلم يقبلوا. وإذن فلم يكن لهذه الثورة أهداف اجتماعية واضحة محددة، لقد كان الهدف الواضح منها هو الانتقام والتكفير»[1].

على أن لهذه الثورة هدفاً سياسياً محدداً، هو مقاومة الحكم الأموي متمثلاً بالنظام كله لا الأشخاص، وقد تم لها بالفعل إبراء روح الثورة، وزعزعة أركان الحكم، وإسماع صوت المعارضة بقعقعة اللجم.

«ومهما تكن النتيجة التي انتهت إليها هذه الثورة، فإن الأمر الذي لا شك فيه هو أنها تعد أشد ثورة قام بها الشيعة منذ مقتل علي عليه السلام حتى ذلك الوقت، وأنها كشفت الرماد عن جذوة التشيع، وأشعلت فيها النار حتى ساعدت في النهاية على الاطاحة بحكم الأمويين، كما أنها كانت من ناحية أخرى تمهيداً لثورة شيعية خطيرة هي ثورة المختار الثقفي»[2].

---

(١) محمد مهدي شمس الدين / ثورة الحسين/ ٢٠٨.

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٧٣.

ولا ريب أن ثورة التوابين بما رافقها من اندفاع عاطفي مشبوب، وشعور بالذنب العظيم، كانت فاتحة لسلسلة من الثورات الدموية المتعاقبة ضد النظام الأموي، انتهت به في النهاية إلى مصير لا يحمد عليه إبادة واستئصالاً.

ثورة ابن الزبير

أ ـ المبدأ العالمي لثورة الحسين:

كان المبدأ العالمي لثورة الإمام الحسين عليه السلام كونها نبهت المشاعر الإنسانية إلى ضرورة تغيير الواقع المدمّر لتراثها وحضارتها وحريتها، ودفعت بجمهرة العاملين من أجل التحرر الإنساني شوطاً بعيداً في مسار الوعي الذاتي لانقاذ البشرية من متاهات الانحطاط الجماعي، هذا العنصر الفاعل في ثورة الحسين عليه السلام يدعونا إلى الاعتقاد الجازم بأن الثورة قد حققت نصراً شمولياً عاماً لجنس الإنسان يغذيه روح النضال، والعزم على الخلاص، ويبتعد به عن روح الهزيمة التي ظلت مسيطرة بأشباحها على كيانه ووجوده، ومن هذا المنظور رأينا ثورة الحسين عليه السلام قد حققت الفتح المبين في العطاء والاستثمار النضالي، وظلت شعلة متوهجة في درب السالكين، وظلت ـ أيضاً ـ مناراً شاخصاً تسري على هداه أعلام المناضلين، سواء أكانوا متأثرين بمبادىء ثورة الحسين، أم كانوا بمعزل عن عطائها، وإنما يستلهمونها لأغراضهم في التحرك الخاص بهم لا أكثر ولا أقل.

نخلص من هذا أننا نستقبل في ثورة الإمام الحسين عليه السلام معطيات جديدة قد تكون بعيدة بمحتواها الفكري عن أفكار المجتمع، وكان أبرز هذه المعطيات وأكثرها أهمية في حياة الشعوب: إيقاد شعلة النضال الحي، بعد أن أوشك الضمير الإنساني على الانحدار في دوامة

من الخمول المستمر، لولا أن تبعث فيه الثورة الحياة من جديد، وإلا لظل عاطلاً عن الحركة والانسياب كما أريد له من قبل الأنظمة المخدِّرة التي قضت عليه بالشلل التام.

«لقد أججت ثورة الحسين تلك الروح التي حاول الأمويون إخمادها، وبقيت مستمرة تعبر عن نفسها في انفجارات ثورية عاصفة ضد الحاكمين، مرة هنا ومرة هناك، وكانت الثورات تفشل دائماً، ولكنها لم تخمد أبداً، لأن الروح النضالية كانت باقية، تدفع الشعب المسلم إلى الثورة دائماً، إلى التمرّد، وإلى التعبير عن نفسه قائلاً للطغاة: إني هنا»(١).

نعم، قد يصاحب هذا التحرك الثوري أحياناً حبُّ الذات، وقد تزحمه مكتسبات الأطماع الأنانية التي لا تمثل الشعور العام لدى المسلمين، كما حدث هذا لعبد الله بن الزبير الذي استقر في ذهنه الخروج على حكم الأمويين، ولكن كيف؟.

ب ـ ابن الزبير ينهض بالأمر:

كان ابن الزبير الذي رفض البيعة ليزيد بن معاوية، قد اتخذ الحرم المكي مقراً له، يجمع حوله الأنصار والدعاة سراً، ولكنه كان بمعزل عن التحرك لمكان الحسين عليه السلام وإشراقه في الساحة، فالشعب المسلم لا يعدله به في حال من الأحوال، فبقي متربصاً بالأمر حتى حين، فلما استشهد الإمام الحسين عليه السلام وثب إليه أتباعه، وطلبوا إليه إظهار البيعة، فإنه لم يبق أحدٌ بعد الحسين ينازعه الأمر، ولكنه جبه

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٢٢٧.

أنصاره بالقول: لا تعجلوا[1].

ولئن لم يتعجّل ابن الزبير الأمر ظاهراً، فإنه كان قد بدأ العمل الجادّ. حتى إذا حلّت سنة خمس وستين من الهجرة، نهض بالأمر، وتجمع حوله الأتباع، وبويع له في الحجاز والشام والعراق والجزيرة[2].

واتخذ ابن الزبير من مكة قاعدة لحكمه، فعين منها الولاة، وبعث بالعمّال، ونشط نشاطاً دائباً في إدارة متطلبات الحكم، فقوي أمره نوعاً ما، فالحجاز بعامتها له، وأنصاره بالشام على موعد معه، والجزيرة تحت إمرته، والكوفة والبصرة في بيعته، واستوسقت له الأمور في ظاهر الحال.

ومهما قيل في دوافع ثورة ابن الزبير، فإنها قد شغلت الحكم الأموي، وبثت روح التمرد بين صفوف المسلمين، وهيأت الأفق لانتفاضات أكبر، دون أن يكون لحركة ابن الزبير أثر فيها من التوجيه السياسي والديني بالطبع.

والذي يؤسف له حقاً أن الناس الذين نقموا من بني أمية الجور، وولاة السوء، واستنكروا قتل الحسين وآله وأصحابه، قد وجدوا في ابن الزبير معقلاً خصباً لاحتضان قتلة الحسين في الكوفة، فهم أحلاس قصر الإمارة اليوم كما هم أحلاسه بالأمس، ورأوا المجرمين من أتباع النظام الأموي في القتل وسفك الدماء هم المتنفذين في ركب الحاكم الجديد، مما بدد الأمل المرتقب لدى العراقيين في حكم ابن الزبير، ففلت منه، واتجهت طلائعهم صوب المختار بن أبي عبيدة الثقفي الذي أعلن ثورته

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٣٦٤.
(٢) ظ: المصدر نفسه ٤/ ٣٨٨.

في الكوفة سنة ست وستين من الهجرة.

لقد جوبه عامل ابن الزبير على الكوفة عبد الله بن مطيع الذي أعلن أنه سائر بسيرة عمر وعثمان في إجراءات أخرى تخص الفيء والخراج، جوبه من قبل الكوفيين بالاعتراض والمقابلة والرفض، وأعلن ممثل الكوفة في ردّه:

«أما حمل فيئنا برضانا، فأنا نشهد أنا لا نرضى أن يحمل عنّا فضله، وأن لا يقسم إلاّ فينا، وأن لا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا وأنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطاب فينا، وإن كانت أهون السيرتين علينا»[1].

ومن هذا يبدو أن ابن الزبير كان ينتزع فضل فيئهم، ويحملهم على سيرتي عمر وعثمان (رض) فيما يزعم، وأهل الكوفة يتوقعون سيرة علي عليه السلام ويتمثلونها في الحرية والعدل والمساواة.

إن مجتمعاً يدرك الفروق المميزة بين سيرة الخلفاء، كان طموحه مشرئباً إلى حركة ثورية تعيد له سيرة علي بن أبي طالب في كل معطياتها، وهو يتشبث لذلك بكل الوسائل التي تؤمن له هذا الأمل، أو يلوّح له به في المستقبل.

لهذا فإننا نرى إن ابن الزبير قد أخطأ خطأً فاحشاً حينما نصب العداء والبغضاء لآل علي وبني هاشم، حتى سجنهم واعتقلهم وحصرهم لولا تهديد المختار له بما هو مذكور عند المؤرخين. وقد كان الأحرى به أن يستميلهم في الأقل إلى جنبه ليكسب بهم المسلمين،

---

(١) البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٢٠.

أو ليظهر أنه ممن تأثر بثورة الحسين وها هو يدني آله وأتباعه.

وكما أخطأ ابن الزبير في هذا الملحظ، فقد أخطأ خطأ كبيراً في اتخاذه البيت الحرام مقراً له، فهو دون غيره يعلم بقسوة الأمويين، ولا يهمهم في سبيل الحكم الاقدام على كل عظيم، وكان قراره ذلك قد جعل البيت تهتك حرمته، ويباح ذمامه، إذ لم يقف النظام صامتاً باهتاً من ثورة ابن الزبير، بل حشد لها أعتى قواته، وداهمها بأشرس قواده، وقابلها دموياً بأفتك الجيوش، حتى لقد رمى الكعبة بالمنجنيق وأطنان اللهب، وأحرق البيت الحرام وجعله ميدان حرب، حتى استطاع قتل ابن الزبير، ونكل بأصحابه تنكيلاً فظيعاً، وأطاح بثورته، وذهبت تتدحرج في خضم الأحداث، وكأنها لم تكن، ذلك أن أهدافها غير واضحة المعالم، ولم يكن لها شعار اصلاحي يكتب لها الخلود، فانتهت نهاية كئيبة محزنة، بعد أن استقطبت جمعاً من الناس، رجاء التغيير المرتقب الذي يحنّ إليه الناس، ولكنهم فوجؤوا بخيبة الأمل الكبرى، إذ شككوا في دوافع ابن الزبير وتطلعاته السياسية.

ولهذا فإننا نرى أن ثورة ابن الزبير قد أفادت التحرك الثوري مما أصله الحسين في ثورته، ولكنها ليست في ركاب ثورة الحسين في كل الاتجاهات السياسية والعقائدية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تفد منها لمحاً في سجل الخلود التاريخي.

ثورة المختار

أ ـ ذكاء المختار ودوافع ثورته:

ونحن نلحظ المختار ذكياً جداً حينما جعل شعار ثورته العارمة:

«يا لثارات الحسين» ونلحظه ذكياً أيضاً حينما أعلن ولاءه لأهل البيت، وهو حقيقةً من الموالين المتحمسين لهم، ونلحظه ذكياً كذلك عندما اتخذ من محمد ابن الحنفية واجهة دينية يصدر عنها في القرارات، أو يدّعي النيابة لها في إدراك الثأر، أو يشعر الناس في الأقل أنه يعمل بوحي منها، أو بتفويض مطلق عنها، صح ذلك أو لم يصح. إلا أن برمجه فأصبح مقبولاً بين يدي ثورته.

وبهذا يكون المختار قد شهر سلاحاً ذا حدّين:

الأول: استثمار النقمة النفسية الشعبية جرّاء مصرع الإمام الحسين عليه السلام.

الثاني: استقطاب شيعة آل محمد، فهو يتعصب لهم، ويثور من أجل الانتقام لإمامهم.

وكانت الظروف السياسية الصعبة لا تسمح للإمام زين العابدين عليه السلام بأي نشاط جماهيري، فلا يمكن للمختار أن يجعله شاخصاً لدعوته، فعمد إلى طرح تطلعاته باسم محمد ابن الحنفية، فهو ابن أمير المؤمنين، وهو أخو الحسين الذي يريد أن يأخذ

بثأره، هذا الاختيار الدقيق أكسب المختار مدّاً شعبياً كبيراً، يضاف إليه خصائص المختار القيادية التي تؤهله في الميدان السياسي زعيماً تلتف حوله طبقات العراقيين. يقول أستاذنا الدكتور يوسف خليف:

«وليس من شك في أن المختار كان رجلاً ذكياً إلى أبعد حدود الذكاء، وزعيماً شعبياً من الطراز الأول. وهب مقدرة خارقة للعادة على فهم نفسيات جماهيره واجتذابهم إليه، وقد أدرك منذ البداية أن الكوفة ـ مهد الشيعة وموطنهم ـ هي التربة الخصبة لنشر بذور دعوته للأخذ بثأر الحسين، واستغل تلك العداوة التقليدية بين العراق والشام، ليضرب بأهل العراق أعداءهم من أهل الشام ضربة حاسمة تضع حداً لحكمهم»[١].

والحق أن شعار «يا لثارات الحسين» كان وحده كفيلاً باستيعاب الناس وتجمع أشتاتهم حوله، فإذا رافق ذلك تخطيط اجتماعي هادف يوحي بالعدل والمساواة، كانت الدعوة التي يتبناها أي ثائر في سبيلها إلى النجاح، لأنها تستقطب أعداء النظام المسؤول عن قتل الحسين من جهة، كما أنها تستهوي أفئدة المستضعفين والمحرومين من جهة أخرى ويرى الأستاذ خودابخش أن دوافع ثورة المختار تعود إلى «التذمر الواسع الانتشار الذي عمّ المجتمع الإسلامي، ذلك التذمر الناشىء عن حياة الخلفاء الأمويين الداعرة، واحتقارهم البعيد عن الحكمة للإسلام ومبادئه، وسياستهم الإدارية والمالية الرجعية الظالمة التي كانت ترمي إلى جعل الرعية ـ بما فيها المسلمون الذين اعتنقوا الإسلام أخيراً ـ قطّاع خشب وسقائين»[٢].

---

(١) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٧٥.

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٧٤ نقلاً عن خوادبخش في مقدمته للحضارة=

ومهما كانت الدوافع والأسباب الحقيقية لثورة المختار، فإن العامل البارز فيها دون شك هو أخذ الثأر للحسين عليه السلام.

وقد اعتمد المختار في ثورته على عنصرين أساسيين هما:

زعماء العرب من أهل الكوفة، والموالي من القوميات الأخرى.

أما الزعماء فقد كانوا يحنّون إلى حياة الحرية السياسية في عهد الإمام علي عليه السلام وقد أدركوا أهميتها في الاستقرار النفسي والهدوء الاجتماعي والتكامل الاقتصادي بعد فوات الأوان، فعسى أن يحققوا جزءاً منها في ظل قيادة المختار الجديدة، وهي تلتصق بمحمد ابن الحنفية، وهي تدعو لثأر أهل البيت، وهي تريد بهم العودة إلى سياسة أمير المؤمنين في الحرية والعدل وحياة الاستقلال العراقي.

وأمّا الموالي؛ فقد اضطهدوا اضطهاداً غريباً، فهم يدفعون ضريبة الدّم في كل حركة وفي البعوث والفتوح، وهم لا يمتلكون شروى نقير من الحقوق، وهم لا يجدون لهم منزلة في العرف الاجتماعي نتيجة التعصب القبلي، وهم يمتهنون الحِرَفَ الوضيعة التي لا تؤهلهم لأي مركز اقتصادي أو سياسي، فإذا حصل من يساويهم بالعرب ولو جزئياً، فالطبيعة العفوية تقتضي أن يلتفّوا حوله التفافاً متكاملاً، ولقد دأب المختار أن يمنحهم بعض الحقوق الغائبة عنهم، فأعاد لهم الكيان المعنوي، وجعلهم مستشاريه وأهل الرأي، وساواهم بالعرب في الحقوق والواجبات، لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب، وقد أدناهم مكانة وجعل لهم نصيباً من الفيء الذي حرموا منه، وأنعم على بعضهم بالمناصب المهمة في الجيش والإدارة. ولم يكن كل هذا تسلطاً

= الإسلامية لفان كريمر/ ٣٧.

للموالي على العرب، أو بما يفسر بأن ثورة المختارة ثورة للموالي على العرب، لم يكن هناك من هذا شيء على الاطلاق، ولكن المختار أراد أن يتقوى بهم على أعدائه، ويستعين بهم في مهماته، وهو ما حصل. وبهذا المزج المتوازن بين العرب والموالي حصل المختار على رصيد شعبي متزايد فريد لم يحصل عليه زعيم قبله، وقد شكّل له هذا قوةً ضاربةً يعتضد بها، وقد أهلته لقيادة العراقيين ضد النظام ابتداءً من تولية السلطة في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ست وستين من الهجرة حتى الرابع عشر من رمضان سنة سبع وستين من الهجرة، وهي مدة إمارته التي استولى فيها على الحكم، ونشر ولاته في الجزيرة والمقاطعات الشرقية، وفلتت منه البصرة التي استجابت لابن الزبير، فكان عليها مصعب بن الزبير.

نهض المختار في الكوفة، وبث فيها عيونه ورصده، وتتبع قتلة الحسين فرداً فرداً، وتعقبهم تحت كل حجر ومدر، وأبادهم فرادى ومجتمعين، ولم يبقِ منهم نافخ نار، حتى قتل منهم مائتين وثمانية وأربعين رجلاً في يوم واحد[1].

وقد مثّل بأغلبيتهم تمثيلاً هائلاً دلّ على التشفي والانتقام، حتى أرضى مشاعره في أخذ الثأر. وأرضى أتباع أهل البيت في ذلك أيضاً.

وما اكتفى المختار بتعقب قتلة الحسين بأعيانهم، حتى اتجه إلى النظام المسؤول عن قتل الحسين والذي مهّد لقتلة الحسين، فوجه بقائده الكبير إبراهيم بن مالك الأشتر نحو الشام، فالتقى بقوات عبد الملك بن مروان الحاكم الأموي آنذاك، وكانت بقيادة عبيد الله بن زياد، فأوقع بهم إبراهيم هزيمة منكرة شنعاء على ضفاف «نهر خازر»

(١) ظ: البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٣٧.

قرب الموصل[1].

كان نتيجة هذه المعركة أن قتل عبيد الله بن زياد قائد الجيش، وقمع الجيش الأموي، وسجل عليه قائد المختار نصراً عظيماً في العرف العسكري.

ولقد حقق المختار أهدافه الثورية المعلنة عسكرياً في نقطتين: ـ

١ ـ الانتقام المباشر من قتلة الحسين بأشخاصهم وأعيانهم.

٢ ـ الالتفاف حول جيش النظام، وإسقاطه عسكرياً في معركة نهر حازر.

ب ـ شخصية المختار القيادية:

تضاربت الآراء في شخصية المختار، بين مادح وقادح، واتهم الرجل اتهامات رخيصة، تطعن في عقيدته حيناً، وتشكك في صحة قصده حيناً آخر، وأنه كان يعمل لنفسه لا لهدف شرعي أو سياسي، وكان المنصف من يقول.

«إن المختار استغل في نشر دعوته اسم محمد ابن الحنفية، وادّعى أنه جاء أهل الكوفة من قبل المهدي محمد بن علي ابن الحنفية (مؤتمناً، مأموناً، منتجباً، ووزيراً) ومع أن المختار ـ في أغلب الظن ـ لم يكن صادقاً في إدعائه العمل من أجل ابن الحنفية، إذ الظاهر أنه يعمل لحسابه الخاص»[2].

وفيما يبدو أن اتهامات الرجل كان مصدرها في الغالب مَنْ أرخ

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٥٦٢.

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٧٧ وانظر مصدره.

لثورته رسمياً ممن جندّتهم السلطات الزمنية الجائرة للنيل من كل ما يعتبر أصلاً من أصول المقاومة، أو رمزاً من رموز المعارضة، يصحب ذلك ـ عادة ـ العداء السافر لأهل البيت ولمن يقف في حضيرتهم أو جنبهم، ومجانبة كل من انتصر لهم بقول أو عمل أو تقرّب، وربما كان المختار ضحية هذا الفرض.

وقد دافع الأستاذ باقر شريف القرشي عن المختار دفاعاً مستميتاً؛ فإِعتبره أولاً من أبرز دهاة العالم العربي[1].

وعدّه بجدارة واستحقاق قائداً حربياً ملهماً[2].

ووجده، ورعاً تقيّاً محتاطاً في دينه كأشد ما يكون الاحتياط[3].

ووصف ولاءه لأهل البيت عليهم السلام أنه: من عناصره الذاتية[4].

واعتبره أخيراً بأنه مفجّر ثورة عملاقة هدفها تحقيق العدالة الاجتماعية[5].

وختم هذا التقييم كله بقوله.

«لقد كان المختار من حسنات الدنيا، ومن مفاخر الأمة العربية والإسلامية، ومن أبطال التاريخ، فقد ثأر للحق، وتبنّى القضايا المصيرية للأمة، وقد شفى الله بثورته الخالدة قلوب المؤمنين، فقد قضى على تلك الزمر الخائنة ـ يعني قتلة الإمام الحسين عليه السلام ـ

---

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام زين العابدين ٢/ ٣٨٩.
(٢) المرجع نفسه ٢/ ٣٩٠.
(٣) المرجع نفسه ٢/ ٣٩٠.
(٤) المرجع نفسه، ٢/ ٣٩٠.
(٥) المرجع نفسه ٢/ ٣٩٤.

وأذاقها وبال ما جنت أيديها»[1].

ومهما قيل في المختار، فهو رجل من العرب لا يدّعي لنفسه القدسية، ولا يأطرها بأكثر مما هي عليه، شأنه في قيادته العسكرية والسياسية شأن القادة الآخرين من العرب، الساعين إلى السلطان، والراغبين في الحكم، إلا أنه حقق هدفاً مشروعاً فيما خطط له، وهو نفسه يقول لأصحابه كاشفاً حقيقة الموقف، وقد حاصره مصعب بن الزبير في الكوفة:

«إنّما أنا رجل من العرب، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت انتزى على اليمامة، ومروان انتزى على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذتُ هذه البلاد، فكنتُ كأحدهم، إلاّ أني طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ، إذ نامت عنه العرب، فقتلتُ من شرك بدمائهم، وبالغتُ في ذلك إلى يومي هذا»[2].

وكان هذا التصريح من المختار وهو في لحظاته الأخيرة هو التعبير الحقيقي عن شخصيته القيادية، وهو الناطق بدوافع ثورته الذاتية والسياسية.

ج ـ المختار يدرك أوتاره في الانتقام:

ومهما يكن من أمر، فقد أدرك المختار في سبعة عشر شهراً من حكمة في الكوفة، أوتاره من قتلة الحسين في الانتقام منهم انتقاماً كبيراً، وكذلك أدرك بنو هاشم وترهم من خلال المختار وثورته، فطهّر الكوفة من قتلة الحسين تطهيراً، ولم يبقِ منهم أحداً، واستطاع أن

---

(١) المرجع نفسه ٢/ ٤٠٢.
(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٥٩٠.

يستأصلهم عن آخرهم، وأن يوردهم شرّ موردٍ في القتل والقصاص وحتى المثلة، وقطع رؤوس القادة منهم جزاءً وفاقاً، ولم تنفع معه شفاعة بأيّ منهم، حتى قال هو نفسه «ما من ديننا أن نترك قتلة الحسين أحياءً، بئس ناصر آل محمد ﷺ أنا إذنْ في الدنيا الكذاب، وإني أستعين بالله عليهم... إنه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم»[1].

ولقد كان المختار حريصاً كل الحرص على تنفيذ وعيده بحذافيره:

فقد حمل إليه كل من: عبد الله بن أسيد الجهني، ومالك بن بشير البدي، وحمل بن مالك المحاربي، وقد شركوا في دم الحسين، فقال لهم المختار: «يا أعداء الله ورسوله! أين الحسين بن علي؟ أدوا إليّ الحسين. قتلتم من أمرتم بالصلاة عليهم». فقالوا: بعثنا كارهين، فأمنن علينا واستبقنا، فقال المختار:

«هلا مننتم على الحسين ابن بنت نبيكم فاستبقيتموه وسقيتموه؟».

ثم أمر بمالك بن بشير البدي فقطع يديه ورجليه، وتركه يضطرب حتى هلك، لأنه هو الذي سلب برنس الحسين، وأمر بقتل الرجلين الآخرين[2].

وهرب السفاك الدموي عمر بن سعد بن أبي وقاص على ناقته حذر المختار، فطافت به ناقته أزقة الكوفة، وأصبح وهو على باب داره، فأرسل له المختار أبا عمرة مع جماعة من الشرطة، فهجموا عليه

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٦٩.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣٦٩.

داره، فقام ليأخذ سيفه، فعثر في جبة له، فابتدره أبو عمرة وقتله، وحز رأسه، وجاء به إلى المختار وكان إلى جانبه ولده حفص بن عمر بن سعد، فقال له المختار: أتعرف من هذا؟ قال حفص نعم، ولا خير في العيش بعده، فأمر به المختار فألحق بأبيه، وقال: هذا ـ وأشار إلى رأس عمر بن سعد ـ بحسين؛ وهذا ـ وأشار إلى رأس ولده حفص ـ بعلي بن الحسين، ولا سواء، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش، ما وفوا أنملة من أنامله[1].

وقتلت شرطة المختار شمر بن ذي الجوشن، وأُلقيت جيفته إلى الكلاب[2].

وجيء إلى المختار بحرملة بن كاهل الأسدي قاتل عبد الله الرضيع بن الحسين عليه السلام فأمر باحضار النار، فقطّع أوصاله حياً، وألقى بها في النار[3].

وجيء إليه بزياد بن مالك الضبعي، وعمران بن خالد القشيري، وعبد الرحمن بن أبي خشارة البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني، وهم الذين نهبوا الورس من رحل الحسين، فقال لهم المختار:

«يا قتلة الصالحين، وقتلة سيد شباب أهل الجنة، قد أقاد الله منكم».

ثم أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا[4].

وقد اتبع المختار سياسة العصر في قطع الرؤوس، إلا أن قطعه

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٧٠.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣٦٩.
(٣) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام زين العابدين ٢/ ٣٩٩ وانظر مصدره.
(٤) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٦٩.

لها كان قصاصاً فيما يرى، والحق أن ذلك كان ثأراً، لأن القصاص بيد ولي الدم أولاً، وفي القتل لا قطع الرؤوس ثانياً.

ولقد كان دقيقاً في أخذ الثأر هذا، فقد بعث برأس الطاغية عبيد الله بن زياد، ورأس عمر بن سعد قائد مذبحة كربلاء، إلى الإمام زين العابدين، وعهد إلى الرسول أن يضع الرؤوس بين يدي الإمام وقت وضع الطعام على الخوان، بعد الفراغ من صلاة الظهر، وهو الوقت الذي أدخل به رأس الإمام الحسين على ابن زياد، فجاء الرسول إلى باب الإمام وقد دخل الناس لتناول الطعام، فنادى:

«يا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الملائكة، ومنزل الوحي. أنا رسول المختار ومعي رأس عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد...».

فلم تبقَ علوية في دور بني هاشم إلا صرخت...، ولما رأى الإمام ذلك سجد لله شكراً وقال:

«الحمد لله الذي لم يمتني حتى أنجز ما وعد، وأدرك ثأري من عدوي..» ثم التفت الإمام إلى الحاضرين وقال:

«سبحان الله!! ما اغترّ بالدنيا إلا من ليس لله في عنقه نعمة، لقد أُدخل رأس أبي عبد الله على ابن زياد، وهو يتغدى»[1].

والحق أن المختار قد استوعب عملية الثأر من قتلة الحسين استيعاباً مثيراً، وأدخل بذلك السرور والغبطة على قلوب الهاشميين وأتباع أهل البيت، وما استمرأ أحدٌ من قتلة الحسين بشيء من عاجل الدنيا، وفي ذلك عبرة للطغاة من قتلة البشر، فقد يلاحقهم المصير

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام زين العابدين ٢/ ٤٠٠ وانظر مصادره.

الأسود في الدنيا، وهم أحرص الناس على حياة، فهم إنما ارتكبوا الجرائم والجرائر في سبيل دنياهم هذه، فإذا اخترقت آجالهم قتلاً وقصاصاً، وكان ما بعدهم في القيامة أشد وأدهى، فإنهم يخسرون الجولة الطاغوتية في أبعادها كافة، فلا الدنيا أحرزوا ولا الآخرة غنموا، وهذا هو الخسران المبين.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت نهاية ثورة المختار نهاية مأساوية مفجعة، بإجهاز مصعب بن الزبير عليها في جيش من أهل البصرة، على أن المختار ليس بصدد محاربة ابن الزبير، وإنما هو وابن الزبير كلاهما يحاربان النظام الأموي، ولكنه تنازع البقاء فيما يقولون.

لقد أسرف مصعب بن الزبير إسرافاً مريعاً في القمع والقتل، حتى ليبلغ عدد من قتله من أصحاب المختار في الكوفة سبعة آلاف رجل[1].

ولقد أنكر المسلمون على مصعب عمله الشنيع هذا، وكان عبد الله بن عمر في طليعة المستنكرين لهذه المجزرة الرهيبة، فقال لمصعب:

«والله لو قتلت عدتهم غنماً من تراث أبيك، لكان ذلك سرفاً»[2].

حقاً؛ لقد كانت ثورة المختار ثورة شعبية عارمة، وكان دور الكوفة فيها خطيراً، فهم جذوتها وشرارتها ووقودها، وهم ضحاياها أيضاً.

ولئن قضي على ثورة المختار بصورة مرعبة تتراءى أشباحها، فإن السيل المتدافع للثورات اللاحقة لم يقف حتى القضاء على النظام.

---

(١) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٩٠.
(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٦٠٢.

ثورة مطرف بن المغيرة

لم تقتصر معارضة النظام الأموي على أتباع أهل البيت عليهم السلام بل تجاوزتهم إلى الخوارج الذين تمثل حركاتهم عنصراً من عناصر الانكار حيناً، والتخريب حيناً آخر ولكنه عنصر فاعل في اقلاق النظام وإشغاله، ولسنا بصدده الآن.

ولكن المهم أن تتجاوز المعارضة ذينك الخطين المتوازيين إلى خط جديد هو أنصار الأمويين أنفسهم، نتيجة لفداحة الظلم، والاستهانة بأدنى حقوق الإنسان، ومجانبة تعاليم الإسلام، وامتهان كرامة ذوي السابقة في الشرف والدين.

هذا الأُفق الكالح دفع باثنين من رجال الحكم الأموي إلى إعلان الثورة على الحكم، وهما: مطرف بن المغيرة بن شعبة والي الحجاج على المدائن، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي قائد «جيش الطواويس» من قبل الحجّاج الذي أوكل إليه فتح إقليم سجستان.

إن طبيعة البحث في كشف الآثار النضالية لثورة الإمام الحسين عليه السلام تقود بالضرورة إلى كشف آثار وأسرار هاتين الحركتين المنظمتين، ونبدأ باستقراء ملامح ثورة مطرف بن المغيرة.

عهد الأمويون بولاية العراق ـ سنة خمس وسبعين من الهجرة ـ

إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، هذا الرجل الصارم، والحاكم المتسلط الذي لم يتورع عن ارتكاب أشنع المظالم والمحارم في سبيل إرساء دعائم الحكم الأموي في العراق، والدولة الأموية مدينة للحجاج في هذا الارساء.

الحجاج كما تتحدث سيرته السياسية، أعتى الولاة طغياناً، وأجرأهم على سفك الدم الحرام، وأكثرهم جرائر، وأفظعهم جرائم، وهو القائل عن نفسه: «فإني والله ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دم مني، ولقد ركبت أموراً هابها الناس، فأُفرج لي بها»[1].

ودخل الحجاج الكوفة، موطن الثورة على الحكم، فانتضى القسوة سلاحاً، وأغمد الرحمة سياسة، وأسال الدماء قانيةً، وهتك الأعراض حرمةً، وهدم المنازل تأديباً، واستهل سياسته الخرقاء متحدثاً عن سيفه الدموي المشهور على رؤوس الأشهاد «ثم لا أغمده في شتاء ولا صيف، حتى يتم الله لأمير المؤمنين أودكم، ويذل به صعبكم»[2].

وأستن الأحكام العرفية، وأثار الفزع والرعب، ونشر الترويع والذعر، وأعاد سيرة زياد بأبشع صورها، ومثل سيرة ابن زياد بأفظع منها، أخذ على الظنة، وقتل على الشبهة، وأشغل الكوفيين بحروب شبه دائمية، وضرب البعوث على الناس، وسير الجيش إلى الأقاليم، وبعث بالجند إلى ما وراء الحدود، وكانت بطانته وحمايته من الجيش السوري المدرّب على المهمات الصعبة، فابتعد به عن الكوفة، لئلا يتأثر بحياة الكوفيين، وليجعله القوة الضاربة متى شاء ضد الكوفة

---

(١) ابن سعد/ الطبقات الكبرى ٦/ ٦٦.

(٢) المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ١٠٥.

والبصرة معاً، وبنى «واسط» وجعلها مقرّاً لإدارته العليا.

وكان رائده الأول والأخير اشغال الناس بالقتال عن السياسة، وإلهاءهم بالحروب الدامية عن المعارضة، وقد تم له ذلك بحدود، فما تنسم أحدٌ الحرية، ولا تنفس الناس الصعداء، حتى حذّر كبيرهم صغيرهم من فتكه، وعنّف قاعدهم قائمهم من غشمه.

إن أحاديث بطش الحجاج، وأنباء حكمه العرفي الجائر، مما سارت بأخباره الركبان، وهو مما لم يختلف فيه اثنان، ويكفي أن نسمع المؤرخين يقولون:

«إن عدة من قتله الحجاج صبراً ـ سوى من قتل في زحوفه وحروبه ـ كان مائة وعشرين ألفاً»[1].

وهو رقم لا مبالغة فيه فيما أحسب، فقد ولع الحجاج بالدماء ولعاً غريباً، وكان يجد لسفكها لذة عظيمة، شأن الطغاة والجبابرة في كل جيل.

هذا السرد الدموي، أضف إليه الاستئثار العريض بكل مقدرات الدولة ومناصبها وأموالها وولاتها وقوادها، أثار حفيظة شاب مناضل صلب هو مطرف بن المغيرة بن شعبة، فثار في وجه الحجاج سنة سبع وسبعين من الهجرة، وأعلن خلعه للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وهي جرأة كبيرة لم تحدث من ذي قبل، أن عمد والٍ من ولاة الأمويين وابن والٍ لهم، إلى إعلان العصيان والتمرد عليهم، وإلى الأصحار العلني بالنفير والنكير ضدهم، فذلك سابقة لا عهد للنظام بها.

---

(١) المسعودي/ التنبيه والأشراف/ ٣١٨.

ولو أردنا التنقيب عن الجذور المتأصلة الداعية إلى مثل هذا الاجراء الثائر لدى مطرف بن المغيرة، لرأينا له أساساً راسخاً قد يكون له الأثر النفسي في انحراف مطرف عن الأمويين، فذكريات الفتوة لا تفارق النفس، وقد تطبع أثرها على السلوك، وما يدرينا؟ فلعل هذه الواقعة التي يرويها مطرف نفسه عما حدثه به أبوه المغيرة كانت وراء أصداء ثورته القادمة، يضاف إليها مستحدثات الأمور، ومبتدعات النظام.

قال ابن أبي الحديد: وروى الزبير بن بكار في «الموفقيات» وهو غير متهّم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي عليه السلام والانحراف عنه: «قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به. إنك قد بلغت سِنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه؛ فقال معاوية: هيهات هيهات! أيُّ ذكر أرجو بقاءه!!.

ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر. ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر؛ وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مراتٍ: «أشهد أن

محمداً رسول الله» فأي عمل يبقى، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك!! لا والله إلاّ دفناً دفناً»[١].

وليس من البعيد أن تكون هذه الحادثة في الذاكرة صدى من أصداء ما رسخ في نفس مطرف من تطلعات ثورية فيما بعد، نتيجة إيمانه الذي حدا به إلى التغيير.

ومهما يكن من أمر، فقد أعلن مطرف ثورته، ونشر دعوته، فأجابته إلى ذلك فئة غير قليلة من أصحابه، وخطب فيهم الخطاب الآتي:

«أما بعد: فإنَّ اللهِ كتبَ الجهادَ على خلقِهِ، وأمرهم بالعدلِ والإحسانِ، وقالَ فيما أنزل علَينا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢].

وإنّي أُشهِدُ اللهِ أنّي خَلَعتُ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ، والحجّاجَ بن يُوسُف، فَمَنْ أَحَبَّ مِنكُمْ صُحبتي، وكان على مِثِل رأيي، فليتابعني، فإن له الاسوةَ وحسنَ الصحبة، وَمَنْ أبى فليذهبْ حيثُ شاءَ، فإني لستُ أُحِبّ أن يتبعني من ليستْ لَهُ نيةٌ في جهادِ أهلِ الجور. أدعوكُمْ إلى كتابِ اللهِ وسنّةِ نبيّهِ، وإلى قِتالِ الظَلَمةِ، فإذا جَمَعَ اللهُ لَنَا أَمَرنا، كانَ هذا الأمرُ شورى بين المسلمين، يرتضون لأنفسهم من أحبّوا...»[٣].

وكان هذا الخطاب بيان الثورة الأول وقد حدد فيه أموراً.

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة/ ٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠٠.
(٢) سورة المائدة/ ٢.
(٣) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٤٠٤.

١ ـ إعلان الجهاد على الحكم الأموي.

٢ ـ خلعه لعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفي.

٣ ـ دعوته إلى كتاب وسنة نبيه، وقتال الظلمة.

٤ ـ جعل الأمر شورى بين المسلمين إن نصروا.

وقد دعا في هذا الخطاب إلى الانضمام إليه دون إكراه بل طواعية، فمن أحب ذلك من أصحابه فله به الأسوة وحسن الصحبة، لأنه لا يحب أن يتبعه من لا نية له في جهاد أهل الجور.

وأنت ترى ابن المغيرة في هذا الخطاب متحرجاً بحسب فهمه السياسي، فهو لم يدعُ إلى معيّن، ولم ينصب نفسه شاخصاً، وإنما أراد للمسلمين الخيرة، إن كان لهم الخيرة في ذلك.

ويبدو أن ابن المغيرة أراد التوسع في اطار ثورته، فكتب إلى سويد بن سرحان الثقفي، وبكير بن هارون البجلي، كتاباً شرح فيه أهداف ثورته، وأوضح مسبباتها، وأفصح فيها عن رأيه النهائي، قال: «أما بعد؛ فإننا ندعوكم إلى كتاب الله ِوسنة نبيه، إلى جهاد من عَنِدَ عن الحق، واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب، فإذا ظهر الحق، ومنع الباطل، وكانت كلمة الله هي العليا، جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمة، يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا، فمن قبل منا كان أخانا في ديننا، وولينا في محيانا ومماتنا، ومن ردّ ذلك علينا جاهدناه، واستنصرنا الله عليه»[1].

ونهض مطرف بثورته، فقابلها النظام بقسوة بالغة، سفك بها

---

(١) المصدر نفسه ٤/ ٤٠٥.

الدماء، وقتل القادة، وأباد الأتباع، وقضى على الحركة في مهدها.

يقول الأستاذ الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

«هذا هو منهج ثورة مطرف، وفيه عبير من روح كربلاء»[1].

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٢١٨.

ثورة ابن الأشعث

وتبقى الكوفة موطناً لإرادة التغيير السياسي في الشرق، ومَعْلَماً للثورات الدامية على الحكم الأموي، فتثير سياسة الحجّاج الرهيبة فيها روح النضال من جديد، رغم كل الانتكاسات الثورية، فيعلن أحد زعمائها العسكريين والقبائليين، وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الثورة على النظام، ويخلع خليفة الشام عبد الملك بن مروان، ويخلع حاكم العراق الحجاج بن يوسف الثقفي سنة إحدى وثمانين من الهجرة.

وكان الحجّاج قد أرسل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قائداً لجيش الطواويس بفتح إقليم سجستان، وقد تم له ذلك، حيث استولى بالجيش العراقي على تلك البلاد، وكتب إلى الحجّاج بانتصاراته العسكرية، وأنبأه أنه هو وجيشه بإزاء ترك التوغل في بلاد «رتبيل» مما يلي الأفغان، حتى يعرفوا طريقها، ويجبوا خراجها. فكتب إليه الحجّاج يوبّخه على هذا القرار، ويصِمُهُ بالعجز، ويأمره بالتوغل في بلاد الأفغان.

وأدرك ابن الأشعث وأركان حربه هدف الحجاج وراء هذا الإصرار، فهو يريد اشغال الجيش بالحرب، وإبعاد الكوفيين عن الميدان السياسي، فأقدم على معصية الأمر، وفضلّ عدم إطاعة الحجّاج، وبيّت النيّة أن يثور بمن معه من الجيش على النظام، فعرض على جنوده كتاب الحجاج، وأظهر لهم مخالفته، وبيّن لهم عزمه بقوله:

«إنما أنا رجلٌ منكم، أمضي إذا مضيتم، وأبى إذا أبيتم».

فثار إليه الناس وقالوا «نأبى على عدو اللهِ، ولا نسمع له ولا نطيع»[1].

وكان هذا أول الخلاف الذي أيدّه الجيش وأبى فيه إطاعة الحجّاج بأوامره الصارمة، فاغتنمها ابن الأشعث فرصة نادرة، واتجه نحو العراق بتطلعاته هذه، بعد أن خبر نيّات أصحابه، وفي طليعتهم: عامر بن وائل الكناني الصحابي المعروف بأبي الطفيل، وعبد المؤمن بن شبث بن ربعي، وهما زعيمان كوفيان.

أما أبو الطفيل، فقد عقبّ على قرار ابن الأشعث بقوله خطيباً في الجيش الفاتح: «أما بعد، فإن الحجّاج يرى بكم ما رأى القائل الأول: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك».

إن الحجّاج ما يبالي أن يخاطر بكم، فيقحمكم بلاداً كثيرة، ويغشي اللهوب واللصوب، فإن غنمتم وظفرتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم بكم، كنتم أنتم الأعداء الذين لا يبالي عنتهم اخلعوا عدو الله الحجاج، وبايعوا الأمير عبد الرحمن، فإني أشهدكم أني أول خالع».

فنادى الجيش من كل جانب: «فعلنا فعلنا، قد خلعنا عدو الله»[2].

وخطب عبد المؤمن بن شبث بن ربعي، فقال:

«عباد الله، إنكم إن أطعتم الحجّاج، جعل هذه البلاد بلادكم، وجمركم تجمير فرعون الجنود، ولن تعاينوا الأحبّة، أو يموت أكثركم

---

(١) ظ: في هذه النصوص/ الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ثورة ابن الأشعث.

(٢) المصدر نفسه.

فيما أرى، فبايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوكم الحجاج، فأنفوه من بلادكم»[١].

وقد أثر هذا الخطابان في الجيش تأثيراً واعياً، إذ ضُرِبَ فيهما على وتر حساس لم يتخط ما في نفس الحجّاج من تخطيط، ولم يبعد عما في نفس الجيش من أحاسيس، فوثب الناس على ابن الأشعث فبايعوه على خلع الحجاج، وساروا ثائرين حتى إذا بلغوا فارس خلعوا عبد الملك بن مروان، واتجه الجيش نحو العراق، حتى إذا وصلوا البصرة، استقبلهم أهلها استقبالاً مثيراً، وبايع الأشعث فيها قراؤها وكهولها وشبابها، عربها ومواليها، فاجتمع له حينئذٍ جيش مدرّب جرّار، فتوجه بالجميع نحو الكوفة، واعتبرها مركز الثورة ضد الحكم الأموي، فدخلها وبايعه فيها الناس وذلك «لثقل وطأة الحجّاج عليهم، ولم يبقَ من وجوههم وقرّائهم أحد له نباهة إلا خرج معه»[٢].

فنهض ابن الأشعث بمن معه من الثائرين، وهم ألوف مؤلفة، يقدمهم أعشى همدان، سائراً بين الصفوف، ومحرضاً على قتال الحجاج برجزه الثائر:

لما سفونا للكفورِ الفِتّانْ	بالسيد الغطريفِ عبدِ الرحمنْ
سار بجمع كالدبى من قحطانْ	ومن معدٍّ قد أتى ابن عدنانْ
أَمكَنَ ربي من ثقيف همدانْ	يوماً إلى الليل يُسلي ما كانْ[٣]

وبدأت المعارك الهائلة بين العراقيين وجيش الحجاج من الشاميين

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) الأصبهاني/ الأغاني ٦/ ٤٥.
(٣) المصدر نفسه ٦/ ٥٩.

لمدة ثلاث سنوات متوالية، سالت فيها الدماء كل مسيل، وكانت وقائع «دير الجماجم» أشدّها، والتي رأى المؤرخون أنها ثمانون وقعة[١].

وقد بالغ العراقيون في نصرة ابن الأشعث، واستبسل الكوفيون بخاصة استبسالاً منقطع النظير، فقد هبّ قرّاؤهم وصلحاؤهم وزعماء قبائلهم لا سيما مذحج وهمدان وكندة إلى مساندة الثورة بالنفس والمال، لأنهم رأوا في ابن الأشعث منقذهم الوحيد في محنهم الصعاب، كما أن للتعصب القبلي أثره في الأمر، باعتبار ابن الأشعث زعيماً قبائلياً ذا مركز مهم عند اليمانيين.

يقول الأستاذ ڤلهاوزن «إن يمن الكوفة، وبخاصة كندة وهمدان ومذحج كانوا ممثلين في هذه الثورة تمثيلاً ضخماً، لأنهم نظروا إلى ابن الأشعث على أنه رجلهم الخاص»[٢].

وكانت خطب ابن الأشعث الثورية قد ألهبت مشاعر الكوفيين حماساً، فقد ذكر الدينوري أن ابن الأشعث دبّ في عبّاد أهل الكوفة وقرائهم، محرّضاً على الثورة، ومحفزّاً على الانكار، وقال:

«أيها الناس؛ ألا تغضبون لله؟ ألا ترون أن السنة قد أميتت؟ والأحكام قد عطلت، والمنكر قد أعلن، والقتل قد فشا؟.

اغضبوا لله وأخرجوا معي، فما يحلّ لكم السكوت!! ألا ترون هذا الجبّار ـ يعني الحجاج ـ وما يصنع بالناس؟».

فلم يزل يدّب في الناس بهذا وشبهه حتى استجاب له القرّاء

---

(١) المسعودي/ التنبيه والأشراف/ ٣١٥.
(٢) ڤلهاوزن/ الدولة العربية/ ٢٤٨.

والعبّاد، وأوعدهم يوماً يخرجون فيه، فخرجوا على بكرة أبيهم، واتبعهّم الناس[1].

ومن هنا تعرف دور الكوفة في قرائها وعشائرها وسوادها الأعظم، فقد كان جيشها يعدّ بالآلاف إحصاءً، وكان النسّاك والقرّاء يقومون بفريضة جهادية شرعية من جهة، وكان اليمانيون يرون ابن الأشعث حلمهم الضاحك من جهة أخرى، فالتقى الوازع الديني بالوازع القبلي، فتبعهما الجمهور العراقي المقاتل الذي سأم حياة الذل والقتل والاضطهاد.

وقد يقال بأن في عداد الثوار عدداً كبيراً من الموالي، وهذا لا ينافي عروبة الثورة في حال، فقد كان دور الموالي ضئيلاً وصغيراً جداً، بل هو دور ثانوي. على أننا يجب أن نعير الأهمية لقتال القراء من المصريين، فقد كان عددهم هائلاً، وكان تأثيرهم على الناس دينياً وعقائدياً تأثيراً واضحاً في مدى استجابتهم لهم.

يقول أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله تعالى:

«والظاهر من أخبار القتال أن عدد القراء كان كبيراً، فقد كانوا يألفوّن كتيبة مستقلّة تعرف باسم «كتيبة القرّاء» قامت في القتال بدور خطير، فقد اندفعوا فيه يقاتلون في عزم صادق وشجاعة فائقة «يُحمل عليهم فلا يكادون يبرحون، ويحملون فلا يكذبون» ولعل أكبر دليل على هذه الشجاعة الفائقة: أن الحجاج عبأ لكتيبة القرّاء ثلاث كتائب، فكانت هذه الكتائب تحمل عليها ثلاث حملات، كل كتيبة تحمل حملة، وكتيبة القرّاء لا تتراجع، ولا تتزحزح عن موقفها، وما نظن بعد

(١) ظ: الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٣٢٢.

هذه الشهادة التي صدرت عن أحد فرسان الشام الذين كانوا في الكتائب في حاجة إلى أن نذكر ما يقوله فلهاوزن: من أن القراء قاموا في هذا القتال بدورهم أشد ما يكونون إيماناً وقوةً»[1].

ولقد صدق العراقيون بعامة والكوفيون بخاصة القتال المرير، وأمدّوا ثورة ابن الأشعث بطاقات حيوية من القوة الضاربة منذ بدايتها حتى سقوطها.

وبعد معارك طاحنة، استمرت عدة سنين، استطاع الحجاج أن يقضي على هذه الثورة قضاءً دامياً، فقد زحف عليها بجيوش سورية مدربّة تدريباً عسكرياً راقياً، وأسرف في سفك دماء المقاتلين إسرافاً فظيعاً، وبالغ في قتل الأسرى، وضرب أعناقهم صبراً، وكانوا يعدون بالآلاف، وقد امتاز هذا الانتقام بيوم معين في ضرب الأعناق «وكان ذلك فعله يومه ذلك إلى الليل»[2].

وحينما قمع الحجّاج هذه الثورة، مات ابن الأشعث منتحراً في أغلب الظن وذلك سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين من الهجرة[3].

وبالقضاء على ثورة ابن الأشعث ساد المناخ السياسي في العراق صمتٌ رهيب، وبقيت الروح الثورية مكتمّة في الأعماق، حتى أوقد جذوتها زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، في ثورته على النظام في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٨٦ وانظر مصادره.
(٢) ابن قتيبة/ الإمامة والسياسة ٢/ ٧٣.
(٣) ظ: المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ٣١٤.

ثورة زيد بن علي

كان القمع الدموي الذي انصبّ بغزارة على المشاركين في ثورة ابن الأشعث، داعية لخنق التحرك الثوري في المجتمع العراقي، وقد حصر نطاقه في حركات الخوارج الملاحقة، وهي حركات تقوم على شكل عصابات حيناً، فتقطع الطريق وتسفك الدماء، وقد تكون على شكل منظّم يقلق الحكم ويثير مخاوفه، وفي كلا الحالين كان هذا التحرك مصدر قلق للنظام الأموي، فيتفرغ له تفرغاً ملحوظاً في تاريخه الدموي العريق، فيسحقه بالجيش السوري المرابط في العراق سحقاً عنيفاً لا هوادة فيه ولا رحمة.

وكانت طبيعة المجتمع العراقي ترفض فكر الخوارج في الجملة، فلم تكن حركاتهم لتلقى استجابة ذات بال في صفوف الناس، وهي قديمة بين ظهرانيهم، وقد تختلف بأهدافها ـ عادة ـ عن أهداف الثائرين، مما يعني مشاركة الجيش العراقي في كثير من الأحيان في التصدي لبوادر الخوارج إلى جنب الجيش السوري المرابط في واسط. وطالما انتهت حركات الخوارج نهايات مروّعة، نظراً لتقاليدهم الصارمة في مواصلة القتال، والتنقل بسرعة مذهلة من حيّز جغرافي إلى حيّز جغرافي آخر، وبذلك يتجدد الإتباع ويتجدد القتال بوقت واحد. كان شأنهم هذا متكرراً كلّما نجم لهم قرن، أو بويع لأحدهم بإمرة المؤمنين، إلا أنهم يبادون إبادةً تحسب أن لا قائمة لهم بعدها، وهم مع

ذلك يعاودون القتال باصرار، وعلى بصيرة فيما يزعمون، والنظام يقابلهم بأقسى أصناف العذاب، ويخضعهم لوسائله القمعية المعروفة.

وللخوارج تاريخ عريض ضد النظام الأموي، إلا أن النهاية كانت طبيعية: القتل الذريع، الفناء الشامل، سمل العيون، قطع الأيدي، حرق المنازل والبيوت، شأنهم في هذا شأن المشاركين في الثورات السابقة، والنهاية في أغلب الأحيان واحدة.

هذا العامل الدموي يفسر لنا هدوء الثورة واستكانتها في المجتمع العراقي بعد القضاء على التحرك الخارجي والمدّ الثوري في العراق، وكأنه قد باء بالفشل الذريع في تضحياته الجسام السابقة، حتى ليخيل للباحث أن العراق قد استقر عسكرياً، وأضرب صفحاً عن التفكير في أي تحرك ثائر قد يجرّ له الويل، ولكن هذا هدوءاً مؤقتاً، وهو ما يسبق العاصفة عادة، فما إن أعلن زيد بن علي بن الحسين الثورة في الكوفة عام ١٢٢ من الهجرة، حتى انهال عليه المسلمون بالبيعة في كل من: الكوفة، البصرة، الموصل، واسط، الري، جرجان، خراسان.

وهذه الاستجابة لزيد قد سبق لها إعداد قبل عام تقريباً، وكونه من أهل البيت جدد الاعتقاد للناس أنه المنفذ الوحيد الذي يخرجون به من الجور إلى العدل، وكونه رجلاً ورعاً تقياً ففي الإمكان أن يستظلوا به من طغيان النظام، لا سيما في الكوفة التي كانت تحنّ إلى حكومة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقد وجدت في زيد وريثاً شرعياً لتلك الشخصية الفذّة، وربما كان لها المنقذ الوحيد المرتقب في صراعها مع السلطة، فكان الاقبال على زيد كبيراً، والالتفاف حول قيادته فريداً،

وكان شعار أنصاره: «يا أهل الكوفة: اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، وإلى الدين والدنيا»[١].

والذي يحزّ في النفس حقاً، هذا الموقف المتقلّب من أهل الكوفة، فقد اندفعوا وراء زيد اندفاعاً شديداً، ثم تخلوا عنه بصورة مذهلة، شأنهم في ذلك كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا، فهم يسرجون الثورة وهم يخمدونها، ربما كان ذلك ناتجاً عن واقع الحياة السياسي الذي لم يكن بصالحهم، وربما كان ذلك نتيجة الضغط النفسي في ما زرع من خوف وخدر وذعر في الشخصية، وربما كان غدراً ونفاقاً مزدوجاً، ربما كان هذا أو ذاك وربما لم يكن أحد هذه الأشياء، لا أحد يعلم بما يجري داخل تلك النفوس، فهم شيعة أهل البيت لا شك في ذلك، وهم وقود الثورة الدائم، وهم شعلة الاصلاح المستمرة، فلماذا الاندفاع بكل ضراوة، ولماذا التخاذل عند الوثبة، لقد كان دقيقاً ما توصل إليه أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله، فقال:

«ووقف أهل الكوفة ـ من ثورة زيد وسواها ـ موقفهم التقليدي: حماساً واندفاعاً أول الأمر، ثم تخاذلاً وتراجعاً في النهاية»[٢].

وهذا يوحي بانعدام الثقة بالنفوس، وتراجع روح الفداء إلى الوراء وإلا فبماذا يفسر هذا الخذلان العجيب.

لقد قامت ثورة زيد في الكوفة، فأشرأبت لها الأعناق، وعبأ لها الأمويون أفضل القادة والجنود للمقاومة والقضاء عليها؛ ووقف كلٌ على قارعة الحرب ينتهز الفرصة بالآخر، وحدث ما لم يكن بالحسبان، فقد اختل توقيت الثورة فيما يبدو، وأعلنت قبيل أوانها، وبرز المقاتلون

(١) الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ١٣٩ .

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٩٣ .

من الجانبين، ودارت رحى حرب طاحنة، وباشر زيد القتال بنفسه، فكان قتال الأبطال، وكاد يلوح النصر له باعلامه، لولا أن أتاه سهم طائش أودى بحياته، وكانت مباشرته للقتال حائلة دون تحقيق أهدافه، نظراً لاختلال التوقيت فيما بينه وبين أصحابه، ودعته الضرورة إلى مبادرة الحرب حين يفرّ عنه بعض أصحابه، وحين لا يدري بثورته آخرون، وكانت النهاية أن يقتل القائد، وإذا قتل القائد تفرق الجند.

«وقد يقول قائل إن الروح النضالية التي بعثتها ثورة الحسين في الشعب المسلم لم تطور واقع هذا الشعب بواسطة الثورات التي أشعلتها. لقد كانت الثورات تنشب دائماً، ولكنها كانت تخفق دائماً، ولا تسوق إلى الشعب إلا مزيداً من الضحايا، ومزيداً من الفقر والإرهاب.

ونقول نعم، إنها لم تطور واقع هذا الشعب تطويراً آنياً، ولم تقدم في الغالب أية نتائج ملموسة، لكنها حفظت للشعب إيمانه بنفسه وبشخصيته، وبحقه في الحياة والسيادة، وهذا نصرٌ عظيم.

إن أخطر ما يبتلى به شعب هو أن يقضي على روح النضال فيه، إنه حينئذٍ يفقد شخصيته، ويذوب في خضّم الفاتحين، كما قدر لشعوب كثيرة أن تضمحل وتذوب وتفقد كيانها لأنها فقدت روح النضال... ولو أنها بقيت مؤمنة بشخصيتها، وثقافاتها، ومقوماتها، ولو احتفظت بروح النضال حية في أعماقها، لما استطاع الغزاة إبادتها وإذابتها، ولشقت لنفسها طريقاً جديداً في التاريخ. وهذا ما حققته ثورة الحسين»[1].

---

(١) محمد مهدي شمس الدين/ ثورة الحسين/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

ولقد كانت ثورة زيد من هذا السنخ في عطائها الذي اقتدى بثورة الإمام الحسين عليه السلام فلئن قتل زيد، وفشلت ثورته، وصلب على جذع نخلة في كناسة الكوفة، وأنزلت جثته بعد سنين فأحرقت، وذريت في الهواء، فقد أبقت الجذوة متقدة، والشرارة ملتهبة.

يرى الأستاذ بروكلمان أن ثورة زيد بن علي عليه السلام «كانت فاتحة سلسلة طويلة من الثورات الشيعية التي أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين»[١].

وهو رأي دقيق جداً، فقد ثار من بعده وعلى نهجه ولده يحيى بن زيد الذي فرّ إلى خراسان بعد فشل ثورة أبيه، وهناك خرج بأنصاره أيام الوليد بن يزيد، وأعلن ثورته، وجنّد النظام لها جيشه الضارب، وجرت الوقائع الدامية، وهي تنخر بعظام النظام، وانتهت الثورة كما هو المعتاد بالقتل والتمثيل والصلب، ولكن هذه النهاية لم تكن في صالح الدولة في النهاية، فلقد هزّت أركان الدولة هزّاً عنيفاً، وقد فجر مقتل يحيى في الشعب روح الغضب والحزن معاً، حتى قال المسعودي:

«وأظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر أعمالها، في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية، ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود إلا سمي بيحيى أو بزيد، لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه»[٢].

وأشد من هذا خطراً على الدولة: أن أبا مسلم الخراساني ـ داعية بني العباس ـ قد عرف كيف يتخذ من مقتل يحيى بن زيد ورقة رابحة

---

(١) بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ١٩٠.
(٢) المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ١٤٦.

يلعب بها في تأليب الخراسانيين ضد الحكم الأموي، حين جعل من أهداف حركته المطالبة بدم يحيى، وقتل قتلته[١].

وقد اعتبر الأستاذ ڤلهاوزن ثورة زيد ـ وإن انتهت انتهاءً مفجعاً ـ مهمة «ذلك أن ثورات الشعب التي حدثت بعده، والتي أدت إلى انهيار دولة دمشق انهياراً نهائياً، كانت ذات علاقة بها، وسرعان ما ظهر أبو مسلم بعد وفاة يحيى آخذاً بثأره، قاتلاً قتلته»[٢].

وقد ألهبت ثورة زيد بن علي مشاعر طالبي ثائر هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فأعلن ثورته على النظام في الكوفة سنة ١٢٧ هـ، وقاد المعركة ضد النظام الأموي، ولكنه ـ على عادة الكوفيين ـ خذل من قبل جملة من أصحابه، ولكنه أيضاً استطاع أن ينهزم ببقيتهم إلى الجبل، ويدير حركته من هناك حتى انتهى به المطاف إلى خراسان[٣].

وكان لثورته أثر عميق في تاريخ الدولة الأموية، فقد مضى بعد خذلانه في الكوفة خارجاً إلى الجبل يدعو لنفسه في الأقاليم الشرقية التي نزل بها حيث تقاطر عليه خلق كثير، والتف حوله جملة من الأنصار والمؤيدين فنعم بالسلطان حيناً، وجعل مقرّه للحكم أصفهان، ثم تركه إلى اصطخر، وبسط سلطانه على الولايات المجاورة: خوزستان وفارس وكرمان، حتى انتهى به المطاف أخيراً إلى خراسان.

وكأنما كانت حركته هذه التي حدثت قبيل زوال الحكم الأموي

---

(١) ظ: يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٩٤.

(٢) ڤلهاوزن/ الدولة العربية/ ٢٧١.

(٣) ظ: الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ١٦٨ + الأغاني ١١/ ٧٤.

بسنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، إرهاصاً لسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

فما إن حلّت سنة ١٣٢ هـ حتى زحفت الرايات السود من المشرق نحو الكوفة ومنها إلى الشام لتشيّع وإلى الأبد الحكم الأموي في المغرب.

وأنت ترى أن هذا الزلزال من الثورات التي اندفعت شرارتها في العصر الأموي ليحترق النظام بنارها الحمراء، ما كان لها أن تنتشر وتلتهب لولا ثورة الحسين في كربلاء، فهي الأصل التي منها تتفرع، وهي الجذوة التي منها تقتبس، فلولا ثورة الحسين لم يكتب للطلائع التحررية أن تخطو خطوة واحدة على صعيد الصراعات النضالية.

لولا ثورة الحسين لكان الإسلام مجرد طقوس جافة لا تنبض بالحياة، ولفقد الدين الحنيف روحيته الخالدة، ولقبع نظامه في ظل البدع والمستحدثات التي يريدها الحاكمون، ولأصبح كتاب الله مهجوراً دون شك.

ولولا ثورة الحسين عليه السلام لبقي الشعب المسلم يرزح تحت نير كبير من الذل والعبودية والشعور بالامتهان والازراء، ولأضفيت القداسة على الظالمين باعتبارهم القادة الذين يحكمون باسم الله، وإن خالفوا كتاب الله، وظلموا عباد الله، ونازعوا الله بردائه في الكبرياء والآلاء، ولألصقت صفة العبيد على الشعوب باعتبارهم خدم أولئك النفر من الحاكمين المتسلطين على الرقاب والمقدرات.

لكن الذي حدث ـ بعد ثورة الحسين ـ هو عكس ما خطط له الطغاة من الحكام والأمراء الخونة، فنحن بثورة الحسين نتذكر عظمة

الإسلام، ونعيش انتصاراته في المبادىء والمثل العليا، ونحن بثورة الحسين عليه السلام تنعم بدين الله اخواناً، تمتلك الحرية وإن سلبت، ونحيا الكرامة وإن خدشت، فللباطل جولة تنتهي بالهزيمة، وللحق صوله تنتهي بالنصر.

كان هذا بفصل الأصالة التي منحتها للإنسان مبادىء ثورة الإمام الحسين في كربلاء.

الانقلاب العباسي

لو أردنا أن نستبق ما نحن فيه من أحداث، لوجدنا علياً عليه السلام قد أدنى أبناء عمه العباس بن عبد المطلب دون بقية الهاشميين، ذلك لدى تسلمه قيادة الأمة، وقد ولّى عبد الله بن عباس البصرة، وولّى عبيد الله بن عباس اليمن، وولّى قثم بن عباس مكة. وهذه الحواضر قبلة الناس، وركيزة الحكم الإسلامي بالنظر إلى موقعها الجغرافي والاجتماعي، فالبصرة شرق الدولة الإسلامية، واليمن جنوب الدولة، وكلمة قلبها النابض.

ولكن الإخوة الثلاثة لم يحفظوا للإمام هذا الذمام فيما يبدو، ولا شكروا له هذا الصنيع الحافل، فاستولى عبد الله بن عباس ـ في أغلب الظن ـ على بيت مال المسلمين في البصرة، واحتجنه لنفسه، وفرّ إلى مكة على ما يقال. وغدر عبيد الله بن عباس بالإمام الحسن، وكان أحد أركان حربه في قيادة الجيش لدى حربه مع معاوية، فترك الجيش، وتسلسل ليلاً إلى معاوية ينعم بالصلات والأعطيات الضخمة. ولا ندري ما صنع قثم بن عباس، ولكننا لا نقرأ له موقفاً إيجابياً واحداً في خضّم الأحداث.

ولو أعدت النظر في استقراء أبطال ثورة الحسين من الهاشميين، لما وجدت فيهم عباسياً واحداً، فالثوار كلهم أبناء أبي طالب من صلبه خاصة، وهم بالضبط: أبناء أمير المؤمنين عليه السلام وأبناء أخويه جعفر وعقيل فحسب.

كان غياب بني العباس عن كربلاء ظاهرة تدعو إلى الريب والتساؤل، فلم يظهر لهم موقف معين في هذا الحدث الذي هزّ العالم الإسلامي بأسره إلاّ في مستوى إشارة عبد الله بن عباس على الحسين: أن لا يخرج إلى العراق، وإلا أصداء محاورات قصيرة له مع ابن الزبير لدى خروج الحسين إلى العراق.

ولنا أن نتساءل عن هذا العدد الضخم من العباسيين أبناءً وحفدة، شيوخاً وشباباً وأيفاعاً، وهم في منأى عن أهم قرار هاشمي وهم هاشميون، ذلك القرار هو ثورة الإمام الحسين في مراحلها كافة. نتساءل جدّياً: ما هذا التخلف عن ركب الحسين الثائر؟ ما هذا الصمت المطبق إزاء تحرك الحسين الناطق؟ وبماذا تعلل هذه السلبية الاستغراقية من قِبلِهم تجاه قيادة حكيمة منطلقة، وهي قيادة الحسين ابن أمير المؤمنين عليه السلام.

كل هذا يفسر لنا وقوف العباسيين في فرجة سياسية على التل. !!.

وهذا يفضي إلى القول بأن العباسيين لم يكن لهم صلة قيادية أو ولائية بأهل البيت عليهم السلام بل كانوا يستغلون معارضة أهل البيت للحكام والولاة فيربحون هذا الاستغلال كونهم في معزل عن المعارضة، فتعجّل لهم السلطة الجزاء الأوفى بالعطاء والجباء. حتى إذا احتدم الصراع الثوري في العراق وسواه، وتوالت الانتفاضات السياسية ضد الحكم الأموي، بدا للحاكمين أن العباسيين في معزل من هذا الصراع، وفي منأى عن هذه الانتفاضات، لم يؤيدوها، ولم يشاركوا فيها، بل إقتطفوا ثمارها ـ فيما بعد ـ بعمل سريّ منظّم دون العلويين، فهم في ظاهر الحال مع السلطة الزمنية ولا علاقة لهم بالثوار، وهم في واقع الأمر

يحرصون كل الحرص على العمل بصبر وأناةٍ لغاية منشودة يستأثرون بها وحدهم دون الطالبيين.

ويبدو أن هناك علماً إجمالياً مسبقاً لدى العباسيين، إن لم يكن علماً يقينياً ثابتاً، بوصولهم إلى السلطة منفردين، وبتحمل مسؤولية الدعوة إلى هذا الهدف عباسيين لا هاشميين. فقد أفضى أبو هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية قبيل موته، وفي سنة ثمان وتسعين من الهجرة، بأسرار الدعوة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وعهد إليه أن ينهض بأعبائها، وعرّف بينه وبين دعاتها[1].

وقد التمس العباسيون لدعوتهم خراسان دون الحواضر الإسلامية فالكوفة علوية، والبصرة عثمانية، والجزيرة خارجية، والشام أموية، ومكة والمدينة غلب عليهما أبو بكر وعمر[2].

وكان توجيه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس شيخ الدعوة العباسية إلى الدعاة أن يبتعدوا عن تلك الحواضر أجمع، ويتجهوا إلى خراسان:

«ولكن عليكم بأهل خراسان، فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة، وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»[3].

---

(١) ظ: المسعودي/ التنبيه والأشراف/ ٣٢٨.
(٢) ظ: يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٩٦.
(٣) البشاري المقدسي/ أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم ٣/ ٣٩٣.

وكان هذا التوجه دقيقاً من قبل زعيم الدعوة، إذ حصرها بخراسان منطلقاً، لأن فيها العدد الكثير والصبر المشاهد، وثنى على البعد النفسي فالصدور سليمة والقلوب فارغة لم تلعب بها الأهواء بعد، ولم يتوزعها الحقد والغش، وعقّب على القوة البدنية في الأجسام والمناكب والكواهل والهامات وما في ذلك من هيبة ورجولة، وعرض للخصائص الأخرى في الهيبة والأصوات، فذكر اللحى والشوارب وما لها في المنظر من أثر واستعراض، وذكر اللغات الآرية وما فيها من فخامة الألفاظ وما فيها من مخارج منكرة، ثم تفاءل بمشرق الشمس، والتفاؤل ظاهرة جيدة في مثل هذا الحال.

كل ما تقدم يدّل على دراسة سكانية مكثفة لأحوال أهل خراسان، ويدل الاختيار على ذكاء سياسي مفرط، فيه تخطيط ناجح، وأملٌ كبير.

وهو لا يريد أن يشرك غيره معه، بل يريدها للعباسيين وحدهم، خالصة لهم ولأبنائهم وأحفادهم وشيعتهم، فمن التدبير حينئذٍ الابتعاد بالعمل عن الحواضر المنافسة: الكوفة والبصرة والجزيرة واليمن والحرمين.

لقد أدرك العباسيون أن العلويين كانوا يطمحون إلى الحكم ومقاليده، فاستبعدوا من بين تنظيماتهم كل من يمّت إلى أهل البيت بصلة، وعملوا لحسابهم الخاص دون إشراك لهؤلاء وأولئك من العلويين أو شيعتهم في أي تخطيط داخلي للانقلاب العباسي الوشيك.

ولكنهم في الوقت نفسه استغلوا شعورهم بالاضطهاد والحرمان والجور فأضافوه مكسباً جديداً في التحريض على الحكم الأموي، واستثمروا عائدية الإرهاب الدموي ضد أهل البيت، فأضافوه إلى قائمة

المؤاخذات الخطيرة على السلطة، واستشرفوا ليصوروا للمجتمع مقتل أمير المؤمنين والحسن والحسين وزيد بن علي، ويحيى بن زيد شواخص كبيرة في الاستنكار على النظام بغية الانقضاض عليه.

والتحقيق العلمي يوحي بأن العباسيين قد انطلقوا بدعوتهم من الكوفة وخراسان لا من خراسان وحدها، فقد كانت الدعوة سريّة في الكوفة قبل التنفيذ بأمد بعيد، فقد وجه زعيم الدعوة العباسية محمد بن علي بن عبيد الله بن عباس بمولى أبيه «ميسرة» ليتولى نشر الدعوة سراً في الكوفة، ويموت ميسرة فيعهد محمد لبُكير بن ماهان بزعامة شؤون الدعوة سراً في الكوفة، ويُظهِر هذا من الاخلاص للدعوة ما يفوق حد التصور في خلاف عشرين عاماً حتى يموت سنة ١٢٧ هـ ويستخلف للمهمة أبا سلمة الخلال الذي سمي بوزير آل محمد فيما بعد[١].

وقد مهد هؤلاء منذ عام ١٠٠ للهجرة حتى عام ١٣٢ من الهجرة للدعوة في الكوفة سراً، وخلقوا لها مؤيدين وأنصاراً استطاعوا أن يخفوا بين ظهرانيهم أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور، حتى بويع للأول منهم في الكوفة وقامت الدعوة في خراسان بعد سريتها علنية عام ثلاثين ومائة من الهجرة، بقيادة أبي مسلم الخراساني، واندفعت الرايات السود من خراسان سنة إحدى وثلاثين ومائة من الهجرة بقيادة «قحطبة الطوسي» لتحتل الكوفة، ويسير الأمويون بقيادة ابن هبيرة يريدون الكوفة أيضاً، ويلتقي الجيشان على ضفاف الفرات بالقرب من الكوفة عام اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة، وتدور رحى القتال على أشدها، ويتم النصر لقحطبة قائد العباسيين، ولكن بعد أن يصاب بالقتال، ويستولي محمد بن خالد القسري على الكوفة، وهو عباسي النزعة،

---

(١) ظ: يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٩٨ وما بعدها وانظر مصادره.

ويخرج والي الأمويين وأهل الشام منها، ويعلن عن قيام الخلافة العباسية في الكوفة[1].

ويتولى قيادة الجيش العباسي الحسن بن قحطبة بعد أبيه، فيدخل الكوفة وقد استولى عليها محمد بن خالد القسري، فيسلم الأمر إلى أبي سلمة الخلال[2].

ويخرج أبو العباس السفّاح من مخبأه، ويدخل قصر الإمارة بالكوفة ويتسلل منه إلى جامع الكوفة، فيبايع بالخلافة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة[3].

وبهذا يتحول الحكم في الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق، وتنتقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى الكوفة. مما راق لأهل الكوفة وأعجبهم أول الأمر.

وكانت الدعوة العباسية قد رفعت شعارها: إلى الرضا من آل محمد، وفي هذا الشعار تمويه على المسلمين، إذ إن الأغلبية العظمى منهم تفهم أن الرضا من آل محمد يعني أحد أبناء علي عليه السلام المنصوص عليه بالإمامة.

ولمّا استمسك الأمر، وأعلن عن الخلافة لأبي العباس السفاح، أُستبعد أبناء أمير المؤمنين، وشيعةُ أمير المؤمنين، وأتباعُ أمير المؤمنين عن السلطة، كما استبعدوا في الحكم الأموي، وذهبت آمال الكثيرين أدراج الرياح.

---

(١) ظ: يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ١٠٣ وانظر مصادره.
(٢) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ٨١٧٥
(٣) ظ: المصدر نفسه ٢/ ١٧٦.

كان العباسيون أذكياء يتدبرون الأمور، فيأخذون بأفضلها عائدية عليهم، فقد استثمروا في كل من الكوفة وخراسان المظالم التي تعرض لها أهل البيت عليهم السلام بأئمتهم وأبنائهم وأصحابهم في صالح دعوتهم، ونشروا من استشهاد أمير المؤمنين وولديه الحسن والحسين وزيد بن علي ويحيى بن زيد، ألويةً للنصر تخفق على رؤوسهم، فاعتقد السواد الأعظم أنهم على سبيل منهم، أو أنهم الآخذون بثأرهم، أو أنهم السائرون الحقيقيون على خطهم، فمنحهم الناس ثقة مطلقة عمياء، أفادوا منها في الالتفاف حولهم، وتقوية نفوذهم، ففي حفلة إعلان أبي العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقف عمه داود بن علي يلقي خطبة الاستخلاف، فيهاجم بني أمية مهاجمة عنيفة، ويصرح أن الدولة العباسية لا تعترف بخلافة أحد قبل أبي العباس السفاح إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[١].

بل يذهب إلى أكثر من هذا فيقول:

«ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد»[٢].

وكان هذا الاستثمار لمظالم أهل البيت ومصارعهم، والمناداة باسم أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام سياسة إيدلوجية تم في ظلها توطيد دعائم الحكم، فقد ارتاح لذلك العراقيون عامة، والكوفيون خاصة، لأنهم حسبوا أن دولة قوية جديدة بقيادة العباسيين سوف تنتهج سياسة الإمام علي عليه السلام في العدل والمساواة فتنتصف لهم، وتذيقهم الأمن والدعة والاستقرار.

---

(١) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ١٦٧.

(٢) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٢/ ١٦٧.

ولكن الذي حدث خلاف هذا، إذ لم تكن حركة العباسيين ثورة على مظاهر الجور والاستبداد، ولكنها كانت انقلاباً أبدلت رجالاً برجال، ولم تغير فكراً ولا منهجاً، استعاضت عن الارستقراطية العربية الطاغية، بأرستقراطية فارسية طاغية، واستبدلت الطغاة الصغار من ولاة الأمويين بطغاة كبار من قوّاد الفرس، وعمر الميدان بالجبابرة من جديد، وأقبلت الفتن يدهم بعضها بعضاً، وأدرك العراقيون أن الظلم العباسي لا يقل ضراوة عن الظلم الأموي إن لم يزد عليه، وخابت آمال شيعة أهل البيت من أبناء عمومتهم الجدد، فبدلاً من أن يرفعوا الضيم عنهم، أو يخففوا عبء العسف عن كواهلهم، وإذا بأبناء علي بن أبي طالب وشيعتهم يكتالون بالميزان الأوفى أطنان الحيف، ويخضعون لأفظع مآسي القتل والارهاب الجماعي والفردي، وتذهب تلك الآمال بدداً، وينقلب ذلك التفاؤل تشاؤماً، وتعود حياة أهل البيت وأتباعهم جحيماً على أيدي الخلفاء الفجرة والولاة الظلمة حتى قال ڤان ڤلوتن: «إن ما لقيه العلويون من الاضطهاد في عهد الأوليين ـ يعني السفاح والمنصور ـ من خلفاء بني العباس، لم يلقوا مثله من قبل»[1].

وكان لهذا الاضطهاد الجديد أثره الدموي الحافل فيما بعد، فلم يكتب للدولة العباسية الاستقرار السياسي التام فقد «اندلعت الثورات في أرجاء الدولة الإسلامية في وجه العباسيين، وانتشرت الاضطرابات، وتعرض الخلفاء وولاتهم لأزمات شديدة، فاضطروا أن يسرفوا في سفك الدماء، ولم يتورعوا أن يرتكبوا أفظع الجرائم وأشدّها هولاً في سبيل تأمين سلامة عرشهم»[2].

---

(١) فان فلوتن/ السيادة العربية/ ١٠٨.

(٢) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ١٠٨.

ولهذا فإننا لا نستطيع أن نعتبر الانقلاب العباسي امتداداً لثورة الحسين، ولا جزءاً من رسالته الإنسانية، بل العكس هو الصحيح، فقد استغل العباسيون اسم الحسين والثائرين معه، والثائرين من بعده، ليتوصلوا في ظل ذلك الوهج الساطع إلى السلطة ليس غير، لا أن يقتبسوا من أضوائه لمحاً يهتدون به.

لقد أعاد العباسيون حياة الظلم جذعة، وشهروا الجور سلاحاً طائشاً بين يدي حكمهم، واستبدوا بالسلطان استبداداً كبيراً، وطغوا في مظالمهم طغياناً فظيعاً، مما جعل الثورات الدموية تتابع ضد النظام العباسي وهي تستمد من لهب كربلاء جذوتها، ومن ثورة الإمام الحسين قبسها، ناعية الظلم والإرهاب وسياسة التجويع وإفقار الناس، فكانت ثورة محمد ذي النفس الزكية أحد أحفاد الإمام الحسن عليه السلام وثورة أخيه إبراهيم، وثورة الحسين بن علي «صاحب فخ» وثورة محمد بن إبراهيم بن طباطبا العلوي الحسني على المأمون عام ١٩٩ م وهو يدعو إلى الرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وثورة أبي السرايا الدموية عام ٢٠٠ هـ في ظل ثورة ابن طباطبا واستكمالاً لمسيرتها، مما أورد تفصيلاته الدامية المضنية كل من الطبري في تاريخه، وأبي الفرج في مقاتل الطالبيين، وابن الأثير في الكامل وسواهم.

هذه الثورات بما قدمت من الضحايا لم تخمد نارها من قبل العلويين إلا بوداع القرن الثاني من الهجرة حينما لم يحصد الثائرون إلا الدم والقتل والمزيد من المكاره، وضرب الأعناق صبراً، وسبي النساء، وقتل لأطفال بمحافل جماعية.

والذي يخلص لنا بعد هذا العرض أن ثورة الطف بمبادئها قد ألهبت المشاعر، وعصفت بأحلام الحاكمين، فظل الإنسان المسلم

يناضل ويناهض ويكافح حكومات الجور والطغيان والاستبداد ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

كان هذا هو المناخ النضالي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عملياً، والذي تمخضت عنه ثورة الحسين، فلا يقرّ المسلم على ضيم واضطهاد.



الفصل السادس

ظواهر الثورة الاجتماعية

١ ـ ظاهرة الحسرة والندم

٢ ـ الشعر العربي في رثاء الحسين

٣ ـ ظاهرة زيارة الإمام الحسين



ظاهرة الحسرة والندم

الظواهر الاجتماعية بارزة الأثر في ثورة الإمام الحسين عليه السلام وهي متعددة بتعدد المجتمعات الإنسانية، وهي مرافقة لحياة الناس رغم مصرع الحسين وأهل بيته وأصحابه.

ويبرز دور هذه الظواهر في تفاعلها النفسي مع مسيرة الثورة، ويتجلى أثرها في كونها عفوية الإيماء، لا قسر معها ولا إكراه، فهي تنبع من صميم النفس الإنسانية متجاوبة الاصداء في حياته الاجتماعية، بعيدة عن العسر والتكلف فيما سنلمحه.

وحديثنا الآن عن ظاهرة الحسرة والندم، وقد بدأت بعد مصرع الحسين مباشرة، وتتمثل في حياة أولئك الذين أتيحت لهم نصرة الحسين فأحجموا منها، وسنحت لهم فرصة الالتحاق به فأعرضوا عنها، فعاد ذلك الرفض الطائش غصةً بين اللهاة والحلاقيم، آخذة بكظمهم، ضاغطة على مشاعرهم، تتحوبهم وتتأثمهم، فهم في عناء مستمر، وكابوس لا يرفع، إذ رأوا نهج الحسين السافر في إرادة التغيير الإنساني، فلم يقتفوا أثره بعد أن سمعوا بأنباء مذبحة كربلاء، فأنبّتهم الضمائر كونهم سالمين وادعين، وكون أبناء رسول الله مجزرين في سبيلهم كالأضاحي.

وقد تتعدى هذا البعد، فتتحول إلى لوعة لاذعة في قلب كل مؤمن يرى الحسين أضحية في مجزرة الكرامة، ولم يتسنَ له مشاركته في

مصابه، ولم يكن من المستشهدين بين يديه، فكم من زفرة اخترقت الأعماق بلهيب من أنفاسها، وكم من دمعة أنصبت من العيون تبل الأسارير بحرارتها، وكم من متطلع لنصرة الحسين وهو عند مصرعه في عالم الذرّ من الأرحام وأصلاب الرجال.

لا أريد الحديث عن هذه العواطف الصادقة وهي تتلهف على إغاثة أبي عبد الله الحسين عند استصراخه، فهي عواطف ولاء خالصة، ومشاعر حزن جياشة لا يمتلك الإنسان صدها مدى العصور والأجيال، وهي من الكثرة بحيث تفوق حدّ الاحصاء، ولسان حالها الناطق «يا ليتنا كنا معكم سيدي فنفوز فوزاً عظيماً». وإنما أريد أن أتحدث عن ظاهرة اجتماعية بدأت عند مصرع الحسين، من قبل أولئك الذين شهدوا الواقعة، وضنوا بأنفسهم عن المشاركة الفاعلة فيها، ولا يمكننا استيعاب هذه الظاهرة بجميع رجالها وأبعادها، وبالإمكان الإشارة إلى تعلّقها بصميم الضمير الإنساني متمثلة بنموذج صارخ من نماذجها في حسرته ولوعته ومرارته وهو عبيد الله بن الحر الجعفي.

ولقد رأيت فيما مضى، صدق عاطفة التوابيّن، وندم زعمائهم، وحسرة أشرافهم، وقد عبروا عن ذلك في أكثر من موضع قولي ومن موقع حربي، حتى قتلوا تكفيراً عن الذنب، وتعبيراً عن الندم، وهنا نجد نوعاً آخر من التعبير والتفكير.

فقد كان هذا الشاعر الفارس المتمرد معتزلاً الحياة السياسية بعد اكتوائه بنارها في مسيرة حياته، وضرب له خباء في الصحارى عند قصر بني مقاتل[1].

---

(١) ظ: الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٢٤٦.

وغاص في أثباج البيد والمفاوز مخافة أن يدعوه الحسين إلى نصرته، وبتعبير أصح أنه قد فرّ بنفسه عن المعترك السياسي خشية أن يلجأه بنو أمية لقتال الحسين، وخشية أن يدعوه الحسين إلى قتال بني أمية، وقد سولت له بدويته هذا الاتجاه الغريب، فأراد أن يكون حيادياً لا مع هؤلاء ولا مع أولئك، أو متذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وتشاء الأقدار أن يدركه الإمام الحسين في خبائه أو مخبأه، وأن يدعوه إلى نصرته، فيجد عنده تلكؤاً فاضحاً، وعذراً باهتاً، فيقوم عنه الحسين كارهاً لاعتذاره، رافضاً لما يتعلل به في حديث لسنا بصدده هنا[1].

حتى إذا استشهد الحسين عليه السلام في كربلاء، وتناهت أنباء المجزرة إلى عبيد الله، فاضت نفسه بالحسرات، واصطدم بالندم القاتل يلفّه من قرنه إلى قدمه، وإذا به يغصّ بريقه، ويتجرع مرارة تلهفه، حتى ليكاد ينفلق قلبه غيضاً وكمداً، فعبّر عن أزمته النفسية بشعره قائلاً:

فيا لكِ حَسْرَةً ما دُمْتُ حَيّاً	تَردَدُ بين حَلْقي والتراقي
حُسَينٌ حِين يطلبُ بَذْلَ نصري	عَلى أهلِ العداوةِ والشِقاقِ
فما أنسى غداة يقول حزناً	أتتركني؟ وتزمعُ لانطلاقِ
فلو فَلَق التلهّفُ قَلْبَ حَيٍّ	لهَمَّ القلبُ مني بانفلاقِ[2]

إن هذا الوتر الحزين في هذه الأبيات يصدر عن شعور حافل بالذنب، ويعبّر عن تقصير لا يمكن تلافيه إلا بحسرات متلاحقة يتبع بعضها بعضاً، وها هي أطياف حسرته تطبق على مراحل حياته حتى يهم

(١) ظ: تفصيل ذلك: المفيد/ الإرشاد/ ٢٠٩.
(٢) الدينوري/ الأخبار الطوال/ ٢٧٢.

قلبه بالانفلاق!! وهو في هذا الغليان النفسي: «صادقٌ في عواطفه، لا يعرف النفاق ولا المراءاة، وإنما ينطلق في التعبير عنها كما ينطلق في غزواته، فإذا النغم صدى صادق صريح لمشاعره ونفسيته. إنه لا ينكر أنه تخلّى عن الحسين حين طلب إليه أن يبذل له نصره، ولا يخشى أن يصف أعداءه من الأمويين بأنهم أهل العداوة والشقاق، ولكنه يتحسر على ذلك حسرة يصرّح في صدق بأنها لن تفارقه مدى حياته، وهي حسرة يوشك أن تفلق قلبه القوي... أرأيت إلى الفارس المغوار كيف يبكي؟؟ إن دموعه التي تسيل في هذه الأبيات لتؤثر في أعماق نفوسنا تأثيراً قوياً، لأنها دموع الرجل الذي لم يعرف البكاء في حياته»[1].

ولم يقف عبيد الله بن الحر الجعفي الكوفي عند هذا المدى في آهاته وحسراته بل تجاوزه إلى النقمة الصريحة على الحكم الأموي وولائه، فقد اشتدت الأزمة النفسية لديه، واستولى الندم على مشاعره، وضاق ذرعاً بابن زياد وأعوانه، فترك أطراف الكوفة، واتجه إلى كربلاء، ووقف عند مصارع الحسين والشهداء، يندبهم ويستغفر لهم[2].

ويمضي في جماعة من صعاليك الكوفة إلى المدائن، مبتعداً عن ابن زياد ورافضاً له، وهناك يواصل الندم والحسرة، كما يواصل السخط على الأمويين، ولم يتحرج بأن يصفهم وولاتهم بالغَدَرَةِ الظَلَمَةِ، ولم يستبعد على نفسه محاربتهم بما يستطيع، فيقول[3]:

يقـولُ أميـرٌ غـادرٌ وابـن غـادرٍ ... ألاَ كنتَ قاتلتَ الحسينَ ابنَ فاطِمهْ

---

(١) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٣٧٧.

(٢) ظ: البلاذري / أنساب الأشراف ٥/ ٩٣.

(٣) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٩٣.

ونفسي على خذلانِهِ واعتزالِهِ | وبيعةِ هذا الناكثِ العهد لائمِهْ
فيا ندمي أن لا أكونَ نصرتُهُ | ألاَ كُل نفسٍ لا تسددُ نادِمَهْ
وإنّي لأنّي لم أكنْ مِنْ حماتِهِ | لذو حسرةٍ ما إنْ تفارق لازِمهْ
سقى الله أرواحَ الذين تبادروا | إلى نصرهِ سَحّاً من الغيثِ دائمِهْ
وقفتُ على أجداثِهمْ ومحالِهِمْ | فكادَ الحشا يَنفَضُ، والعينُ ساجِمهْ
لَعَمري لَقَدْ كانوا مصاليتَ في الوغى | سِراعَاً إلى الهيجا، حُماةً ضراغِمهْ
فإنْ يُقتلوا.. في كلِ نَفْسٍ بقيةً | على الأرضِ قد أضحت لذلك واجمهْ
وما إنْ رأى الراؤون أفضلَ منهمُ | لدى الموتِ ساداتٌ وزهرٌ قماقمهْ
يقتّلهُمُ ظلماً، ويرجو ودادَنا | فَدعْ خِطَةً ليستْ لنا بملائِمهْ
لَعَمري لقد راغمتمونا بقتلِهِمْ | فكَمْ ناقمٍ مِنّا عَلَيكُمْ وناقِمهْ
أَهِمُّ مراراً أن أسير بجحفلٍ | إلَى فئةٍ زاغت عن الحقِّ ظالمهْ
فكُفّوا وإلاّ زرتكمْ بكتائبٍ | أشدَّ عَلَيكُمْ من زحوفِ الديالمهْ

هذه القصيدة بشجاعتها وأصالتها وشاعريتها تصور إلى جانب الخيبة النفسية التي مني بها الشاعر، مدى الألم والأسى الذي أصاب المسلمين بقتل الحسين وآله وأصحابه، وفيها ضروب من النقمة على الحكم، وفيها تعبير عن الوالي والخليفة بأنه غادر وابن غادر، وأنه يتودد للناس في حين أرغم الناس على قتل الحسين، فعادوا بين ناقم وناقمة، وبودّه لو سار بجحفل مقاتل يناهض به الحكم الأموي، لأنه ضمن فئة ظالمة زاغت عن الحق، ويطلب إليها الكفّ عن مطاردته وإلا ذادها بكتائب أشد عليهم من زحوف الديلم. وهي صورة أحسبها تعبر عن هدف مزدوج يحمل روح الندم، وقد يلوّح إلى إمكانية الثأر(١).

ولا نريد أن نستقرىء كل ملامح الخيبة والإحباط عند ابن الحرّ

---

(١) ظ: المؤلف/ الصورة الأدبية في الشعر الأموي/ ٣٢٥.

في شعره نتيجة خذلانه للحسين، ولكننا نريد التأكيد أن هذا الشعور ربما ظل ملازماً له طيلة حياته، وانطبع أثره على مواقفه الأخرى، حتى أن البلاذري يذكر أن مصعب بن الزبير طلب إليه أن يقاتل معه عبد الملك بن مروان وأهل الشام، ولكنه رفض ذلك، وفي نفسه تجول ذكرى الحسين، فيقول معبراً عن ذلك بقوله[١]:

أيرجو ابنُ الزبير اليومَ نصري لعاقبةٍ، ولم أنصرْ حسينا

«وحقاً لقد ندم ابن الحر على خذلانه الحسين ندماً صادقاً لا نفاق فيه، وحسرته على تخليّه عنه حسرة صادرة من أعماق نفسه بل مستقرة فيها.

وأغلب الظن أننا نستطيع أن نقول بعد هذا كله أن عبيد الله بن الحر هو الذي وضع لمن جاء بعده من الشعراء التقاليد الفنية لرثاء الحسين، وأنه هو الذي مهّد لهم الطريق، وذلل مناكبه، حتى أصبح رثاء الحسين موضوعاً أساسياً من موضوعات الأدب الشيعي»[٢].

وهذا ما سنلحظه في الظاهرة الثانية التي تبحث معالم الشعر العربي في ثورة الحسين ورثائه.

---

(١) ظ: البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٩٢.

(٢) يوسف خليف / حياة الشعر في الكوفة/ ٣٧٩.

الشعر العربي في رثاء الحسين

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالبحث الموضوعي، وهي ذات أثر اجتماعي سيرته ثورة الإمام الحسين طيلة عصور الأدب العربي.

هذه الظاهرة تتمثل بهذا السيل الجارف من الشعر الذي رثي به الحسين وآله وأصحابه، منذ استشهادهم على ثرى الطف حتى اليوم.

حتى لقد اعتبر الدكتور أحمد أمين ثورة الحسين مادة خصبة استطاع أدباء الشيعة المتأخرون إن يستغلوها في فنّهم استغلالاً واسعاً أمدّ الأدب الشيعي بثروة ضخمة من القصائد الطويلة[1].

لقد أثر العنف الانتقامي، ومظاهر الحقد والتشفي بأهل البيت عليهم السلام، في مجزرة الطف الرهيبة، أثر ذلك بعواطف المجتمع الإسلامي تأثيراً عميقاً، وأثرت ثورة الحسين في عطائها الفكري أيضاً في ذلك المجتمع، وظلت معالم الأسى والثورة في تلازم موحّد يخترق الضمير الإنساني فيجمع فيه إلى جنب الحرقة المتأججة الأمل الثوري في الخلاص من بؤر الفساد والاضطهاد. هذا المنظور المزدّوج في ثرائه العاطفي والفكري استصرخ فصائل المجتمعات، وفي طليعة أولئك الشعراء، فهم ذوو إحساس رقيق تنطبع آثاره في نفوسهم سريعاً، فيظهر لسان حاله في قصائدهم ومقطعاتهم، فتفيض قرائحهم عاطفياً وعقائدياً وسياسياً بمعين لا ينصب من عيون الشعر العربي الرائع، ترثي به

---

(١) أحمد أمين/ ضحى الإسلام ٣/ ٣٠٤.

الحسين وآله وأصحابه حيناً، وتنادي بمبادىء الثورة حيناً آخر، وتدعو إلى الثأر من الأنظمة المسؤولة عن قتل الحسين وآله في كل زمان ومكان، لأن قضية الحسين إنسانية لا تتأطر بأي من الأُطر الإقليمية والمحلية والزمنية، فهي سائرة مع الإنسان في حياته وأفكاره وتطلعاته، فمنذ أن سالت دماؤه الزاكية على ثرى الطف، تجد الشعر العربي هادراً في رثائه وتأبينه والتفجع له، بحرارة صادقة تعبر عن تجربة شعرية فنية في غمار ملحمة كربلاء.

لقد كان مجرد ذكر الحسين عليه السلام بعد مجزرة الطف، يعدّ بملحظ سياسي تحدّياً سافراً لنظام الحكم، ودعوة للإطاحة به، فهو يرعب الطغاة، ويدخل الذعر بين صفوف أوليائه، بل هو يقيمهم ويقعدهم منذ مصرعه حتى العصر الحاضر.

فمن البديهي إذن أن نرى برثاء الحسين عليه السلام موقفاً جريئاً حاسماً، يعبر عن صرامة الشاعر وشجاعته، ويصور عدم مبالاته بالأرزاء المترتبة على ذلك، ومنها قطع الأعناق، ومنع العطاء، وإباحة الدماء، وتضييع الأهل والعشيرة لهذا كان من رثاه عند مصرعه قلة نادرة من الشعراء، وقد يكون هناك من الشعر ما ظل مكتمّاً لا يذاع، وهذا النوع هو الأصل في القصائد «المكتمّات» في الشعر.

ويحضرني ما قال: «التيمي تيم مرّة»[1]، يرثي الحسين وأهله، وكان منقطعاً لبني هاشم:

مَـرَرتُ عَلـى أبيـاتِ آلِ مُحَمَّـدٍ ... فَلَـمْ أرَهـا أمْثـالها يَـومَ حُلّـتِ
فـلا يُبعِـدِ اللهُ الـدِيـارَ وأهْلَهـا ... وإنْ أصبحتْ مِنْ أهْلِها قد تخلّتِ

---

(١) واسمه سليمان بن قتة عند المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٦٤.

وإنَّ قتيل الطف من آل هاشمٍ أذَلَّ رقابَ المسلمينَ فَذَلّتِ
وكانوا رَجَاءً ثم أضحوا رزيةً لَقَدْ عَظُمتْ تِلكَ الرزيا وَجَلّتِ
وعِندَ «غنيٍّ» قطرةٌ من دِمائِنا سنجزيهم يوماً بها حيث حَلَّتِ
إذا افتقرت قيسٌ جَبَرنا فَقِيرَها وتقتلنا قيسٌ إذا النَعْلُ زَلّتِ[1]

ففي هذه الأبيات تفجع وتوجع لخلو الديار من أهل البيت، ورثاء للحسين الذي أذل قتله رقاب المسلمين، والدعوة لأخذ الثأر في تهديد ووعيد يعرض صفحة من حياة العصبية القبلية.

ويغلب على الظن أن هذا الشعر، هو أول شعر رثي به الإمام الحسين، فقد جاء في ترجمة الشاعر «سليمان بن قتة التابعي الخزاعي الشيعي، قيل إنه أول من رثى الحسين عليه السلام مرّ بكربلاء، فنظر إلى مصارع شهداء الطف، فبكى حتى كاد أن يموت» ثم قال - وأورد الأبيات المتقدمة[2].

إلاّ أن لعقبة بن عمرو السهمي قصيدة حكى سبط ابن الجوزي أنه فيها أول من رثى الحسين عليه السلام وروى ذلك الشيخ المفيد (ت: ٤١٣ هـ) في المجالس بسنده عن إبراهيم بن داحة، قال: أول شعر رثي به الحسين بن علي عليه السلام قولُ عقبة بن عمرو السهمي، من بني سهم بن عوف بن غالب؛ قال[3]:

إذا العَينُ قَرّتْ في الحياةِ وأنتمُ تخافُونَ في الدنيا.. فأظلَمَ نُورُها
مَرَرتُ على قبر الحسين بِكربلا فَفَاضَ عَلَيهِ من دُمُوعي غَزيرُها
وما زِلتُ أبكيهِ، وأَرثي لشَجوهِ ويُسعِدُ عَيني دَمعُها وَزَفِيرُها

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣/ ٣٢.
(٢) القمي/ الكنى والألقاب ١/ ٣٧٧.
(٣) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة/ ٤/ أول/ ٣٧١.

وَنَاديتُ مِنْ حَولِ الحسين عَصَائِباً أطافتْ بهِ من جانبيه قبورُها
سلامٌ على أهل القبورِ بكربلا وَقَـلَّ لهـا مِنـيَ سَـلامٌ يَـزُورُهـا
سَلامٌ بآصال العَشِيِّ وبالضحى تـؤديـهِ نكبـاءُ الـريـاحِ ومُـورُهـا
ولا بَـرِحَ الـزوّارُ زوّار قَبـرِهِ يَفُـوحُ عَلَيهِمْ مِسكُهَـا وعَبيـرُهـا

بيد أن السيد الأمين رحمه الله يعقّب على هذه الأبيات بالقول.

«وينبغي أن يكون أول من رثاه سليمان بن قتة العدوي التيمي، وكان منقطعاً إلى بني هاشم، فإنه مرّ بكربلاء، بعد قتل الحسين بثلاث، فنظر إلى مصارعهم، واتكأ على فرس عربية له، وأنشأ تلكم الأبيات السالفة. . .»[1].

حتى إذا كانت ثورة التوابين، وجدنا شاعرها عبد الله بن عوف الأحمر الأزدي يرثي الحسين بقصيدة طويلة يحضّ بها الشيعة على الطلب بدمه، وكانت هذه المرثية تخبأ أيام بني أمية، وإنما خرجت بعد ذلك[2].

ويبدأ ابن الأحمر مرثيته بروح ثورية لا عهد بها للشعر العربي إلا لماماً، فهو يودع الصبا، ويلبّي الداعي، ويجيب المنادي في الدعوة إلى الهدى، ويصحو من السبات أو الغفلة على صدى هذا النداء، فيقول[3]:

صَحَوتُ وودعتُ الصِبا والغوانيا وَقُلتُ لأصْحابي أجيبُوا المنادِيا
وقولوا لَهُ إذْ قامَ يَدعُو إلى الهُدى وَقَبْلَ الدُعَا: لَبيّك لَبيّكَ دَاعيا

ويستدرج الشاعر في هذه القصيدة الرائعة حقاً، ذكر صفيّن،

---

(١) الأمين العاملي/ أعيان الشيعة/ ٤ أول/ ٣٧١.
(٢) المرزباني/ معجم الشعراء/ ١٢٦.
(٣) المسعودي/ مروج الذهب٣/ ٩٣.

ومقارعة معاوية، للدلالة على الحقد القديم المتأصل، وللإشارة إلى الصراع التاريخي بين الأمويين والهاشميين، ثم يستدر الدموع ليل نهار على الحسين، وينعي على من أشخصه النكوص، فلم يرَ منهم وفياً ولا زاجراً ولا ناهياً، ويتمنى شهوده معركته ليطاعن الشانئين، ويحارب الأعادي، ويدافع ما وسعه الدفاع، مجاهداً دونه، ضرباً بالسيف، وطعناً بالرمح[1].

يقول ابن الأحمر فيما نحن بصدده[2]:

وَنَحنُ سَمَونا لابْنِ هِندِ بِجَحفلٍ ... كرجلِ دَباً يُزجي إِلَيهِ الدَواهِيا

فَلّما التقينَا بَيْن الضَربُ أيْنـاً ... بِصِفّيـنَ كـانَ الأضـرعَ المتـوانيـا

لِيَبـك «حُسيناً» كُلّما ذَرّ شارقٌ ... وَعِندَ عُسُوفِ الليل من كان باكيا

لَحَا اللهُ قوماً أشخصوهم وعَردّوا ... فَلَمَ يَر يَومَ البأس مِنهُمْ مُحامِيا

وَلاَ مُوفِياً بالعهد إذْ حَمِيَ الوَغى ... ولا زَاجـراً عَنـهُ المُضِليـنَ نـاهيـا

فأَضحَى «حُسينٌ» للرماح دَريئةً ... وَغُودرَ مسلُوباً لَدَى الطفِّ ثاويا

فيا ليتَني إذْ كان كُنتُ شَهدتُهُ ... فضاربتُ عَنْهُ الشائنين الأعاديا

ودَافعَتُ عَنْهُ ما استطعتُ مجاهداً ... وأعمَلْـتُ سَيفـي فيهِـمُ وسَنـانيـا

سَقى اللهُ قبراً ضَمّنَ المجدَ والتقى ... بغـربيّـةِ الطـفِ الغَمَـامَ الغـواديـا

فيا أمةً تاهتْ وضَلّتْ سَفَاهَةً ... أتِيبُوا فأرْضُوا الواحدَ المتعالِيا

يقول أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله:

«هذه القصيدة تعد بحقٍّ صورة صادقة لثورة التوابين، أو ـ بتعبير أدقّ ـ لمبادىء هذه الثورة، استطاع صاحبها أن يعبّر فيها عن هذه

---

(١) ظ: المؤلف/ الصورة الأدبية في الشعر الأموي/ ٢٣٨..

(٢) المرزباني/ معجم الشعراء/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

المبادىء تعبيراً قوياً صادقاً، لأنه إنما كان يعبّر عن نفسية صادقةٍ يحسها ويشعر بها ملء نفسه»[1].

حتى إذا حفل الميدان الأدبي بالكميت بن زيد الأسدي الكوفي (ت: ١٢٦ هـ) رأينا استشهاد الحسين عليه السلام يأخذ نصيبه الأوفى من شعره، ويخضع مقتله لمنهجه الكلامي في الاحتجاج والجدل العقلي شأنه في ذلك شأن احتجاجه في الوصية والولاية والميراث، وما يشترط في الإمام من كمالات نفسية وخلقية وقيادية، ويربطها بما ربط به قضية الخلافة من ذي قبل فيقول[2]:

كأنَّ «حسيناً» والبهاليلُ حَولَهُ ... لأسيافِهم ما يَختَلي المُتبتّلُ
يَخضِنَ بِهِ من آلِ أحمد في الوغى ... دَماً ظَلَّ مِنهمْ كالبهيم المُحَجّلُ
يُصيبُ به الرامونَ عن قوس غيرهمْ ... فيا آخراً أسدى له الغَيَّ أولُ
تهافتُ ذُبّانُ المطامعِ حولَهُ ... فريقانِ شتى: ذو وسلاحٍ وأعزَلُ
فَلَمْ أرَ مخذولاً أجلَّ مصيبةً ... وأوَجَبَ منه نُصرَةً حِين يُخذَلُ
وَلَمْ أرَ مَوتورين أهْلَ بَصيرةٍ ... وَحَقَّ لهم؛ أيدٍ صحاحٌ وأرجُلُ
كشيعتِهِ والحربُ قد ثغيت بِهِمْ ... أَمَامَهُمْ قِدرٌ تجيشُ ومِرجَلُ

وإذا كان مناخ الشعر في العصر الأموي بهذا المستوى من الشموخ والثورة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، فأجدر به أن يتفرغ تفرغاً تاماً لذكر الحسين ورثائه في العصور التي تلت العصر الأموي.

لقد رأينا حقاً أن شعراء العربية في عصور الأدب العربي المختلفة تصور مصرع الحسين تصويراً متشعباً في مختلف الشؤون العاطفية والسياسية والثورية والعقائدية، لأنه يستوعبها أجمع، وظل الصدى

---

(١) يوسف خليف/ حياة الشعر في الكوفة/ ٣٨٣.
(٢) الكميت/ الهاشميات/ ٧٠ ـ ٧١.

الحزين يرفد هذا الشعر قوة ومتانة وشدةَ أسر ولا أعرف عصراً خلا عن هذا النغم النابض.

ولست الآن بصدد احصاء جوانب هذا العطاء الضخم، ولكن لي أن أشير إلى ذلك المأثور العظيم الذي طبع تأثيره الاجتماعي الأعظم على مسيرة الأدب العربي، فلستُ أعلم شاعراً عربياً حتى اليوم لم يعرض في شعره ـ ولو جزئياً ـ إلى الحسين وثورته إلا نادراً.

وقد بدأ الهيكل الفني للقصيدة الحسينية يأخذ طابعه التكاملي في عصر سيدنا ومولانا الإمام جعفر بن محمد الصادق (٨٣ ـ ١٤٨ هـ) حيث كان يقوم في توجيه ذلك جماعياً، بل ويدعو إليه دلالياً وإيحائياً: «ما من أحد قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى إلا أوجب الله له الجنة، وغفر له»[١].

وكان قوله هذا لجعفر بن عفّان أحد شعراء عصره، عندما دخل عليه، فقال له الإمام الصادق عليه السلام: «بلغني أنك تقول الشعر في الحسين عليه السلام، وتجيد. فقال: نعم جعلت فداك، فاستنشده، فأنشده:

لِيَبكِ عَلى الإسلام مَنَ كانَ باكِياً	فَقَد ضُيعَتْ أحكامُهُ وأُسْتُحلَّتِ
غَـدَاةَ «حُسينٌ» للرِماحِ دَريئةٌ	وَقَدْ نَهلَت منه السيوفُ وَعَلَّتِ
وَغُودِرَ في الصحراءِ، لَحْماً مُبَدَداً	عَلَيهِ عُناقُ الطير باتتْ وظلّتِ
فما نَصَرَتْهُ أمةُ السوءِ إذْ دَعَا	لقد طاشت الأحلامُ فيها وضَلّتِ
أَلاَ بلْ مَحَوا أنوارَهم بأكفّهمُ	فلا سلِمتْ تلكَ الأكفُّ وَشلّتِ
وناداهم جهداً بحَقِّ مُحَمدٍ	فإنّ ابنه مِنْ نفسهِ حيثُ حَلّتِ

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة/ ١٠/ ٤٦٤.

فما حَفَظوا قُرَبَ النبيِّ ولا رَعَوا وَزَلّتْ بهِمْ أقدامُهُمْ واستزلّتِ
أذاقتـه حَـرَّ القتـل أمـةُ جَـدِّهِ هَفَتْ نَعْلَها في كربلاءَ وَزَلّتِ
فـلا قَـدّسَ الـرحمـنُ أُمـةَ جَدِّهِ وإنْ هي صامتْ للإلهِ وَصلّتِ
كَمَا فَجَعَتْ بِنْتَ الرسولِ بِنسلِها وَكانوا كُماةَ الحَربِ حين استقلتِ

فبكى الإمام الصادق عليه السلام وبَكى من حوله، حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته، وقال: والله لقد شهدت ملائكة الله المقربون ههنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا أكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك في ساعتك الجنة بأسرها، وغفر الله لك، ثم قال: ألا أزيدك؟ قال: نعم، فقال الصادق «ما من أحدٍ قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى به، إلا أوجب الله له الجنة، وغفر له»[1].

وكان هذا القول الكريم مدعاة لأن ينبري شعراء أهل البيت لرثاء الحسين، واستنفاراً عريضاً لعواطفهم في تأكيد ذلك، وفيه ما فيه من الوعد الجميل بالنعيم.

وهنا ينبغي أن نذكر أن الشاعر الجزل محمد بن محمد بن صالح الهاشمي العباسي البغدادي المعروف «بابن الهبّارية» قد اجتاز بكربلاء، فجلس يبكي على الحسين وأهله عليهم السلام، وقال على البديهة مرتجلاً:

أحسينُ والمبعوثِ جدِّكَ بالهدى قَسَماً يكونُ الحَقُّ عنه مُسائِلي
لو كنتُ شاهدَ كربلا لبذلْتُ في تنفيس كربكَ جُهدَ بَذلِ الباذلِ
وَسقيتُ حَدَّ السيفِ من أعدائِكُمْ عَـلاً، وَحَـدَّ السمهـريّ الـذابِـلِ
لكننـي أُخـرّتُ عَنْـكَ لشقـوتـي فبـلابلـي بيـن الغـري وبـابـلَ

---

(١) الأمين العاملي/ الدر النضيد/ ٥٨ ـ ٥٩.

هَبْني حُرِمتُ النَّصْرَ من أعدائِكُمْ فـأقـلَّ مِـنْ حُـزنٍ ودَمـع سـائـلِ

ثم نام في مكانه فرأى رسول الله ﷺ في المنام، فقال له: جزاكَ الله عنَي خيراً، ابشر فإنّ الله قد كتبَكَ ممن جاهد بين يدي الحسين[1].

ولا شك أن شعراً كثيراً لم يصل إلينا قد قيل في العصر الأموي، وقد اختفى حذر بني أمية، إلا أن شعراً رائعاً وصل إلينا بحدود في أوائل العصر العباسي، ولعل في طليعة ذلك شعر منصور النمري من النمر بن قاسط، وكان في زمن هارون الرشيد، وله عدة قصائد في الحسين عليه السلام يرثيه ويتفجع لمصيبته، ومن غررها قوله من قصيدة طويلة[2]:

ألـم يبلغـكَ والأبنـاءُ تنمـى مصـالُ الـدهـرِ فـي وُلْـدِ البتـولِ

بتـربـة كـربـلاءَ لَهُـمْ ديـارٌ نيـام الأهـلِ، دارسـة الطلـولِ

تحيـاتٌ ومغفـرةٌ وروحٌ علـى تلـك المحلّـةِ والحُلـولِ

ولا زالـت معـادنُ كـلِّ غيـثٍ مـن الـوَسِمـيِّ مـرتجسٍ هطُـولِ

بـرئنـا يـا رسـول الله مِمـنْ أصـابـك بـالاذاءة والـذُحـولِ

ألا يـا ليتنـي وُصلـتْ يمينـي هنـاك بقـائـم السيـفِ الصقيـلِ

فجدتُ على السيوفِ بحرِّ وجهي ولـم أخـذلْ بنَيـك مـع الخذولَ

ولا شك أن السيد الحميري إسماعيل بن محمد، كان من أعلام الشعراء السابقين إلى رثاء الحسين عليه السلام في أوائل العصر العباسي،

---

(١) عباس القمي/ الكنى والألقاب/ ١/ ٤٣٩ وانظر مصدره.

(٢) الأمين العاملي/ الدر النضيد/ ٢٥٩ وما بعدها.

ويروى له شعر كثير في ذلك، ومن حزين شعره ما جاء بإحدى قصائده الباكية[1]:

أمْرُر عَلَى جدثِ الحسينِ وَقُلْ لأعظمِهِ الزكيّهْ
يا أعظماً لا زلتِ مِنْ وطفاءَ ساكبة رويّهْ
ما لذّ عيشٌ بعدَ رضّكِ بالجيادِ الأعوجيّهْ
قَبرٌ تضمن طيباً آباؤه خيّرُ البَريّهْ
آباؤه أهل الرياسةِ والخلافةِ والوصيّهْ
والخيرِ، والشيم المهذ بةِ المطيبةِ الرضيهْ
فإذا مررتَ بقبرهِ فأطلْ بِهِ وقفَ المطيّهْ
وإبكِ المطهّرَ للمطهّرِ والمطهّرةِ النقيّهْ
كبكاء مُعولَةٍ غَدَتْ يوماً بواحدِها المنيهْ
جعلوا ابن بِنَتِ نبيّهم غرضاً كما ترمى الدريّهْ
وَهُمُ ألوفٌ وَهوَ في سَبعين نفساً هاشميّهْ
يا عينُ فأبكي ما حييتِ عَلَى ذوي الذِممِ الوفيّهْ
لا عذرَ في ترك البكاءِ دماً وأنت به حريّهْ

وهنا لا بد من القول أن دعبل بن علي الخزاعي، كان يمثل دور الريادة في الرثاء الفنّي لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام ويستوعب في ذلك الغرض من وجوه عدّة، فهو يبكي ويستبكي، ويندب ويطلب الندبة، ويصوّر فيحسن التصوير، ويتظلم فيجيد عرض الظلامة، بما يمكن أن نعتبره في هذا مؤسساً لأصول الرثاء الحسيني في جوانبه كافة، ولا أدلّ على هذا الزعم من قصيدته التائية الشهيرة، فقد هنّأ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بولاية عهد المأمون عام ٢٠٠ هـ، فعرّج

(١) المرجع نفسه/ ٣٥٢. وأنظر مصادره.

على الحسين، وقال[1]:

أفاطِمُ لو خِلتِ الحسين مجدلاً ... وقد مات عَطشاناً بشطِّ فراتِ
إذن لَلَطمْتِ الخدَّ فاطِمُ عِندَهُ ... وأجريتِ دَمعَ العينِ في الوجناتِ
أفاطمُ قومي يا ابنة الخير واندبي ... نجومَ سماواتِ بأرضِ فلاةِ
فيا عينُ بكيّهم وجودي بعبرةٍ ... فقد آن للتِسكاب والهملاتِ
سأبكيهُمُ ما حجّ لله راكبٌ ... وما ناحَ قمريٌ على الشجراتِ
سأبكيهُمُ ما ذرّ في الأفقِ شارقٌ ... ونادى منادي الخير للصلواتِ
وما طلعت شمسُ وحانَ غروبُها ... وباالليلِ أبكيهم وبالغدواتِ
وإنّي لمولاهم بقولِ عدوّهم ... وإني لمحزونٌ بطولِ حياتي
أرى فيئَهم في غيرِهَمْ مُتقسماً ... وأيديَهُمْ مِنْ فيئِهمْ صفراتِ
إذا وُتِروا مدّوا إلى واترِيهُمُ ... أكُفّاً عَن الأوتارِ مُنقبضاتِ
ديارُ رسول اللهِ أصبحنَ بَلقعاً ... وآلُ زيادٍ تسكن الحجراتِ
وآلُ زيادٍ في القصور مصونةٌ ... وآل رسولِ اللهِ في الفلواتِ
وآل رسول الله تسبى حريمهم ... وآل زيادٍ آمنوا السرباتِ
لقد خِفتُ في الدنيا وأيام سَعيّها ... وإني لأرجو الأمن عند وفاتي
ولولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ ... لقطعنّ نفسي إثرَهُمْ حسراتي
خروج إمام لا محالة قائم ... يقوم على اسم الله والبركاتِ
يفرّج عنّا كُلّ همٍّ وكربةٍ ... ويجزي على النعماء والنقماتِ

ولقد كان هذا الشعر في عهد الأئمة حينما ينشد يستمع إليه الحاضرون، وقد تضرب ملاءة دون النساء يستمعن ذلك، وربما اشتد البكاء أثر الإنشاد كما في روايات معتبرة، والمهم في هذا كله تطور قضية الحسين في هذا الضوء الذي يمكن أن نعتبره الارهاصات الأولى

(١) الأمين العاملي/ الدر النضيد/ ٢٥٩/ وما بعدها.

الزمنية لتأسيس المنبر الحسيني في بدايات أولية، صبغها الزمن التالي بألوان من التطوير والتجديد، حتى عاد المنبر الحسيني أداة إعلامية لعرض ثورة الحسين عرضاً موضوعياً، ونشر مبادىء الدين الإسلامي نشراً إنسانياً، والأخذ بالقسط الوافي من التوعية والتثقيف والأمر بالمعروف ميدانياً، كما هي الحال عليه في الأقاليم الإسلامية والعربية في هذا العصر.

إن الشعراء الذين وقفوا على مصرع الحسين عند قتله، والشعراء الذين ندبوه وثاروا من أجله، والشعراء الذين وقفوا بين يدي الأئمة عليهم السلام، كان لهم جميعاً فضل السبق في وضع اللبنات الفنية لقصيدة الرثاء الحسيني العاطر.

ورغم معاناة الشعراء من الضغط السياسي في كل عصر، فلم يفتر ذكر الحسين عن ألسنتهم، حتى حفل أشد العصور طغياناً ضد أهل البيت وهو العصر العباسي بفحول الشعراء الذين ندبوا الحسين بصدق وإخلاص أمثال: الشريف الرضي، السيد المرتضى، مهيار الديلمي، الحسين بن الحجاج، أبي فراس الحمداني، أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، كشاجم، سبط ابن التعاويذي، أبي دهبل الجمحي، القاسم بن يوسف الكاتب، بديع الزمان الهمداني، ابن الهبّارية، ابن أبي الحديد، وأضرابهم ممن يطول ذكرهم، ولا ينتهي الحديث عنهم.

ولم يخبُ هذا الألق حتى في الفترة المظلمة وإلى نهاية العصر العثماني، وهي فترة مضيئة فيما أحسب لكثرة ما أبقت للأمة من التراث الفني شعراً وأدباً في النجف الأشرف والحلة الفيحاء بخاصة.

وليس بالإمكان إحصاء أسماء الشعراء الذين تناولوا ثورة الحسين ورثائه في الفترة المظلمة حتى نهاية عهود آل عثمان، لأن ذلك مما

يتعذر حصره وسبره، فقد حفلت المعاجم وكتب التراجم، ومجاميع الأدب بآثار مئات الفحول من الشعراء الذين ترجموا وقائع فاجعة الطف بآلاف القصائد السائرة، وأشير فيما يأتي لأسماء طبقة لامعة من هؤلاء، ممن نظم عدة قصائد، وأبقى جمله روائع في الحسين على سبيل النموذج والمثال:

علي بن عبد العزيز الخليعي، علي بن الحسين الشفهيني، صالح بن العرندس الحلي، عبد الحسين الأعسم، محمد علي الأعسم، حسن الدمستاني، محمد مهدي بحر العلوم، إبراهيم الطباطبائي بحر العلوم، موسى الطالقاني، مهدي داود الحلي، صالح الكواز، حمادي آل نوح كاظم الأزري، محمد رضا الأزري، أحمد النحوي، محمد رضا النحوي، هاشم الكعبي، عبد الحسين شكر، حبيب الكاظمي، عباس الملا علي، حبيب شعبان، صالح التميمي، الحسن بن راشد، صالح القزويني، جعفر القزويني، حسن قفطان النجفي، حسن القيّم، يعقوب بن جعفر النجفي، جعفر الحلي، سالم الطريحي، جعفر الخطي، عبد الحسين صادق، إبراهيم يحيى العاملي، عبد الباقي العمري، محسن الخضري، نصر الله الحائري.

وكان خاتمة هؤلاء ناعية الطف السيد حيدر الحلي الذي رثى الحسين بعشرات القصائد البليغة الخالدة التي ما زالت تتردد أبياتها في كل نادٍ وكل محفل حسيني، لا تبلى جدتها، ولا تخمد جذوتها، ولا تجارى جودتها، فهي في القمة من الشعر الرثائي الحزين، وهي في ذروة مارثي به الحسين على الاطلاق.

حتى إذا أطلّ القرن العشرين الميلادي رأينا اطاراً جديداً متميزاً لرثاء الحسين في مئات القصائد العامرة عند كل من:

أحمد شوقي، محمد رضا الشبيبي، عبد الحسين الحلي، محمد مهدي الجواهري، عبد الحميد السماوي، عبد الرزاق محيي الدين، محمد علي اليعقوبي، كاظم آل نوح، محمد صالح بحر العلوم، محمد هاشم عطية المصري، عادل الغضبان المصري، محمد مبروك نافع المصري، علي حسين الأعظمي، محمد مجذوب السوري، محمود الحبوبي، عبد المهدي مطر، علي الصغير، عبد المنعم الفرطوسي، عبد الحسن زلزلة، مصطفى جمال الدين، أحمد الوائلي، محمد حسين الصغير، طالب الحيدري، محمد السيد علي نقي الحيدري، هادي محيي الخفاجي، راضي مهدي السعيد، عبد الأمير الورد، محمد صادق القاموسي، محمد حسين المحتصر جواد شبر، محمد جمال الهاشمي، محمد الهجري، محمد حسين آل ياسين، وطائفة كبيرة من الشباب يتعذر عدّهم وحصرهم.

إن هذا الحشد الهائل من الشعراء الذين قد أحفظ نماذج عديدة من شعرهم، وما زال شيء منه في الذاكرة، لا يمثل كل شعراء ثورة الحسين في القرن العشرين، فهناك العديد ممن لا تحضرني أسماؤهم، أو لم أطلع على نتاجهم لا سيما شعراء سوريا ولبنان والخليج.

وهنا نشير أن الخطيب الممتاز السيد جواد شبر الحسيني قد ألف موسوعة ضخمة باسم «شعراء الحسين أو أدب الطف» تشتمل فيما أخبرني به على أكثر من عشرة مجلدات، قدم قسماً منها للطبع، وهذه ثروة فريدة نادرة.

إنني أهيب بطلابنا في الماجستير والدكتوراه أن يتمحضوا لدراسة جملة من الظواهر الرثائية في هذا الشعر الرائع، وفي عصور الأدب العربي، ولا شك أن ستكون حصيلة ذلك عشرات البحوث الموضوعية

الجادة التي تغني المكتبة العربية بتراث ثرّ عميّم فيه من الأصالة والابداع والابتكار.

وبعد هذا فبالإمكان القول بكل اطمئنان: إن هذا الأدب الحزين الثائر، ما كان ليوجد لولا ثورة الحسين، وهو منبع مستفيض من منابع الشعر العربي المعبّر، وهو وإن مثَّل الحزن العميق، إلا أنه ـ أيضاً ـ قد مثّل تفاعل ثورة الحسين مع الأحاسيس، وهو لا يقتصر على عنصر المأساة في مجزرة كربلاء فحسب، بل قد يتجاوزها إلى البعد السياسي والعقائدي والثقافي والاقتصادي بحسب ثقافة الشاعر ومدى استيعابه لمشكلات عصره، وهي بعد تجسد حقيقة تنامي ثورة الحسين على الصعيد الاجتماعي، فعاشت متألقةً نابضة في ضمير أدبائه، وظلت سائرة هادرة على ألسن شعرائه.

ظاهرة زيارة الإمام الحسين

ومن أكثر الظواهر الاجتماعية شيوعاً، وأعمقها رسوخاً في مواكبة الثورة: ظاهرة زيارة الإمام الحسين عليه السلام في مجالات شتى.

والتأكيد عليها يكسبها سيرورة اجتماعية خاصة في استكناه ثورة الطف، وتأمّل مفاهيم تلك التضحيات الفذّة، فهي من خلال هذا التعاهد ماثلة في الفكر، وهي بإزاء هذا الحضور الجماعي شاخصة للعيان، لا تغيب عنه لحظة، ولا تتوارى في الحجاب برهة، تذكّرنا بذلك اليوم العظيم الذي وقفه الإمام العظيم، وتستوقفنا عند ذلك الضراح المقدّس نستلهم الذكرى، ونجدد العزم، فهي توري في النفوس شرارة الثورة، وهي تدفع بالناس لذلك الأفق المديد، فتذكي روح الجهاد لئلا تخبو، وتسرج شعلة النضال كيلا تنطفىء.

والطريف في زيارة الحسين عليه السلام أنها لا تقتصر على وقت، فهو يزار كل يوم، وكل أسبوع، وكل شهر. وقد تقتصر زيارته على زمن معيّن مخصوص، فيه من الفضيلة ما فيه، وله من السبق ما ليس لغيره من الأزمان، حتى لقد تعددت الزيارات المخصوصة للحسين عليه السلام بما ينوف على زيارات بقية الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

والعناية بزيارة الإمام الحسين عليه السلام ذات اعتبار خاص، ولها آداب مرعيّة، ومراسم معيّنة، تعرض لها كتب الأدعية ومراجع المزارات.

ولعل من أبرزها مراعاة: الغسل من ماء الفرات، والخضوع والخشوع، والتكبير والتهليل، والمشي على سكينة ووقار، والقصد بتواضع وروحانية.

والحث على زيارة الحسين عليه السلام أكثر من أن أصوره لك، وأكبر من أن أحيطك به خبراً، والروايات في ذلك تفوق حدّ الحصر، والترغيب فيها لا يضاهيه ملحظ آخر، فزيارته تعادل حجة وعمرة وتعدلهما، وأكثر من هذا بكثير، والله ينظر إلى زوّار الحسين، والزائر مستجاب الدعوة، مغفور الذنب، مخلوف النفقة، مقضي الحاجة، والزيارة تفرّج الهم والحزن، والتوسل عند قبر الحسين يقضي الدين، وينكّل بالأعداء، ويشفي الأمراض، والمبيت عنده ـ في بعض المواسم ـ كمن بات متلطخاً بدماء الشهداء، أو متشحطاً بدمه في سبيل الله، والبذل في زيارة الحسين مستردّ، والنفقة مبارك فيها... الخ.

وفضل زيارة الحسين كبير، والتأكيد عليها متواتر، فقد روى ابن طاووس: ـ

عن عمر بن عبد الله بن طلحة النهدي، عن أبيه، قال: دخلتُ على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال: يا عبد الله بن طلحة: أمَا تأتون قبر أبي الحسين؟ قلت: بلى، جعلتُ فداك، إنّا لنأتينه. قال: تأتونه كل جمعة؟ قلت: لا، قال: فتأتونه في كل شهر، قلت: لا، قال: ما أجفاكم؟ إن زيارته تعدل حجة وعمرة، وزيارة أبيه تعدل حجتين وعمرتين[1].

---

(١) ابن طاووس/ فرحة الغري/ عن: موسوعة النجف الأشرف ٢/ ٩.

وما ذاك إلاّ لأن الحسين قد سار في طريق الشهداء والصديقين، بل هو سيد الشهداء دون ريب. فقد روى المجلسي بسند معتبر عن حسّان بن مهران الجمّال، قال: قال جعفر بن محمد الصادق: يا حسّان أتزور قبور الشهداء قبلكم؟ قلت: أي الشهداء؟ قال: علي والحسين. قلت: إنّا لنزورها فنكثر، قال: أولئك الشهداء المرزوقون، فزوروهم، وافزعوا عندهم بحوائجكم، فلو يكونون منّا كموضعهم منكم لاتخذناهم هجرةً[1].

وهذا الترغيب بزيارة الحسين، والحث عليها، مندوبٌ إليه لأن الحسين عليه السلام قد ضحى تضحية عظمى في سبيل الدين وإعلاء كلمته، والحفاظ على حوزته، فزيارته شعار ديني يوحي بالهدف نفسه عند من يزوره، وهو قائم على أساس التحدي الفعلي للسلطات الجائرة التي ترى في الحسين رمزاً يهزّ عروشها، ومناراً يلجأ إليه المسلمون في مقارعة الظلم والطغيان.

وآداب زيارة الحسين متعددة، وهي تؤصل ما ينبغي أن يكون عليه الزائر حيناً، وتدرج ضمن ذلك ما يدّخرُ له فيها، وما يقوله عند الزيارة حيناً آخر. فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«من اغتسل بماء الفرات، وزار قبر الحسين عليه السلام، كان كيوم ولدته أمّه، صفراً من الذنوب، ولو اقترفَهَا كبائر»[2].

وعن بشير الدهان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من أتى قبر الحسين بن علي عليهما السلام، فتوضأ واغتسل في

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ١٠٠/ ٢٦١.
(٢) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤١٤.

الفرات، لم يرفع قدماً، ولم يضع قدماً، إلاّ كتب الله له حجة وعمرة»[1].

وعن الصادق عليه السلام أنه قال:

«من أتى قبر الحسين صلوات الله وسلامه عليه ماشياً، كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، فإذا أتيت الفرات فاغتسل، وعلّق نعليك، وامشِ حافياً، وامشي مشيَ العبد الذليل»[2].

وهذا النصّ يشرّع لنا زيارة الحسين عليه السلام مشياً على الأقدام إن ثبت.

وما أوردته لك من الروايات نموذج لما يروى، والمروي يفوقه مئات الأعداء، ترغيباً، وحثاً، وعبرة، واعتباراً، واستعباراً، وأجراً، وثواباً، وكياناً، ومنزلة، ومقاماً، ودرجة، وإيماناً.

وقد ذكرتُ هذا الجزء لتستدل به على الكلّ بفضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام ولتنظر إلى الأثر الاجتماعي الآخر الذي تحققه الزيارة في الإنابة، والاستغفار، والتفكر، والتضحية، والتعارف، والتآلف، وحسن العشرة، وانتقاء الصحبة، وكل ذلك مشروط بما قاله الإمام الصادق عليه السلام: «إذا زرتم أبا عبد الله الحسين، فالزموا الصمتَ إلاّ عن الخير»[3].

لأن هذا الشرط الحافز من أفضل ما يراد تحقيقه بزيارة الحسين:

---

(١) المرجع نفسه/ ٤١٥.
(٢) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤١٣.
(٣) المرجع نفسه/ ٤٢٠.

الامتناع عن الهذر والغيبة وفضول اللسان والتنطّع، والاتجاه إلى الخير بكل معانيه الواسعة الدلائل.

ولا تسل عما كابد أتباع أهل البيت عليهم السلام في سبيل زيارة الحسين عليه السلام من الاضطهاد والتنكيل والتعذيب، وما دفعوه من الضرائب المالية والجسدية إزاء ذلك، فقد أعطوا كثيراً من غير حدود، والآثار تساعدهم على ذلك العطاء من أجل إحياء الشعار السائر في زيارة الحسين.

ولا تسل أيضاً عما تعرض له الحرم الحسيني من الهدم والتخريب والحرث والدمار الشامل على أيدي خلفاء الجور وولاة الظلم، ومع كون قبر الحسين كان في خفاء في العصر الأموي إلا على الخاصة، فقد جهد العباسيون إخفاء معالم القبر بعد ظهوره، وقد جهدت قواهم المضادّة لمنهج الحسين ومسيرة الحسين وتاريخ الحسين إزالة آثار قبر الحسين، فوضعوا العيون لمنع الزائرين، وزجّوا بالسجون آلاف القاصدين، وفرضوا ضريبة المال والدم على السائرين إليه والمستجيرين بحرمه الآمن، وقد حشدوا لذلك كل الإمكانات التعبوية جيشاً وشرطة وأجهزة وولاة، وقد تولى كبر ذلك المتوكل العباسي الذي زاد على من تقدم بالتخريب، فهدم القبر الشريف، وأزال معالمه، وحرث الأرض، وأجرى الماء حول الحرم الحسيني، فحار الماء واستدار، ولم يصل إلى القبر الشريف فسمي حينئذٍ «الحائر الحسيني».

وكانت غارات الوهابيين في العهد العثماني تستهدف ضريح الحسين عليه السلام وكربلاء المقدسة في هدف مزدوج للنهب والسلب والتخريب، فقد زحفوا على كربلاء، وقصدوا الحرم الشريف في الثامن عشر من ذي الحجة ١٢١٦ هـ الموافق ١٨٠١/٤/٢ م، وعمدوا إلى

الروضة الحسينية فانتهبوها، ودمّروا معالمها تدميراً كاملاً حتى اعتدوا على صندوق الخاتم المنصوب على القبر، وهو مكوّن من العاج والمعادن الكريمة الثمينة التي يضن الزمن بمثلها، وتوجهوا نحو المسلمين فقتلوا حوالي خمسة آلاف من أهالي كربلاء[1].

وكانت هذه الحادثة صفحة سوداء في تاريخ الوهابيين، لأن ما جرى فيها من الفظائع وارتكاب المحرمات، وانتهاك الحرمات، لا يمت إلى الإنسانية بصلة ما، وتأنف منه أعرق الشعوب تخلفاً وهمجية وجاهلية.

وما اكتفى الوهابيون بذلك حتى جددوا الغارة بعد عشر سنوات عام ١٢٢٦ هـ، فقصدوا صوب كربلاء، وقتلوا الناس الآمنين، ونهبوا النفائس والأموال، واعتدوا على الحرمات، ذلك بهدف إرهاب الناس، ومنعهم عن زيارة الحسين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

إن أية قوة عالمية لا يمكنها أن تحول بين المرء ومعتقداته، لأن مرتكزات العقيدة تنبعث من أعماق النفس الإنسانية، ولا سيطرة للقوى على الأعماق في ذوات الأنفس. وكان الأجدر بهذه القوى الضالة أن تتجه لإنقاذ بلدها من التخلّف الاجتماعي والهوس الديني، وتضرب صفحاً عن مقارعة أهل بيت النبوة.

والزيارات المروية للحسين قد تحدد بالأيام كليلة الجمعة ويومها، ويوم الاثنين وسواه، وقد تحدد بمواسم مخصوصة الأوقات، وقد تكون مطلقة في كل يوم وليلة، فالزيارات المخصوصة بمناسبتها مقيدة بزمان وحدث، والزيارات المطلقة غير مقيّدة بزمان وحدث، وهنا

---

(١) ذكر ذلك كل من: جعفر آل محبوبة، عباس العزاوي، يعقوب سركيس وغيرهم، انظر/ محمد حسن الكليدار/ مدينة الحسين/ السلسلة الثالثة/ ١٢٢ وما بعدها.

نشير إلى كلا القسمين: فالزيارات المطلقة لمولانا الإمام الحسين أشهرها ثلاث:

الأولى: ما رواه يونس بن ظبيان عن الإمام الصادق أنه قال:

«إذا أتيت أبا عبد الله فاغتسل على شاطىء الفرات، والبس ثيابك الطاهرة، ثم امشِ حافياً، فإنّكَ في حرم من حرم الله وحرم رسوله، وعليك بالتكبير والتهليل، والتسبيح والتمجيد والتعظيم لله كثيراً، والصلاة على محمد وأهل بيته، حتى تصير إلى باب الحائر» ثم ساق الزيارة[1].

الثانية، وقد رواها الشيخ الكليني بسنده عن الإمام علي الهادي عليه السلام، وهي زيارة مختصرة جليلة القدر، عالية المضامين، يقول الإمام علي الهادي: تقول عند الحسين: **«السلامُ عَلَيكَ يا أبا عبدالله، السلامُ عليكَ يَا حُجةَ اللهِ في أرضِهِ، وشاهدَهُ عَلَى خَلْقِهِ، السلامُ عَلَيكَ يا ابن رسولِ اللهِ، السلامُ عَلَيكَ يا ابن عَليٍّ المُرتضَى، السلام عَلَيكَ يا ابنَ فاطِمَةَ الزهراءِ، أشهدُ أنّك قَدْ أقَمتَ الصلاةَ، وآتيتَ الزكاةَ، وأمَرتَ بالمَعرُوفِ، ونهَيتَ عن المُنكرِ، وجاهدتَ في سَبيلِ اللهِ حَتى أتاك اليقينُ، فصَلّى اللهُ عَلَيكَ حيّاً وميتاً».**

ثم تضع خدَكَ الأيمن على القبر وتقول:

«أشهدُ أنّكَ على بيّنةٍ من رَبِّكَ، جئتُ مقرّاً بالذنوبِ لِتشفَعَ لي عِنْدَ رَبِّكَ يا ابن رسول الله»[2].

وإنما ذكرت لك هذه الزيارة بالذات فلاختصارها، وتخيّر

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٨٣.
(٢) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤٢٤ وانظر مصدره.

ألفاظها، وعدم اشتهارها، وهي بعد مروّية عن الإمام الهادي فأردت وقوفك عليها.

الثالثة: هي «زيارة وارث» وهي أشهر من أن تذكر، مروّية عن جابر الجعفي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. قال: يا جابر كم بينك وبين قبر الحسين عليه السلام؟ قلت: بأبي أنت وأمي، يوم وبعض يوم آخر، قال: فتزوره؟ فقلت: نعم. فقال: ألاَ أبشرّك؟ ألا أفرحك ببعض ثوابه؟ قلت: بلى جُعلتُ فداك فقال لي الإمام الصادق: إن الرجل منكم ليأخذ في جهازه، ويتهيأ لزيارته، فيتباشر به أهل السماء، فإذا خرج من باب منزله راكباً أو ماشياً، وكّل الله به أربعة آلاف ملك من الملائكة يصلّون عليه حتى يوافي الحسين عليه السلام. ثم قال: إن أتيت قبر الحسين بن علي عليه السلام، فقف بالباب، وقل هذه الكلمات، فإنّ لك بكل كلمة كفلاً من رحمة الله. ثم ساق زيارة وارث» الشهيرة[1].

وهناك أربع زيارات مطلقة روى ثلاثاً منها ابن قولويه في كتاب المزار، وروى الزيارة الرابعة الشيخ الطوسي في المصباح، فلتراجع.

وأما الزيارات المخصوصة للحسين عليه السلام فكثيرة، وأنا أرتّب لك أشهرها بحسب الشهور القمرية تيسيراً ومعرفة، مع أبرز الروايات التي نصت عليها.

١ ـ زيارة عاشوراء، وهي الزيارة التي يزار بها الحسين من قرب وبعد في ذكرى استشهاده في العاشر من محرم الحرام كل عام.

وقد رواها الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في المصباح، قال:

---

(١) المرجع نفسه/ ٤٢٥ وانظر مصادره.

روى محمد بن إسماعيل بن بزيع عن صالح بن عقبة عن أبيه عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: من زار الحسين بن علي عليهما السلام في يوم عاشوراء من المحرّم يظل عنده باكياً، لقي الله عز وجل يوم يلقاه بثواب ألفي حجة، وألفي عمرة، وألفي غزوة، كثواب من حجّ واعتمر وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأئمة الراشدين. قال: قلت: جعلت فداك، فما لمن كان في بعيد البلاد وأقاصيها؟ ولم يمكنه المسير إليه في ذلك اليوم، قال: إذا كان كذلك برز إلى الصحراء، أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره، وأومأ إليه بالسلام، واجتهد بالدعاء على قاتله، وصلّى من بعد ركعتين، وليكن ذلك في صدر النهار قبل أن تزول الشمس، ثم ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه، ويأمر في داره - ممن لا يتقّيه - بالبكاء عليه، ويقم في دار المصيبة باظهار الجزع عليه، وليعزّ فيها بعضهم بعضاً بمصابهم بالحسين عليه السلام، وأنا الضامن لهم إذا فعلوا ذلك جميع ذلك. قلت: جعلت فداك أنت الضامن؟ ذلك لهم والزعيم؟ قال: أنا الضامن والزعيم لمن فعل ذلك، قلت: فكيف يعزّي بعضنا بعضاً؟ قال: تقولون: -

«أعظم الله أجورنا بمصائبنا بالحسين عليه السلام، وجعلنا وإياكم من الطالبين بثأره مع وليّه الإمام المهدي من آل محمد عليهم السلام».

وإن استطعت أن لا تخرج في يومك في حاجة فافعل، فإنه يوم نحس، ولا تقضى فيه حاجة مؤمن، وإن قضيت لم يبارك له فيما إدّخر، ولم يبارك له في أهله، فإذا فعلوا ذلك كتب الله لهم ثواب ألف حجة، وألف عمرة، وألف غزوة كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان له أجر وثواب مصيبة كل نبي ورسول ووصي وصديق وشهيد مات أو قتل منذ

خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة»[1].

وهذه الزيارة يزار بها الحسين ـ عدا عاشوراء ـ في كل يوم للأثر عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله لعلقمة بن محمد الحضرمي: «وإذا استطعت أن تزوره في كل يوم بهذه الزيارة في دارك فافعل، فلك ثواب جميع ذلك»[2].

ويبدو استحباب هذه الزيارة مؤكداً في يوم عاشوراء، والمبيت عنده ليلة عاشوراء، من خلال الآثار العديدة الواردة: فعن محمد بن أبي عمير عن زيد الشحام، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «من زار قبر أبي عبد الله عليه السلام يوم عاشوراء، عارفاً بحقّهِ، كان كمن زار الله تعالى في عرشه»[3].

وعن الإمام الصادق أيضاً «من زار الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، وجبت له الجنة»[4].

وعن جابر الجعفي عن الصادق عليه السلام: «من بات عند قبر الحسين ليلة عاشوراء لقي الله يوم القيامة ملطّخاً بدمه، كإنما قتل معه في عرصة كربلاء»[5].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من زار الحسين يوم عاشوراء، وبات عنده، كان كمن استشهد بين يديه»[6].

---

(١) الطوسي/ مصباح المتهجد/ ١٧٢.
(٢) ظ: عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤٥٨.
(٣) الحر العاملي/ وسائل الشيعة/ ١٠/ ٣٧٢.
(٤) المصدر نفسه والصفحة.
(٥) المصدر نفسه والصفحة.
(٦) المصدر نفسه والصفحة.

وقال الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) روي أن من زار الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[١].

وقال الشيخ المفيد أيضاً: وروي أن لمن أراد أن يقضي حقّ رسول الله، وحق أمير المؤمنين، وحقَّ فاطمة عليهم السلام: فليزر الحسين يوم عاشوراء»[٢].

٢ ـ زيارة الأربعين، وهي في اليوم العشرين من شهر صفر، بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهاد الحسين.

روى الشيخ الطوسي في المصباح: أنه في اليوم العشرين من صفر كان رجوع حرم الحسين عليه السلام من الشام إلى مدينة الرسول، وهو اليوم الذي ورد فيه جابر بن عبد الله إلى زيارة الحسين عليه السلام وهو أول من زاره من الناس[٣].

قال الطوسي: روي عن أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام أنه قال: علامات المؤمن خمس: صلاة الخمسين (إحدى وخمسين) وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»[٤].

وزيارة الأربعين مرويّة على نحوين:

الأول: ما رواه الشيخ الطوسي في التهذيب والمصباح، والحرّ

---

(١) المصدر نفسه ١٠/ ٣٧٣.

(٢) الحر العاملي/ وسائل الشيعة/ ١٠/ ٣٧٢.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

العاملي في الوسائل عن صفوان الجمّال، قال: قال لي مولاي الصادق عليه السلام في زيارة الأربعين: تزور عند ارتفاع النهار، وتقول: السلام على ولي الله وحبيبه، وذكر الزيارة، إلى أن قال: وتصلّي ركعتين، وتدعو بما أحببت، وتنصرف[1].

الثاني: ما يروى عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن عطا العوفي، قال: كنت مع جابر بن عبد الله الأنصاري، يوم العشرين من صفر، فلمّا وصلنا الغاضرية، اغتسل من شريعتها، ولبس قميصاً طاهراً، ثم قال لي: أمعك شيء من طيب يا عطا؟ قلت: سِعْدٌ، فجعل منه على رأسه، وسائر جسده، ثم مشى حافياً حتى وقف عند رأس الحسين عليه السلام وكبّر ثلاثاً، ثم خرّ مغشياً عليه، فلمّا أفاق تلا الزيارة المأثورة عنه[2].

٣ ـ زيارة الحسين عليه السلام في أول رجب، وفيها رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من زار الحسين صلوات الله عليه في أوّل يوم من رجب غفر الله له البتة»[3].

٤ ـ زيارة الحسين عليه السلام في النصف من رجب، فعن ابن أبي نصر، قال: سألتُ الرضا عليه السلام: أي الأوقات أفضل أن نزور فيه الحسين عليه السلام، قال: النصف من رجب، والنصف من شعبان[4].

٥ ـ زيارة الحسين عليه السلام في النصف من شعبان، وهي ليلة عظيمة القدر، وفيها ولادة مولانا الإمام المهدي عجل الله فرجه،

---

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٧٣.
(٢) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤٦٩.
(٣) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٦٣.
(٤) المصدر نفسه ١٠/ ٣٦٤.

وفضلها أشهر من أن يذكر، وفيها روايات معتبرة، فعن أبي بصير عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أحبَّ أن يصافحه مائتا ألف نبي، وعشرون ألف نبي، فليزر قبر الحسين بن علي عليه السلام في النصف من شعبان، فإن أرواح النبيين يستأذنون الله في زيارته، فيؤذن لهم»[1].

وعن الصادق أنه قال «إذا كان ليلة النصف من شعبان نادى منادٍ من الأفق الأعلى على زائري الحسين: ارجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم على ربكم ومحمد نبيكم»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «من زار قبر الحسين بن علي عليه السلام ثلاث سنين متواليات لا يفصل بينهن في النصف من شعبان، غفرت له ذنوبه البتة»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «من زار قبر الحسين عليه السلام في النصف من شعبان غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[4].

١٦ ـ زيارة الحسين عليه السلام في ليالي القدر، وهي ليلة واحدة تلتمس في العشر الأواخر من رمضان: التاسعة عشرة، والليلة الحادية والعشرين، وليلة الثالثة والعشرين من رمضان، وفيها تأكيد كثير، فعن الإمام محمد الجواد عليه السلام:

«من زار الحسين عليه السلام ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان، وهي الليلة التي يرجى أن تكون ليلة القدر، وفيها يفرق كل أمر حكيم،

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٦٦.

صافحه أربعة وعشرون ألف ملك ونبي، كلهم يستأذنون الله في زيارة الحسين عليه السلام في تلك الليلة»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن ليلة القدر، قال: هي في العشر الأواخر من شهر رمضان، فمن أدركها، أو قال شهدها عند قبر الحسين عليه السلام، يصلّي عنده ركعتين، أو ما تيسّر له، وسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار، آتاه الله ما سأل، وأعاذه مما استعاذ»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إذا كان ليلة القدر، يفرق الله فيها كل أمر حكيم، نادى منادٍ من بطنان العرش: إن الله قد غفر لمن أتى قبر الحسين عليه السلام»[٣].

على أن الأحاديث في زيارة الحسين عليه السلام في قسم منها مطلقة بزيارته في شهر رمضان بعامة، لا سيما في أول ليلة منه، وليلة النصف، وآخر ليلة منه، فعن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن زيارة الحسين في شهر رمضان، فقال:

«من جاءه عليه السلام خاشعاً، محتسباً، مستقيلاً، مستغفراً، فشهد قبره في إحدى ثلاث ليالٍ من شهر رمضان: أول ليلة من الشهر، وليلة النصف، وآخر ليلة منه، تساقطت عنه ذنوبه وخطاياه»[٤].

٧ ـ زيارة الحسين عليه السلام في العيدين، وهما الفطر والأضحى، فعن ابن أبي عمير عن عبد الرحمن بن الحجّاج، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

---

(١) المصدر نفسه ١٠/ ٣٧٠.
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) المصدر نفسه ١٠/ ٣٦٩.

«من زار قبر الحسين ليلةً من ثلاث غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قلت: أي الليالي جعلت فداك، قال: ليلة الفطر، وليلة الأضحى، وليلة النصف من شعبان»[1].

وعن الحسن بن راشد، عن يونس بن ظبيان، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من زار قبر الحسين عليه السلام ليلة النصف من شعبان، وليلة الفطر، وليلة عرفة في سنة واحدة، كتب الله له ألف حجة مبرورة، وألف عمرة متقبلة، وقضيت له ألف حاجة من حوائج الدنيا والآخرة»[2].

وزيارته في العيدين تختص إحداهما بليلتي العيدين، والأخرى بيومي العيدين[3].

٨ ـ زيارة الحسين عليه السلام ليلة عرفة ويومها، وعرفة هو التاسع من ذي الحجة، ويزار الحسين في ليلته ويومه.

فعن ابن ميثم التمار، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: من زار الحسين عليه السلام، أو قال: من زار ليلة عرفة أرض كربلاء، وأقام بها حتى يعيّد ثم ينصرف، وقاه الله شر سنته»[4].

وقد روي في زيارة عرفة من الآثار عن الأئمة ما لا يحصى كثرة وشيوعاً ودلالة. فعن الإمام الصادق أنه قال: أخبرني أبي أن من خرج إلى قبر الحسين عليه السلام، عارفاً بحقه، غير مستكبر، صحبة ألف ملك عن يمينه، وألف ملك عن يساره، وكتب له ألف حجة وألف عمرة مع

---

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة/ ١٠/ ٣٧١.

(٢) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٧١.

(٣) ظ: عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤٤٥.

(٤) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٦٢.

نبي أو وصي نبي. جاء حديثه هذا وهو يتحدث عن عرفة[1].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً: من زار الحسين عليه السلام يوم عرفة، عارفاً بحقّهِ، كتب الله له ألف حجة مقبولة، وألف عمرة مبرورة»[2].

وعن بشير الدهّان قال: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول:

«من أتى قبر الحسين عليه السلام بعرفة، بعثه الله يوم القيامة ثلج الفؤاد»[3].

وعن ابن سدير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام يا حنّان إذا كان يوم عرفة اطلّع الله على زوار الحسين عليه السلام فقال لهم استأنفوا فقد غفرت لكم»[4].

وعن الإمام الصادق قوله: «من عرّف عند قبر الحسين فقد شهد عرفة»[5].

٩ - زيارة الحسين عليه السلام ليلة الجمعة ويوم الجمعة، وفيها روايات معتبرة، فعن الإمام الصادق عليه السلام من زار قبر الحسين عليه السلام في كل جمعة غفر الله له البتة، ولم يخرج من الدنيا وفي نفسه حسرة منها، وكان مسكنه مع الحسين بن علي[6].

هذه جملة الزيارات المخصوصة لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وقد رأيت فيها هذه الأضمامة من الأحاديث العالية

---

(١) المصدر نفسه ١٠/ ٣٦٢.
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) المصدر نفسه ١٠/ ٣٦١.
(٥) المصدر نفسه والصفحة.
(٦) المصدر نفسه ١٠/ ٣٧٤.

متناً وسنداً، وما أحسب التأكيد عليها إلاّ لأنها شعار هذا الدين، تذّكر بنضاله، وتشير إلى صدق تضحيته، والظاهر من الروايات أن هذا الشعار لا يسقط احياؤه مع الخوف والضرر، فالحسين يزار في حالة الخوف كما يزار في حالة الأمن.

فعن ابن بكير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: إن قلبي ينازعني إلى زيارة قبر أبيك (يعني الحسين عليه السلام) وإذا خرجت فقلبي وَجِلٌ مشفق حتى أرجع خوفاً من السلطان والسعاة وأصحاب المصالح (المسالح) فقال: يا ابن بكير، أما تحب أن يراك الله فينا خائفاً؟ أما تعلم أنه من خاف لخوفنا أظله الله في ظل عرشه؟ وكان يحدثه الحسين عليه السلام تحت العرش، وآمنه الله من أفزاع يوم القيامة، يفزع الناس ولا يفزع، فإن فزع وقرته الملائكة، وسكنت قلبه بالبشارة»[1].

وعن زرارة، قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام (يعني الإمام الباقر) ما تقول فيمن زار أباك على خوف؟ قال: يؤمنه الله يوم الفزع الأكبر، وتلقاه الملائكة بالبشارة، ويقال له: لا تخف ولا تحزن هذا يومك الذي به فوزك»[2].

وعن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق، قال: قال لي: هل تأتي قبر الحسين عليه السلام؟ قلتُ: نعم على خوف ووجل، فقال: ما كان من هذا أشد فالثواب فيه على قدر الخوف، ومن خاف في إتيانه آمن الله روعته يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، وانصرف بالمغفرة، وسلمت عليه الملائكة، وزاره النبي صلى الله عليه وآله، وانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم

---

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

سوء، واتبع رضوان الله[1].

ولا أريد أن أطيل عليك في سرد الأحاديث الآمرة بزيارة الحسين، والمرجحة لها، والمتحدثة عن الثواب المترتب عليها، فذلك شيء يطول ذكره، ويكفي في ذلك أن أشير ههنا أن الشيخ الحر العاملي وحده قد روى في باب تأكد استحباب زيارة الحسين ثمانية وأربعين حديثا[2].

يقول العلامة المحقق الشيخ عباس القمي رحمه الله تعالى:

«زيارة الحسين عليه السلام تزداد فضلاً في الأوقات الشريفة، والليالي والأيام المباركة، مما لم يُخصّ بالذكر، لا سيما فيما انتسب إليه من تلك الأوقات: كيوم المباهلة، ويوم نزول سورة هل أتى، ويوم ميلاده الشريف، وليالي الجمعة، وغير ذلك من شريف الأزمان. ويستفاد من بعض الروايات أن الله تعالى ينظر إلى الحسين عليه السلام في كل ليلة من ليالي الجمعة بعين الكرامة، فيبعث إلى زيارته كل نبي أو وصي نبي. وروى ابن قولويه عن الإمام الصادق عليه السلام: ـ

أن من زار قبر الحسين عليه السلام في كل جمعة غفر الله له، ولم يخرج من الدنيا خسراً، وكان في الجنة مع الحسين عليه السلام.

وفي حديث الأعمش، أنه قال له بعض جيرانه: رأيت في المنام رقعاً تتساقط من السماء، فيها أمان لمن زار الحسين ليلة الجمعة»[3].

وفي هذا القدر كفاية عن الإفاضة في الأحاديث والروايات.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) المصدر نفسه ١٠/٣١٨ ـ ٣٣٣.

(٣) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٤٦٩.

وهنا ينبغي التأكيد أن على من عرف منزلة الحسين عليه السلام وعظيم مقامه عند الله تعالى، فتقرب إليه بزيارته ينبغي أن يكون ملتزماً تمام الالتزام بأداء الواجبات، والامتناع عن المحرمات، والتورع عند الشبهات، حتى تتكامل درجة إيمانه، ويتضاعف أجر أعماله، ويزداد قرباً من أهل البيت عليهم السلام ويحشر في زمرة الحسين وآل الحسين وأصحاب الحسين، وبذلك يكون داعية إلى الله قولاً وعملاً، عسى أن يكون فطنة لقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

صدق الله العلي العظيم

---

(١) سورة فصلت/ ٣٣.

قفْ في رُبى الطفّ

قصيدة المؤلف في رثاء سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام وهي في معارضة قصيدة الأستاذ أحمد شوقي في بني أمية:

«قم ناجِ جلّقَ وأنشدْ رسمَ من بانو» مشتْ على الرسمِ أحداثٌ وأزمانُ»

□ □ □

قفْ في رُبى الطفِّ وأنشدْ رسمَ مَنْ بانوا فـإنَّهـا فـي جَبيـنِ الـدَهـرِ عنـوانُ

واستلهـمْ التـربـةَ الحمـراءَ نـاطقـةً بهـا الـدمـاءُ الـزواكـي فهـي تبيـانُ

أنَّى استقلّ «بنو الزهراءِ» عَنْ وطنٍ وكيفَ ضَمّتْ «بني الزرقاءِ» أوطانُ

ضاقَ الفَضاءُ بأهلِ البيتِ واتسعتْ لقـادةِ الجـورِ أوكـارٌ وأوكـانُ

حتى إذا نـزلـوا فـي «كـربـلاءِ» سـرتْ للحـربِ منهـم مغـاويـرٌ وفـرسـانُ

تـدرّعـوا الصبـرَ، فـالأبـدانُ أضْحِيَـةٌ واستشعروا الموتَ، فالأرواحُ قُربانُ

بيضُ الوجوهِ، فما انحازوا ولا انتكسوا شُـمُّ العـرانيـنِ، مـا هـانـوا ومـا لانـوا

يَستشـرفُـونَ سيـوفَ الهنـدِ لاهبـةً وَيَمتطُـونَ العـوالـي وهـي مُـرّانُ

البيـدُ بـالخيـل . . والبطحـاءُ حـافلـةٌ بـالمشـرفيـة . . والآفـاق حُسبـانُ

والأرضُ تـرقـلُ بـالأبطـالِ زاحِفـةً إلـى المنـايـا . . ووادي الطفّ ميدانُ

* * *

قِفْ بي على الطفِّ، واسألْ عَنْ كواكبِهِ أنّـى استبـدتْ بهـا نُـؤيٌ وكُثبـانُ

مُجـزريـنَ علـى وَجـهِ الصعيـدِ لُقـىً فـي كـلِ داجيـةٍ بـدرٌ وكيـوانُ

تهـابهـا مـن وحـوش البيـد عُسـلانُ رعبـاً . . وتحـرشهـا في الجوّ عُقبانُ

فـي ذمـةِ اللهِ أشـلاءٌ مُمَـزَقَـةً وفـي ذرى الخلـدِ أرواحٌ وأبـدانُ

فـي كـلِّ ثغـرة جـرحٍ مِـن دمـائِهـمُ ... أشعّـــةٌ وتـــرانيـــمٌ وألحـــانُ
لاحَ الصبـاحُ عليهـا فـأزدهـى غـرداً ... وَجَـادَهـا الغيـثُ غضـاً وهـو نشـوانُ
فيـا رُبـى الطـف لا جـافـاكِ مُنهمـراً ... ـ مـن رحمـة الله بـالأنـواءِ ـ هتّـانُ
ولا عــداك نسيـمُ الفجـرِ، بـاكـرَهُ ... طِيـبٌ.. وخـامَـرَهُ رَوْحٌ وريحـانُ
مَـرَرْتُ فيهـا وأنفـاسـي مـؤجّجـةٌ ... وَشمتهـــا وأُوارُ القلـــبِ نيـــرانُ
تـدافعتْ حـولـي الأطيـافُ مَعـركـةً ... بهـــا تصـــارعُ طغيـــانٌ وإيمـــانُ
تُبـدي بهـا جبـروتَ الأرضِ طـائفـةٌ ... وتستـــذّلُ بهـــا الإرهـــابَ فِتيـــانُ
حتى إذا اشتبكوا.. طاحت مُضَرجّةً ... ســواعــدٌ، وهــوتْ أيــدٍ وسيقــانُ
وحَـولهـا مِـنْ أبـاةِ الضيـم كـوكبـةٌ ... مـا كـان مِنهُـمْ لغيـر الحـقِّ إذعـانُ
مشوا إلى الموتِ مشيَ الأسدِ ضاريةً ... الثغـرُ مُبتَسِـمٌ.. والـوجـه جـذلانُ
وَغُـودِروا جُثثـاً يَلـوي الصعيـدُ بهـا ... والرِيحُ تعصف.. والبوغاء أكفانُ
إنْ يقتلوا الشمسَ.. فالأضواءُ واجمةٌ ... أو ينحروا الفجر.. فالأنداء أحزانُ

* * *

لـولا الحسينُ لغـامَ الأفـقُ وانـدلعـتْ ... شـرارةٌ.. وطغـى للغـيِّ طـوفـانُ
«والنـاسُ عَـادتْ إليهِـمْ جـاهليتُهُـمْ» ... وقـدّسـت بعـدُ أصنـامٌ وأوثـانٌ
والحـاكـمُ الفـردُ بـاسـم الله يملكُهـا ... زَغمـــاً؛ وسُلطـــانُـــهُ للهِ سُلطـــانُ
سيـاسـةُ «الجبـرِ» والأرجـاءِ» قـائمـةٌ ... علـى التنـاقـضِ.. والأهـواءُ ألـوانُ
والـديـنُ عَـادَ غـريبـاً بَعْـد جِـدّتِـهِ ... والحـقُّ عـاث بـه بَغـيٌ ونُكـرانُ
مـا كـانَ غيـرُ أبـي الأحـرار منقـذهـا ... بصـــرخـــةٍ هـــي للتغييـــرِ إعـــلانُ
لثـورة الطـفّ تـأريـخٌ بـه انْجَـذَبَـتْ ... مـــن العـــوالـــمِ.. آفـــاقٌ وأكـــوانُ
ومـــا تـــزال تعيهـــا كـــل آونـــةٍ ... مـــن التحـــرر أفكـــارٌ وأذهـــانُ
تغفـو الشعـوبُ علـى ضيـم يـرادُ بِهـا ... وتستفيـــقُ.. وثـــأرُ الطـــفِّ يقظـــان
يقيتُهـا المُثُـلَ العُليـا.. ويـدفعُهـا ... لشـاطـىء الأمـنِ فـي يمنـاهُ ربّـانُ

يزهو به الغارُ موفوراً. . . ورائدُهُ أن لا يظلَّ طريقَ الخيرِ إنسانُ

قادَ الجموعَ إلى الإحسانِ تكرُمَةً إنَّ القيادة إيثارٌ وإحسانُ

وثار لا أشَراً فيها ولا بطَراً لكنّما هوَ إصلاحٌ وعمرانُ

رسالةٌ من ذرى الإسلام خالدةٌ فاهَ «الحسينُ» بها فانصاعَ «سُحبان»

* * *

يحمي الحسينُ حِمى الوادي ويحرسه عن النوائبِ أنصارٌ وأعوانُ

في كلِّ عصرٍ له جُندٌ وألويَةٌ وكلّ جيل له صوتٌ وآذانُ

يلقاك من حوله «العباسُ» مبتسماً «كما تلقاك دون الخلدِ رضوانُ»

و «الهاشميون» في لَجبٍ وجمهرةٍ مِنَ العزائمِ. . و «الأنصارُ» رُكبانُ

إنْ يمنعوا الناسَ عن قبرِ الحسين فقدْ مُدّتْ لَهُ من قلوب الناس أغصانُ

في كلِّ روحٍ لَهُ أرضٌ ومزرعةٌ وكلِّ قلبٍ لَهُ حقلٌ وبستانُ

يبقى «الحسينُ» مناراً يُستضاءُ بِهِ فإنْ أغاروا عليه. . فَهْوَ بُركانُ

أخافَهم وهو حيٌّ بالكفاحِ كَما أخافهم وهو في الأرماسِ جُثمانُ

قد حاولوا النيلَ من علياءِ عِزّتِهِ و «هاشمٌ» تتأباه و «عَدنانُ»

عَدَوا حواليهِ عُدواناً يلاحقُهُمْ ولا يدومُ مع الأيام عُدوانُ

يُخادعونَ البرايا: أنَّهمْ رَبحوا وَرِبحُهُمْ في مجالِ الهدَمِ خُسرانُ

إن استطالتْ يَدُ التخريبِ فانطمستْ بَعضُ المعالِم. . فالأيامُ أزمانُ

للمتقينَ من الدنيا عَواقِبُها وللمُضِلّينَ أغلالٌ ونِيرانُ

* * *

هذي «القُبابُ» سراجٌ لا انطفاءَ لَهُ وكيفَ يطفىءُ نورَ اللهِ طغيانُ

تهدي السماءَ نُجوماً من أشعتها ويستضيء بها في الليل حَيرانُ

وَتحسدُ الأرضَ فيها الشهبُ سابحةً وتستطيلُ إليها وهي أكوانُ

ما زال فيها نشيدُ الحقِّ مُنطلقاً يصحو بهِ الدهرُ حيثُ الدهرُ سكرانُ

شعـائـرٌ قـد أعـزّ اللهُ جـانبهـا ... لهـا مـنَ النجـمِ سمّـارٌ ونـدمـانُ
تُحنىٰ الـرؤوس على أعتـابِهـا فَرَقـاً ... وتستجيـرُ أكـاليـلٌ وتيجـانُ
وتستظـلُّ بهـا فـي كـلِّ نـازلـةٍ ... أئمـةٌ وبطـاريـقٌ ورُهبـانُ
للسـاجـديـنَ تـرانيـمٌ وهَيمنـةٌ ... وللمصلّيـن إنجيـلٌ وقـرآنُ
الحـقُّ بـاقٍ.. وإنْ عَـزّ النصيـرُ وإنْ ... تـدوالَ الحُكـمَ صبيـانٌ وَعُبـدانُ
والظلـمُ فـانٍ.. وإنْ طـالَ الـزمـانُ بـهِ ... وإن تجبّـر «فـرعـونٌ» و «هـامـانُ»
فـأيـنَ «عـادٌ» وَ «شـدّادٌ» وشبههمـا ... وأينَ «كسرى» و «سابورٌ» و «ساسانُ»
وأيـنَ ملـك «بنـي العبـاس» قـاطبـةً ... وايـن ولّـيَ عـن السلطـانِ «مَـروانُ»
كـانـوا ملـوكـاً.. فعـادوا بعـدُ أتـربَـةً ... كـأنمـا القـومُ مـا صـاروا ومـا كـانـوا

* * *

«بنـو عَلَـيٍّ» ولاة الأمـرِ تُـزعجُهُـمْ ... عَـنِ الأمـانِ تَبـاريـخٌ وأشجـانُ
مشـردونَ.. فِجـاجُ البيـدِ تحضنهُـمْ ... فليـس للمـالكيـن الأرض أوطـانُ
تـراثُهُـمْ بيـد الأقـدارِ منتهـبٌ ... وحَظُهُـمْ مـن حقـوقِ اللهِ حـرمـانُ
عبّـت «أميـةٌ» أحقـاداً دمـاءَهُـمُ ... وأسفرت من «بني العباس» أضغانُ
حتـى إذا الحـقُّ أبـدى حُـرَّ صَفحتِـهِ ... وانهـارَ لِلـرافعيـنَ الظُلْـم بُنيـانُ
ذابَ الطغاةُ.. كأن الشمس ما طلعت ... ولا عـلا لَهُـمُ مُلـكٌ وسلطـانُ
وَظـلَّ آلُ رسـول الله.. مَفخَـرةً ... عظمى.. فما استسلموا ذلاً ولا هانوا
إنْ كنـتَ تطلـبُ بـرهـانـاً على حَـدَثٍ ... فـإنَّ تـاريـخ أهـلِ البيـتِ بُـرهـانُ
عـاشـوا علـى مضـض الأحـداثِ.. ... وانتصروا عصا «الكليم» إذا حققتَ «ثعبانُ»
هُـمُ النجـومُ؛ نجـومُ الأفـقِ لامعـةً ... هُمُ الجبالُ فما «رضوى» و «ثهلانُ»
أئمـة قـربهُـمْ ديـنٌ... وَحُبُّهُـمُ ... فَـرضٌ.. وبُعضُهُـمْ شِـركٌ وكفـرانُ
إن لاح صبـحٌ.. فـأبـرارٌ وألـويَـةٌ ... أو جَـنَّ لَيـلٌ فـأحبـارٌ ورهبـانُ
كـانـوا علـى الأرض أوتـاداً مقـدّسـةً ... فهلْ سألتَ سماءَ الخلد ما كانوا؟

يمشون هَوناً . . وللطغيانِ زمجرةٌ ويرأفونَ . . وللإرهاب إرنانُ

أخلاقهم من رسول اللهِ نابعةٌ وَهَدْيُهُمْ بهدى الرحمن مُزدانُ

صَلّى الإلهُ عَلَيهِمْ كلّما سَجَعتْ وِرقٌ . . وحَنت إلى الأنداءِ أفنانُ

النجف الأشرف

الدكتور محمد حسين علي الصغير

١٠ محرم الحرام/ ١٤٢٣هـ

نتائج البحث

بعد هذه المسيرة الحافلة في آفاق الفكر الثوري عند الإمام الحسين بن أمير المؤمنين عليه السلام في ظلال أحداث ثورته الخالدة في كربلاء، يمكننا أن نلخص أهم نتائج البحث بإيجاز: في الفصل الأول الذي تناول بالرصد التحليلي:

«الحسين في مواجهة دوره القيادي»

١ ـ رأينا الحسين في طريق الثورة يشارك الامام الحسن عليه السلام في مناخ متحدن ونتائج موحدة من خلال استطراد تأريخي ناهض يضم السمات الأساسية المشتركة بين الامامين فيضطلع الإمام الحسن بالجهد النظري الأكبر، ويتفرغ الإمام الحسين للتنفيذ العملي الأصعب، وكان موت معاوية مفجّراً لانطلاق الحسين في المبادرة الثورية، وكانت الحياة السياسية المتبرّمة تحمل مبررات الثورة، فيزيد يتلهف لأخذ بيعة الحسين، والحسين يأبى ذلك رافضاً ويغادر مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتتحدد نقطة الصفر في إعلان الثورة، وينفرد الحسين عليه السلام بالزخم الجماهيري، وتتجه له الأنظار في العالم الإسلامي.

٢ ـ **«الاضطلاع بأعباء الثورة»** ورأينا الحسين يضطلع بأعباء الثورة، ويلبيّ النداءات الملحّة، وتبعث له الكوفة بالبيعة، فيسفر لها مسلم بن عقيل، ويستطلع رأي الكوفة والبصرة معاً، وتنهال عليه الكتب والرسائل، فيزمع على مغادرة مكة باعتباره المؤهل قيادياً للثورة من جهة، ولئلا يُفاجىء بالاغتيال في الحرم من جهة أخرى، وما كان عليه أن يتريث بل كان عليه مواجهة قدره المحتوم.

٣ ـ وثأر الحسين لكرامة الإنسان في «رحلة المهمّات الصعبة» وأبلغ رأيه في خطاب مؤثر، أعلن فيه عن ثورته ومصيره بوقت واحد، واعترض زعماء الناس على مغادرته مكة، وعرض النظام لركبه، فكان الإمام بين اعتراض عليه وتعرّض له، فجبههما معاً، وغذّ السير نحو العراق، وكتب للكوفيين بعزمه، فقُبِضَ على رسوله فبلّغ رسالته وأعدم، وكان إيقاظ الشعب المسلم المتخدّر يتطلب عملاً انتحارياً يلهب المشاعر، ويهزّ العواطف، وإذا بالحسين يعلن ظلم الدولة، ويتدارك انهيار الأمّة، ويعرّي النظام الحاكم، فلم يعد السلطان ظل الله في الأرض، ولا حكمه حكم الله في السماء.

٤ ـ **«مأساة سفير الحسين إلى الكوفة»** رأينا النظام يعلن حالة الطوارىء، والكوفة تُضمُ إلى ابن زياد بعد أن هيّأ مسلمٌ مناخها السياسي للحسين، ويدخل ابن زياد الكوفة ويرجف بمسلم، ويتحرك مسلم قيادياً، وابن زياد يستدعي هانئاً ويغدر به، وينشر مسلم ألوية الحرب، ويطوق قصر الإمارة، والإعلام المضاد والإشاعات يعرضّان الحركة للفشل، وقدمّنا تقييماً موضوعياً لقيادة مسلم حتى الاستشهاد، ومقتل مسلم بصورة شنيعة.

٥ ـ **«الحسين في الأراضي العراقية»** تناول ضبط المنازل والحدود، ونشر المسالح، والحسين في طريقه إلى العراق يعرض قضيته على السالكين، فيلتقي زهير بن القين فيستجيب له، ويتلقى نبأ استشهاد مسلم، فيأذن للناس بالانصراف، فينصرف من ينصرف، ويبقى في خُلّص أصحابه، وكان بإمكانه عندئذٍ إلغاء فكرة الثورة، ولكنه مصّممٌ عليها، ويلتحق به نفر من أهل الكوفة، وتناولنا إيراء شعلة الثورة ومشكلة الوعي السياسي، والحسين يلتقي بابن الحر الجعفي، وهو

يضن بنفسه عن القتل، والطرماح يحيٍّ ركب الحسين بالحداء، والحسين يلتقي الحر الرياحي ويمتنع عليه، ويواصل الحسين نهجه الثوري باصرار حتى يهبط كربلاء.

الفصل الثاني:

«الفكر الثوري بين البعد السياسي والتخطيط العسكري عند الحسين».

١ ـ «فكرة الثورة في تمثيل العنصر الاجتماعي» وقد ألقى بالضوء على الخيارات الراهنة بين يدي الحسين، فاختار أصعبها، وأبى أن يعطي بيده إعطاء الذليل، وتهيأ للنضال الدموي، فهو لا يرى الموت إلاّ سعادةً، واستجاب له أنصاره بروح ثورية عليا، فنشط في مشاورتهم، ووضحت الرؤية لدى الجميع، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي في ثورة الحسين، وهو يطلب الإصلاح في أمة جدّه محمد ﷺ وهو أحقّ من بدّل وغيّر، فيعضده الثائرون، ويثور على الانحطاط الاجتماعي، والتخلّف السياسي.

٢ ـ «تحدّيات القِوى المضادّة للفكر الثوري» وقد لمسنا فيه قوّات النظام وفصائله في نفير عام، والحسين يرمي بكتاب ابن زياد إلى الأرض، وابن زياد ينتدب ابن سعد لقيادة الجيش فيتردد ثم ينفّذ، ورأينا قادة الجيش الأموي وعدتهم في مختلف قبائل العرب، والحسين يمنع الماء، وبدء المفاوضات بين الحسين وابن سعد في فكر متقابل، وحققنا القول في إخفاء الكثير من ملامح ثورة الحسين، ورأينا الحسين لا ينزل على حكم يزيد أو ابن زياد، وكشفنا لغة التناقض والانتحال في كتاب مفترى أو متزايّد.

ووقف المبحث عند الفكر الثوري في تصريحات الحسين منذ اليوم الأول للثورة حتى كربلاء.

٣ ـ **«الفكر الثوري يستقرّ في الأعماق»** عرضنا فيه لأحداث ليلة الوعي الثوري عند الحسين وأصحابه، تقابلها ليلة الترف والتنابز بالألقاب في المعسكر المقابل، وألمحنا إلى صوّر الخداع وأساليب المكر عند الأمويين، ووجدنا القوم يطلبون الحسين بالذات، فيأذن لأصحابه بالانصراف، ونفوس الصفوة من آل البيت وآل عقيل والأنصار لا تسمح بمفارقة الحسين، فقد ضمهم جميعاً المصير المشترك الواحد، فهم يقاتلون في معركة هذا المصير، والحسين يشرف بنفسه على الربايا، وآخر توجيه عسكري تلك الليلة.

٤ ـ **«الفكر الثوري في ميدان القتال»** وقد بدأه الحسين بالتخطيط العسكري ميدانياً، وهو يستقبله بثغر باسم صباح العاشر من المحرم، ويتوجه إلى الله بالدعاء، وإلى الجيش المقاتل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحتج بالكتاب والسنة، ويبالغ في النصح، وكان على العقول أن تتحرر من ربقة العبودية ببيان الحسين الجزل، ولكن الجيش تبعاً للنظام قد طغى وعتى وتجبّر، وواصل أصحاب الحسين مناشدته بالحسنى، فكان الانحراف والعزوف عن استماع الحق، مع إيمان أصحاب الحسين بالتسامح والحوار النزيه.

٥ ـ **«الفكر الثوري يخترق صفوف النظام»** واستوعبت خطب الحسين سبل الاحتجاج كافة، ولاذ الأكثرون بالصمت القاتل، واهتز الآملّون من الأعماق، فازدلف إلى الحسين الحر بن يزيد الرياحي في حديث طلائعي طريف حتى استشهاده، وتمكنت الهداية فبدأت طلائع

العائدين إلى ركب الحسين تترى، والحسين في موقع الصلابة لا يتزلزل، ثم بدأت المعركة.

الفصل الثالث:

«كواكب الشهداء في سماء المعركة» وقد تقرر فيه أن تقف على:

١ ـ **«قتال الأحرار ونضال الحرائر»** وفق خطة نضالية تقتضي تقدم أصحاب الحسين بالفداء، وبدأ القتال ضحىً بالمبارزة بين الفريقين، وكانت استماتة أصحاب الحسين قد رجحت كفتهم، فدعا الجيش الأموي إلى الحملة الجماعية، وتنجلي الحملة الأولى عن مصرع خمسين شهيداً من الأنصار، والحسين ينظر المأساة ويحذّر، ويشتّد القتال حتى الزوال، فيؤدي الحسين وأصحابه صلاة الخوف، ولهذه الصلاة دلالتها الرسالية، وتكرّ الحرب مبارزة للمرة الثانية، ويستشهد أصحاب الحسين إلا ثلاثة، ويطال النضال يوم الطف الحرائر في المعركة، فتضرب المرأة المسلمة أروع الأمثلة في التضحية والثبات.

٢ ـ **«أنصار الحسين: الأسماء والانتماء السياسي والاجتماعي»**

وهو عمل ببلغرافي فريد، عرض لجهود السابقين في الموضوع، وقدمّ معجماً إحصائياً بأسماء أنصار الحسين في ثبت ألفيائي، وعرض لموجز من التعرف بكل منهم وفق التحقيق الدقيق، وخلص إلى نتائج المقارنة السليمة موضوعياً باعطاء الأصل في الأعداد والأسماء.

٣ ـ **«شهداء بني هاشم»**

نهض بأسماء الطالبيين عدداً من المستشهدين في الطف، وصنّفهم نسبياً، وعرض مع المناقشة تحقيق الشيخ محمد مهدي شمس الدين في الموضوع، وبحث عنصر المأساة في مصارع الهاشميين متمثلاً بعلي

الأكبر والعباس ابن أمير المؤمنين، ووقف عند الحسين، وهو يناضل وحيداً حتى الاستشهاد، وأوجز عظيم ما ابتلي به، من فقده أنصاره وأهل بيته واستشهاد طفله الرضيع بين يديه، وأورد تكالب الجيش الأموي في قتاله، وصوّر نزعات الحنق والحقد في نزاله، وأبرز انفراق العسكر إليه في أربع فرق، وأشار إلى خلاصة ما جرى عليه من الطعن والرمي والرضخ والضرب بالسيوف حتى ذهب ضحية للانتقام الدموي، وعرض لأسماء من تولوا كبر ذلك وأسماء من تولى سلبه بعد مصرعه، وحوادث النهب في رحله ومتاعه، وانتهاء المأساة برضّ الخيل صدره وظهره.

وكانت المأساة في فظائعها، وثورة الحسين في وقائعها، البداية الأولى لاقتلاع الحكم الأموي من الجذور، وتشييعه بالخزي إلى الأبد.

الفصل الرابع: «اجراءات ما بعد الثورة»

وقد حددنا تلك الاجراءات بالآتي:

١ ـ **«مظاهر العنف الانتقامي»** شاهدنا فيه الحسين وآله وأصحابه مضرجين على رمضاء كربلاء تصهرهم حرارة الشمس، وألفينا ظاهرة قطع الرؤوس لسبعين أو أكثر من الشهداء، وتسييرها إلى الكوفة ومنها إلى الشام. وفلسفنا الهدف السياسي الكامن وراء مسيرة الرؤوس بالإضافة إلى دواعي التشفي والانتقام، وهو القضاء على كل أشكال المعارضة الخفية والعلنية، واجتثاثها من نفوس المعارضين. ثم ألقينا الضوء على مجمل الأقوال في مصير تلك الرؤوس المسيّرة، واخترنا الأشهر.

٢ ـ **«عقائل الوحي في الأسر»** ورأينا فيه حمل بنات

رسول الله ﷺ أسارى، والمرور بهن على جثث القتلى في مشهد انتقامي يبعث على الأسى وقنوط النفس.

وكان للأسرى دور رسالي بارز تبناه زين العابدين عليه السلام وابنة أمير المؤمنين عليه السلام في هدف مزدوج يكشف عن مأساة الطف حيناً، ويبعث رسالة الحسين حيناً آخر، في منطق جريء ذُهِل به الحاكمون، في حين عمدوا إلى تبديد الهالة القدسية للحسين وأتباعه، وإذا بها تتألق فتزداد توهجاً حينما تحدثت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين، وفاطمة بنت الحسين في إكمال دور المرأة في دائرة النضال.

٣ ـ **«أسرى أهل البيت في الشام»** وقد تبنى إزاحة الستار عن التضليل الديني في محاورة للإمام مع شيخ متهدم، وإماطة اللثام عن التمويه السياسي الذي مُني به الناس، وزينب تعلن صرختها المدويّة في مجابهة يزيد، ويزيد يجيبها إجابة المغلوب المتقهقر، وزين العابدين يتبنى موقف زينب ويؤكده في مجال الإعلام الحقيقي، ويزيد يلوذ بالصمت الرهيب.

٤ ـ **«الركب الهاشمي في طريق العودة»** ورأينا فيه الركب يُسرّح مع النعمان بن بشير، فيعرج على كربلاء بعد مرور أربعين يوماً على استشهاد الحسين عليه السلام فتكون «زيارة الأربعين» ويقيم الركب ثلاثاً في الطف ثم يتوجه إلى المدينة، وبشر بن جذلم يسبق الركب لينعى الحسين، ويخرج المجتمع المدني وهو يضجّ بالبكاء، ويستثمر الإمام زين العابدين عليه السلام الهياج الجماهيري، فيلقي خطاباً مؤثراً داعياً يستوعب أبعاد الظلامة النكراء، ويبدأ النظام بكثير من الالتواء يتنصل من جريمته السوداء بعد أن اهتز العالم الإسلامي لها من أقصاه إلى أدناه.

وكان ختام الفصل بعرض حديث الطف بين البحث الموضوعي الرائد، والجانب المأساوي الهادف، وأعطى كلاً منهما خصائصه المميزة، وانتهى أن العرض المأساوي المترائي لثورة الحسين، هو الذي كتب للثورة الحياة التاريخية المتجددة لدى فصائل الشعوب المختلفة، وهو والبحث العلمي رافدان جاريان يصبّان في محيط الثورة، وبهما تقترن العاطفة الصادقة بالعقيدة الخالصة.

الفصل الخامس: «آثار الثورة النضالية» وقد رأينا فيه اندلاع اللهيب يحتضن: ـ

١ ـ «**ثورة الحسين**» وهي تواصل الزحف النضالي، لأنها تمتلك أداة التغيير الاجتماعي، فتثير الاندفاع الثوري في الكوفة متمثلاً بصرخة عبد الله بن عفيف الأزدي بوجه ابن زياد، وعرضنا فيه لثورة المدينة المنورة وقد أججتها ابنة أمير المؤمنين بخطبها وأحاديثها، فتهيأ المجتمع المدني للثورة بقيادة عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، فيطردون الوالي وأتباعه، ويخلعون يزيد، وتنفصل المدينة عن الشام، وتسحق الثورة وفيها ألق من شعاع كربلاء، وتستباح المدينة بوقعة الحرة الدموية على يد مسلم بن عقبة المريّ.

٢ ـ «**ثورة التوابين**» لمسنا فيها الإعداد الثوري في سريّة شاملة، وإعلان الثورة في ميقاتها تحت شعار «يا لثارات الحسين»، وبلوغها درجة النضج السياسي إذا اعتبرت النظام الأموي هو المسؤول الأول عن مجزرة كربلاء، والقتلة في الكوفة ذوي دور ثانوي، فقصدت النظام في الشام، في معركة هائلة «بعين الوردة» ذهب ضحيتها أغلب التوابين إلا قلة اختفت بليل، ولكنها مهدّت لثورة المختار.

٣ ـ «**ثورة ابن الزبير**» وهي ثورة بالمعنى المجازي لأنها استهدفت النظام لغايات ذاتية، واستغلت المبدأ العالمي لثورة الحسين وإذن لم تسر باتجاهها الإسلامي، واتخذ ابن الزبير مكة مقرّاً له، فهتك الأمويون حرمة البيت بقتاله فيه وحرقه عليه، بعد أن أخذت له البيعة في عدة حواضر إلا الشام والكوفة والجزيرة، وقمعها النظام قمعاً دموياً رهيباً، حتى رمى الكعبة، وسالت الدماء في الحرم.

٤ ـ «**ثورة المختار**» وقد رأينا المختار ذكياً في اختيار شعار ثورته وإعلان دوافعها، واستنادها بظل من محمد ابن الحنفية. وكانت شخصيته مثار جدل بين الباحثين بين مؤيد ومفند. والحق أن المختار أحد قادة العرب الأبطال، وذو قيادة فذة، جمع حوله الناس وشيعة أهل البيت، وأدرك وتره في الانتقام من قتلة الحسين فرداً فرداً، وأبرد برؤوس قادتهم إلى زين العابدين في المدينة، فحصل على شعبية كبيرة، كونه ثأر للحسين، والكوفة تحنّ سياسياً إلى من ينتسب لأمير المؤمنين بسبب ما، والمختار يدور بهذا الفلك. وقد عمد مصعب بن الزبير فقضى على الثورة قضاءً تاماً بلغت ضحاياه الآلاف، وكان عمل ابن الزبير هذا اعتداء صارخاً لا مسوغ له على الاطلاق، فالمختار ليس عدواً له، بل هو عدوٌ لعدوّه.

٥ ـ «**ثورة مطرّف بن المغيرة**» وهو والي الأمويين على المدائن، نهض بجرأة وأعلن الثورة على النظام، ودعا إلى الكتاب والسنة والشورى، وأبيد هو ومن بايعه إبادة شاملة، ولكن الضوء الإسلامي في ثورته ساطع التوهج.

٦ ـ «**ثورة ابن الأشعث**» وهو قائد جيش الطواويس الذي افتتح سجستان وحدود الأفغان، أمره الحجاج بالتوغل في الأفغان فأبى، وثار

على النظام وخلع الحجاج وعبد الملك بن مروان، والتحق به أهل الكوفة، ومعه القرّاء والتابعون، وأقلق النظام بمعارك دامية، أشهرها وقائع «دير الجماجم» التي بلغت ثمانين وقعة، وقابلها الحكم بالجيش السوري الهائل، فقتل الآلاف من أصحابه في الحرب، والآلاف صبراً في الأسر من قبل الحجاج، وانتهت الصورة بانتحاره على الأرجح.

٧ «**ثورة زيد بن علي**» وقد فجرّها الظلم الداهم والعسف المتراكم، فانفجرت قبيل أوانها، وأسلم زيداً أصحابه عند الوثبة، فانتهت بقتله وصلبه وإحراقه، ولكنها أبقت الجذوة في اشتعال، فثار ولده يحيى في الكوفة بعده، وقوبل بالنفير العام من قبل الحكم، ففر ببعض أصحابه إلى الجبل وأصفهان حتى قتل بوحشية لا مثيل لها، وتبعت ذلك ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار في المشرق واستولت على كثير من البلاد، وانتهت بالقتل الذريع، إلا أن المناخ السياسي ظلّ في غليان مستمر حتى تم الانقلاب العباسي.

٨ ـ «**الانقلاب العباسي**» ورأينا فيه العباسيين يعملون لحسابهم الخاص، وهم في معزل عن العلويين، حتى أنهم تخلفوا جميعاً عن الحسين، ولكنهم استغلوا ثورة الحسين في صالحهم، ونشروا ظلامة أهل البيت دريئة لهم، ويتم الإعلان عن الخلافة العباسية بجيوش فارسية ضخمة، وتخيب آمال الكوفيين والعلويين وتستمر الانتفاضات ضد العباسيين، ولا تهدأ إلا بوداع القرن الثاني الهجري.

ولم يكن الانقلاب العباسي امتداداً لثورة الحسين، ولكنه استثمرها لدوافعه السياسية.

الفصل السادس: «**ظواهر الثورة الاجتماعية**» وقد رأينا فيه بحث أبرزها.

١ ـ «ظاهرة الحسرة والندم» وقد بدأت بعد مصرع الحسين عليه السلام مباشرة، وهي تصوّر الهواجس الداخلية في النفس، يصعدّها أولئك الذين أتيحت لهم الفرصة لنصر الحسين فتخلّفوا عنه وخذلوه، وقد مثّلها بمرارة الشاعر المتمرد عبيد الله بن الحرّ الجعفي، وعبّر من خلالها عن أزمته النفسية التي لازمته مدى الحياة، وهو يتخلّى عن نصرة الحسين، ويتهرب عن الاستجابة له، ثم يستفيق من غفوته هذه، فينقم على النظام، ويقف عند مصارع الشهداء في كربلاء فيترحم لهم، ويرثي الحسين بلوعة صادقة، ويعبّر عن الألم القاتل والخيبة النفسية وهو يخذله، ويمهّد الطريق بين يدي التقاليد الفنية للقصيدة العربية في رثاء الحسين.

٢ ـ «ظاهرة الشعر العربي برثاء الحسين» وقد رأينا في هذا البحث تأثير الثورة في الأعماق وهي تستصرخ قرائح الشعراء، وتمد الأدب العربي بثروة ضخمة العطاء، وعرضنا لأول شعر رثي به الحسين، ولمسنا الروح الثورية بهذا الأدب الجديد إلى جنب المشاعر الجيّاشة عند شعراء العربية، و رأينا التكامل الفني يأخذ طابعه الأصيل في رثاء الإمام الحسين عليه السلام في عهد الإمام الصادق عليه السلام وهو يشجعه ويدعو إليه ويُعلي من منزلته جزاءً وإثابة، متزامناً بالالتزام حتى عهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام مما كوّن البدايات الأولى لتأسيس المنبر الحسيني. عرضنا بعد ذلك للحشد الهائل من الشعراء في العصر الأموي، والعباسي، والفترة المظلمة، والعهد العثماني.. حتى القرن العشرين من الذين صوّروا واقعة الطف، وأبدعوا في رثاء الإمام الحسين عليه السلام.

٣ ـ «**ظاهرة زيارة الإمام الحسين**» وهي أكثر الظواهر الاجتماعية شيوعاً في مواكبة ثورة الحسين، تحيى ذكراه، وتتعاهد ضريحه، وتسرج ألق النضال، وتكثّف الحضور الاجتماعي الرائد في ثرى الطف، وهي على نوعين: لا تقتصر على زمن بعينه فهي الزيارة المطلقة، وتقتصر على زمن معين وهي الزيارة المخصوصة، ولهما آداب وطقوس وسنن ومراسم.

وسلطنا الضوء من خلالها على معاناة أتباع أهل البيت في أدائها، ومدى تضحيتهم في سبيلها، وهم يتعرضون لشتى أصناف الإرهاب، ويدفعون الضرائب المالية والدموية من أجل إحيائها، والالتزام العقائدي بشعارها، وكما تعرض هؤلاء لهذه الضغوط، فقد تعرض الأصل وهو الحرم الحسيني الشريف لشتى محاولات التخريب والنهب والسلب سواء أكان ذلك في العصر العباسي أم كان على يدي الإخوان في القرن الثالث عشر الهجري.

وأعطينا خلاصة حديثية موجزة عن فضل زيارة الحسين وثوابها، في حالتي الأمن والخوف، وكانت من الكثرة بمكان، وتزداد الزيارة فضلاً في الأوقات الشريفة. ثم كانت خاتمة المطاف بقصيدة المؤلف في رثاء الإمام الحسين عليه السلام.

ومن خلال هذه النتائج رأينا الإمام الحسين عليه السلام قائداً حكيماً يتمثل الإسلام في خطواته الثورية، وداعياً حثيثاً إلى ضرورة التغيير الاجتماعي نحو الأفضل، وقد مَثُلَ أمام دوره القيادي رائداً للتحرر الإنساني بأدق معاني الكلمة، واستطاعت مبادؤه العليا خلق الإنسان المسلم خلقاً جديداً واعياً يرفض الذلّ والهوان والاستسلام، وتنفسّت

ثورته فبعثت روح النضال بتتابع الثورات على الظلم والاضطهاد، ورأينا قَتَلَةَ الحسين والنظام لم يكتب لهما البقاء، فباؤوا بلعنة الأجيال، واختفوا في حنايا مزبلة التاريخ، بينما بقي الحسين صوتاً هادراً متجاوب الأصداء في مسمع الدنيا، يهزّ عروش الظالمين.

النجف الأشرف　　　　الدكتور محمد حسين علي الصغير

المصادر والمراجع

١ ـ خير ما نبدأ به : القرآن العظيم.

٢ ـ ابن أبي الحديد/ عز الدين/ عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ) ، **شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي** عليه السلام ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٥٩ م.

٣ ـ ابن الأثير/ أبو الحسن/ علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ) ، **الكامل في التاريخ** ، دار صادر/ بيروت/ ٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

٤ ـ أحمد أمين (الدكتور) (ت ١٣٧٣ هـ) ، **ضحى الإسلام** ، مطبعة الاعتماد/ القاهرة/ ١٩٣٣ م.

٥ ـ أحمد أمين: **فجر الإسلام** ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة/ القاهرة/ ١٩٥٥ م.

٦ ـ أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، **المسند**، مطبعة دار المعارف بمصر/ القاهرة/ د. ت.

٧ ـ أحمد الشايب (الدكتور)، **تاريخ الشعر السياسي**، مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة/ ١٩٥٦ م.

٨ ـ أحمد زكي صفوت (الدكتور) ، **جمهرة خطب العرب**، مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٥٩ م.

٩ ـ الإربلّي/ أبو الحسن/ علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٣ هـ)،
كشف الغمّة في معرفة الأئمة، مطبعة النجف/ النجف الأشرف/ ١٣٨٥ هـ.

١٠ ـ الأصبهاني/ أبو الفرج/ علي بن الحسين (ت: ٣٥٦ هـ)
الأغاني/ تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب المصرية/ القاهرة/ ١٩٦١ م.

١١ ـ الأصبهاني/ أبو الفرج: **مقاتل الطالبيين**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٥٦ م.

١٢ ـ باقر شريف القرشي
حياة الإمام الحسن بن علي
الطبعة الثالثة/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٣٩٢ هـ.

١٣ ـ باقر شريف القرشي، **حياة الإمام زين العابدين**، دار الأضواء/ بيروت/ ١٩٩٠ م.

١٤ ـ البشاري المقدسي، **أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم**، تحقيق: دي غويه/ ليدن/ ١٩٢٣ م.

١٥ ـ البلاذري/ أحمد بن يحيى (ت: ٢٧٩ هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق: محمد حميد الله/ دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٥٩ م.

١٦ ـ البهائي/ محمد بن الحسين الحارثي العاملي الهمداني (ت ١٠٣١ هـ)، **الكشكول/ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي**، دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٦١.

١٧ ـ بروكلمان/ المستشرق الألماني كارل بروكلمان (١٨٦٨ م ـ ١٩٥٦ م)، **تاريخ الشعوب الإسلامية/ ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي**، دار العلم للملايين الطبعة الثانية/ بيروت/ ١٩٦٠ م.

١٨ ـ البيهقي/ أبو بكر/ أحمد بن الحسين الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) **المحاسن والمساوىء**، دار صادر/ بيروت/ د. ت.

١٩ ـ الجاحظ/ أبو عثمان/ عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) **البيان والتبيين**، تحقيق: حسن السندوبي/ المطبعة الرحمانية/ القاهرة/ ١٩٣٢ م.

٢٠ ـ جرير/ جرير بن عطية الخطفي (ت ١١١ هـ)، **ديوان جرير**، دار صادر/ بيروت/ ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م.

٢١ ـ جورجي زيدان/ مؤسس دار الهلال في القاهرة، **تاريخ التمدن الإسلامي**، مطبعة دار الهلال/ القاهرة/ ١٩٣٠ م.

٢٢ ـ ابن الجوزي/ السبط/ أبو المظفر/ شمس الدين يوسف (ت ٦٥٤ هـ).

٢٣ ـ الحاكم النيسابوري/ أبو عبد الله/ محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ)، **المستدرك على الصحيحين في الحديث**، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية/ حيدر آباد الدكن/ ١٣٤١ هـ.

٢٤ ـ ابن حجر/ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، **الاصابة في تمييز الصحابة**، مطبعة مصطفى محمد/ القاهرة/ ١٩٣٩ م.

٢٥ ـ الحر العاملي/ محمد بن الحسن (ت ١١٠٤ هـ)، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ د. ت.

٢٦ ـ حسن إبراهيم حسن (الدكتور)، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مطبعة السنة المحمدية/ الطبعة السابعة/ القاهرة/ ١٩٦٤ م.

٢٧ ـ الخطيب البغدادي/ أبو بكر/ أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، الطبعة الأولى/ مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٣١ م.

٢٨ ـ ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨ هـ)، **تاريخ ابن خلدون**، العبر وديوان المبتدأ والخبر/ بيروت/ ١٣٩١ هـ.

٢٩ ـ الخوارزمي/ أبو المؤيد/ الموفق بن أحمد المكي (ت ٥٦٨ هـ)، **مقتل الحسين**، مطبعة الزهراء/ النجف الأشرف/ ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م.

٣٠ ـ الخوئي/ أبو القاسم الموسوي الخوئي (المرجع الديني الأعلى الراحل/ (ت ١٤١٣ هـ)، **معجم رجال الحديث**، الطبعة الأولى/

مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٩٧٠ م.

٣١ ـ الدربندي/ آقا بن عابد بن رمضان الشرواني الحائري (ت ١٢٨٦ هـ)، **أسرار الشهادة**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٦٠ م.

٣٢ ـ ابن دريد/ أبو بكر/ محمد بن الحسن الأزدي القحطاني (ت ٣٢١ هـ)، **المجتنى**، مؤسسة الخانجي بمصر/ القاهرة/ ١٩٦١ م.

٣٣ ـ الدينوري/ أحمد بن داود (ت ٢٩٠ هـ)، **الأخبار الطوال**، مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٤٩ م.

٣٤ ـ الشبلنجي/ مؤمن بن حسن الشافعي (ت أوائل القرن الرابع عشر)، **نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار**، مطبعة عاطف/ القاهرة/ ١٣٨٤ هـ.

٣٥ ـ ابن شهرآشوب/ محمد بن علي السروي (ت ٥٨٨ هـ)، **مناقب آل أبي طالب (المناقب)**، المطبعة العلمية/ قم/ د. ت.

٣٦ ـ ابن الصبّاغ/ علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي (ت ٨٥٥ هـ)، **الفصول المهمّة في معرفة أحوال الأئمة**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨١ هـ.

٣٧ ـ الصدوق/ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (ت ٣٨١ هـ)، **الأمالي**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٩ هـ).

٣٨ ـ الصدوق/ أبو جعفر: **عِلل الشرائع**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٥ هـ.

٣٩ ـ ابن طاووس/ رضي الدين/ علي بن موسى بن جعفر (ت ٦٦٤ هـ)، **اللهوف إلى قتلى الطفوف**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٦ هـ.

٤٠ ـ الطبري/ أبو جعفر/ محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) ، **تاريخ الأمم والملوك/ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم**، دار المعارف بمصر.

٤١ ـ طه حسين/ الدكتور/ عميد الأدب العربي الراحل (ت ١٩٧٣ م) **الفتنة الكبرى (علي وبنوه)**، دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٦٦ م.

٤٢ ـ طه حسين: **الفتنة الكبرى (عثمان بن عفّان)**، دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٦٨ م.

٤٣ ـ الطوسي/ أبو جعفر/ محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ)، **رجال الطوسي/ تحقيق: محمد صادق بحر العلوم**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٦١ م.

٤٤ ـ الطوسي/ أبو جعفر: **مصباح المتهجد**، الطبعة الحجرية/ إيران/ د. ت.

٤٥ ـ عباس محمد رضا القمي النجفي (ت ١٣٥٩ هـ)، **سفينة البحار ومدينة الحِكم والآثار**، المطبعة العلمية/ النجف الأشرف/ ١٩٥٥ م.

٤٦ ـ عباس محمد رضا القمي النجفي: **الكنى والألقاب**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٥٦ م.

٤٧ ـ عباس محمد رضا القمي النجفي: **مفاتيح الجنان/ تعريب: محمد رضا النوري**، دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ د. ت.

٤٨ ـ ابن عبد البرّ/ أبو عمر/ يوسف بن عبد البر الأندلسي (ت ٤٦٣ هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٣٢٨ هـ.

٤٩ ـ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (ت ١٣٩٠ هـ)، **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، دار الكتاب العربي/ الطبعة الثالثة/ بيروت/ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م.

٥٠ ـ ابن عبد ربّه/ أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ)، **العقد الفريد**، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة/ ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م.

٥١ ـ ابن عنبة/ جمال الدين/ أحمد بن علي الداودي (ت ٨٢٨ هـ)، **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٠ هـ.

٥٢ ـ ڤان ڤلوتن/ مستشرق ألماني، **السيادة العربية**، القاهرة/ ١٩٣٣ م.

٥٣ ـ الفتّال/ محمد النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ)، **روضة الواعظين**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٦هـ.

٥٤ ـ ڤلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، دار صادر/ بيروت.

٥٥ ـ ڤون كريمر، **الحضارة الإسلامية**، تقديم خودابخش.

٥٦ ـ ابن قتيبة/ أبو محمد/ عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، **الإمامة والسياسة**، الطبعة الثانية/ القاهرة/ ١٣٢٥ هـ.

٥٧ ـ ابن قولويه/ أبو القاسم، **جعفر بن محمد بن جعفر** (ت ٣٦٨ هـ)، كامل الزيارات/ الطبعة الحجرية/ إيران/ ١٣٣٥ هـ.

٥٨ ـ القندوزي/ سليمان بن إبراهيم الحسيني البلخي (ت ١٢٩٤ هـ)، **ينابيع المودّة**، مطبعة اختر/ إسلامبول/ ١٣٠١ هـ.

٥٩ ـ ابن كثير/ عماد الدين/ إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف/ بيروت/ ١٩٦٦ م.

٦٠ ـ الكشي/ أبو عمرو/ محمد بن عمر بن عبد العزيز، **رجال الكشي**، تحقيق: أحمد الحسيني/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٩٧٠ م.

٦١ ـ الكليني/ أبو جعفر/ محمد يعقوب بن إسحاق الرازي البغدادي (ت ٣٢٨ هـ)، **أصول الكافي**، دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٧٨ هـ.

٦٢ ـ الكميت / أبو المستهل/ الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦ هـ)، **الهاشميات**، شرح: محمد محمود الرافعي/ القاهرة/ ١٩١٢ م.

٦٣ ـ المجلسي/ محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت ١١١١ هـ)،

بحار الأنوار، دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٨٦ هـ.

٦٤ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي (ت ١٣٧١ هـ)، **أعيان الشيعة**، مطبعة الانصاف/ بيروت/ ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م.

٦٥ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي (ت ١٣٧١ هـ)، **الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ كربلاء/ د. ث.

٦٦ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي

لواعج الأشجان، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٥ هـ.

٦٧ ـ محمد تقي آل بحر العلوم (ت ١٣٩٣ هـ)

مقتل الحسين، تحقيق: السيد حسين بحر العلوم/ مطبعة الزهراء/ بغداد/ ١٩٧٨ م.

٦٨ ـ محمد حسن مصطفى الكليدار، **مدينة الحسين**، مطبعة أهل البيت/ كربلاء/ ١٩٦٩ م.

٦٩ ـ محمد حسين علي الصغير (المؤلف)، **الإمام زين العابدين/ القائد. الداعية. الإنسان**، مؤسسة الغدير للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٩٩.

٧٠ ـ محمد حسين علي الصغير، **الصورة الأدبية في الشعر الأموي** رسالة ماجستير/ كلية الآداب/ جامعة بغداد/ ١٩٧٥.

٧١ ـ المزرباني/ أبو عبدالله/ محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤ هـ)، **معجم الشعراء**، تحقيق عبد الستار أحمد فراجّ/ دار إحياء

الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٦٠.

٧٢ ـ المسعودي/ أبو الحسن/ علي بن الحسين المسعودي البغدادي (ت ٣٤٦ هـ)، **التنبيه والأشراف**، تصحيح: عبد الله الصاوي/ دار الصاوي/ القاهرة/ ١٩٣٨ هـ.

٧٣ ـ المسعودي (نفسه فيما سبق)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر تح: يوسف أسعد داغر**، دار الأندلس/ بيروت/ ١٩٦٥ م.

٧٤ ـ المفيد/ الشيخ الأكبر أبو عبد الله/ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ)، **الإرشاد**، دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٧٧ هـ.

٧٥ ـ المقريزي/ أبو محمد/ أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)، **الخطط ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، مطبعة النيل/ القاهرة/ ١٣٢٥ هـ.

٧٦ ـ محمد مهدي شمس الدين، **أنصار الحسين**، الطبعة الأولى/ دار الفكر/ بيروت/ ١٩٧٥ م.

٧٧ ـ محمد مهدي شمس الدين، **ثورة الحسين**، الطبعة الأولى دار الأندلس/ بيروت/ ١٩٦٤م.

٧٨ ـ موسوعة النجف الأشرف: **عدة من الباحثين**، اصدار جعفر الدجيلي/ دار الأضواء/ بيروت/ ١٩٩٣ م.

٧٩ ـ نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢ هـ)، **وقعة الجمل**، الطبعة الأولى/ القاهرة/ د. ت.

٨٠ ـ نصر بن مزاحم المنقري، **وقعة صفين/ تحـ: عبد السلام محمد هارون**، الطبعة الثانية/ مطبعة المدني/ القاهرة/ ١٣٨٢ هـ.

٨١ ـ أبو نعيم/ أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٣٣ م.

٨٢ ـ ابن نما/ نجم الدين/ محمد بن جعفر الحلي (ت ٦٤٥ هـ)، **مثير الأحزان**، المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م.

٨٣ ـ هاشم معروف الحسني، **سيرة الأئمة الاثني عشر**، دار القلم/ بيروت/ ١٩٧٨ م.

٨٤ ـ الهندي/ علاء الدين/ علي النقي المتقي الهندي (ت ٩٧٥ هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية/ الهند/ ١٣١٣ هـ.

٨٥ ـ اليعقوبي/ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٥٤هـ) تأريخ اليعقوبي، **النجف الأشرف**، المطبعة الحيدرية/ ١٣٨٤هـ.

٨٦ ـ يوسف خليف (رئيس قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة القاهرة، **(الأستاذ المشرف على رسالة الدكتوراة للمؤلف)**، حياة الشعر في الكوفة/ دار الكاتب العربي/ القاهرة/ ١٩٦٨ م.

فهرس الآيات القرآنية

سورة الأنفال

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الحجر

سورة الإسراء

سورة مريم

سورة المؤمنون

سورة القصص

سورة الروم

سورة الأحزاب

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الدخان

سورة الفتح

فهرس الإعلام

حرف الأول

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

فهرس الموضوعات

